غريبُ الحديثِ النبويّ

دراسةٌ أسلوبيةٌ في كتابِ مشكاةِ المصابيحِ

د/ كريم محمد محمد صِدّيق

المقدمة

إِن الْحَمد لله نحمده، ونستعينه، وَنَسْتَغْفِرهُ، ونعوذ بِالله من شرور أَنْفُسنَا وَمن سيئات أَعمالنا، من يهده الله فَلا مضل لَهُ، وَمن يضلل فَلا هادي لَهُ، وَأشْهد أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شريك لَهُ، وَأشْهد أَن مُحَمَّدًا عَبده وَرَسُوله، سيد الْأَوَّلين والآخرين، قدوتنا وإمامنا ﷺ وَبَارك عَلَيْهِ وعَلى آله وَأَصْحَابه وَأَتْبَاعه وأعوانه.

أما بعد، فإن السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم قد حوت كثيرًا من الألفاظ التي تحتاج إلى بيان معناها؛ نظرًا لغموضها، هذا الأمر الذي حدا بالعلماء إلى العناية بهذه الألفاظ وتأليف المصنفات الكثيرة في ذلك وهو ما عرف بعلم غريب الحديث.

إن اختيار النبي ﷺ للفظ الغريب ليس قصدًا للإبهام ولا تعمدًا للإغراب، ولكنه إصابة لكبد المعنى، إنها كلمات يحتاجها السياق ويدعو إليها الموقف، إنه الأسلوب النبوي الذي بلغ المنتهى في البلاغة والفصاحة وحسبه من تزكية الله ﷻ له في قوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣]، فالاختيارات النبوية اختيارات مبنية على دراية شديدة بلغة العرب، فهي لم توضع خبط عشواء ولكنها وضعت بعناية بالغة ودقة متناهية لتلائم معايير الفصاحة في اللسان العربي.

تظهر عناية الشرع الشديدة باختيار اللفظ المناسب للسياق من خلال أول نداء للمؤمنين في القرآن، حيث يقول الله ﷻ في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ﴾[البقرة: ١٠٤]، «وَذَلِكَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَقُولُونَ رَاعِنَا يَا رَسُولَ اللهِ، مِنَ الْمُرَاعَاةِ أَيْ أَرْعِنَا سَمْعَكَ، أَيْ فَرِّغْ سَمْعَكَ لِكَلَامِنَا، يُقَالُ: أَرْعَى إِلَى الشَّيْءِ، وَرَعَاهُ، وَرَاعَاهُ، أَيْ أَصْغَى إِلَيْهِ وَاسْتَمَعَهُ، وَكَانَتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ شَيْئًا قَبِيحًا بِلُغَةِ الْيَهُودِ، وَقِيلَ: كَانَ مَعْنَاهَا عِنْدَهُمُ اسْمَعْ لَا سَمِعْتَ»[1].

«وَقِيلَ: هِيَ مِنَ الرُّعُونَةِ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُحَمِّقُوا إِنْسَانًا قَالُوا لَهُ: رَاعِنَا بِمَعْنَى يَا أَحْمَقُ! فَلَمَّا سَمِعَ الْيَهُودُ هَذِهِ اللَّفْظَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: كُنَّا نَسُبُّ مُحَمَّدًا سِرًّا، فَأَعْلِنُوا بِهِ الْآنَ، فَكَانُوا يَأْتُونَهُ وَيَقُولُونَ: رَاعِنَا يَا مُحَمَّدُ، وَيَضْحَكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَسَمِعَهَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَفَطِنَ لَهَا، وَكَانَ يَعْرِفُ لُغَتَهُمْ، فَقَالَ لِلْيَهُودِ: لَئِنْ سَمِعْتُهَا مِنْ أَحَدِكُمْ يَقُولُهَا لِرَسُولِ ﷺلَأَضْرِبَنَّ عُنُقَهُ، فَقَالُوا: أَوَلَسْتُمْ تَقُولُونَهَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾» [البقرة: ١٠٤][2].

بلغت عناية الشرع بالألفاظ لدرجة أن جعل النداء الأول في ترتيب القرآن بحسب الورود في المصحف هو لبيان مدى أهمية اختيار اللفظ المناسب للسياق والعدول عن اللفظ الذي يحمل أكثر من معنى إلى لفظ أخر لا يحتمل ذلك.

---

(١) أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي – تفسير البغوي – ج١ ص١٥٢ – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط١ ١٤٢٠ هـ.

(٢) تفسير البغوي – ج١ ص١٥٢.

هذه العناية لم تكن في القرآن فحسب بل في السنة أيضا، نرى النبي ﷺ يعدل عن اللفظ الشائع إلى لفظ آخر غريب ليس إلا لدلالة الغريب على المعنى أكثر من الشائع، يقول رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: خَبُثَتْ نَفْسِي وَلَكِنْ لِيَقُلْ: لَقِسَتْ نَفْسِي» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

قال الطيبي: «(لقست) أي غثت واللقس الغثيان، وإنما كره (خبثت) هربا من لفظ الخبث والخبيث، واللقس أيضا السيء الخلق، وقيل: الشحيح، ولقست نفسه إلى الشيء إذا حرصت عليه ونازعته عليه، إنما كره لفظ الخبث لشناعته»(٢).

«وجَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: عَلِّمْنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ قَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ لَقَدْ أَعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ أَعْتِقِ النَّسَمَةَ وَفك الرَّقَبَة». قَالَ: أَو ليسَا وَاحِدًا؟ قَالَ: «لَا عِتْقُ النَّسَمَةِ: أَنْ تَفَرَّدَ بِعِتْقِهَا وَفَكُّ الرَّقَبَةِ: أَنْ تُعِينَ فِي ثَمَنِهَا.....». رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي شعب الْإِيمَان(٣).

قال الطيبي: «ووجه الفرق المذكور أن العتق إزالة الرق، وذلك لا يكون إلا من المالك الذي يعتق، وأما الفك فهو السعي في التخليص، فيكون من غيره كمن أدى النجم عن المكاتب أو أعانه فيه»(٤).

---

(١) محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٣ ص١٣٤٦ – المكتب الإسلامي – بيروت – تحقيق محمد ناصر الدين الألباني – ط٣ – ١٩٨٥.

(٢) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج١٠ ص٣٠٩٠– تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي – مكتبة نزار مكة – ط١ ١٩٩٧.

(٣) محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٢ ص١٠١٠.

(٤) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج٨ ص٢٤٢٦.

فبين النبي ﷺ للسائل الفرق بين العتق والفك فبينهما من الفروق ما بينهما مما جعل النبي صلى الله عليه يعطف إحداهما على الأخرى، والعطف يقتضي المغايرة.

لذا فقد جاء هذا البحث ليلقي الضوء على الألفاظ الغريبة في أحاديث النبي ﷺ ومعالجة هذه الألفاظ معالجة بلاغية وأسلوبية من خلال إبراز النواحي الجمالية في هذه الكلمات وبيان إسهامها في أداء المعنى بصورة أدبية راقية تتناسب مع قائل النص الذي هو أفصح العرب قاطبة منذ فتق لسانها بالعربية إلى قيام الساعة.

ولأن دواوين السنة بحر لا ساحل له فقد اخترت كتابًا واحدًا من كتب الحديث لأعمل فيه جهدي وهو كتاب «مشكاة المصابيح» الذي جمعه ولي الدين أبو عبد الله، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، أحد علماء القرن الثامن الهجري، حيث نظر الخطيب التبريزي في كتاب (مصابيح السنة) الذي جمعه أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي المتوفى سنة ٥١٦ هـ أو ٥١٠ هـ فكمله وهذبه وشذبه وعين رواته ونسب الحديث إلى الأئمة المتقنين وقسمه أبوابه إلى فصول، وقد انتهى من تصنيف الكتاب وجمعه سنة ٧٣٧ هـ، ولا يعلم على وجه الدقة تاريخ وفاته.

وسبب اختيار هذا الكتاب تحديدًا هو تصدي إمام من أئمة البلاغة لشرح الكتاب، فلسنا بصدد البحث عن الأحكام الفقهية والحديثية في الأحاديث في هذا البحث، وإنما الغرض الأساسي هو البحث عن القيمة البلاغية للألفاظ الغريبة، فالتمسناها فوجدناها عند أهلها من أهل هذا الفن، وهو الإمام العلم صاحب التصانيف البلاغية الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي، المتوفى سنة ٧٤٣ هـ، الذي أطال النفس في بيان مدى ملاءمة الكلمات الغريبة لموقعها من السياق بعد شرحها وتمييزها عن مثيلاتها التي تؤدي المعنى أو قريبًا منه[1].

ثم قمت بقراءة كتاب (مشكاة المصابيح) قراءة واعية واستخرجت ما به من ألفاظ غريبة في كلام النبي ﷺ ولكني لم أشأ أن أجعل من نفسي حكمًا على غرابة اللفظ من عدمها؛ فإن معيار الغرابة نسبي يختلف باختلاف الزمان والمكان فعمدت إلى كتب غريب الحديث فجعلتها بغيتي في معرفة كون الكلمة من الغريب أو لا فهي الكتب التي ألفت قريبا من زمن النبي ﷺ بالمقارنة بزمننا وأصحابها هم أدرى الناس بلغة العرب ولكن الغريب أيضا بهذا الشكل كان من الكثرة بمكان فاخترت منه ما وجدت في شرحه النكات البلاغية والحُلل البيانية والتفسيرات الأسلوبية فإن هذا هو عماد الرسالة وصلب موضوعها. واللهَ أسألُ التوفيقَ والسداد في القول والعمل.

---

(١) اعتمدت في بيان أسماء المؤلفين وسنة وفاتهم على كتاب الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج١ ص١٨ – ٢٩ – ٣٣ – تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي – مكتبة نزار مكة – ط١ ١٩٩٧.

الباب الأول

الغريب بين البلاغة والأسلوبية

الفصل الأول
تعريف الغريب

الغريب لغة: جمع غرباء من غَرُبَ عن وطنه غرابة وغرْبةً: ابتعد عنه وغَرُبَ الكلام غرابةً: غمض وخفي[1].

واصطلاحاً: «ما خالف الشائع المألوف وتباعد عنه»[2]. فهو ما يخفى معناه من المتون؛ لقلة استعماله ودورانه على الألسن، بحيث يبعد فهمه ولا يظهر إلا بالتنقيب عنه فى كتب اللغة.

ورسول الله ﷺ كان أفصح العرب لسانا وأوضحهم بيانا، وكان الصحابة - رضوان الله عليهم- يعرفون أكثر ما يقوله، ولكن نشأت أجيال لا تعرف من اللغة إلا ما تتخاطب به، وجهلت الكثير من الألفاظ ومعانيها فى الحديث وفى غيره ومن هنا كان سبب نشأة علم غريب الحديث. قال الإمام النووي: «غريب

(١) مجمع اللغة العربية – المعجم الوسيط – ج٢ ص٦٤٧ – دار الدعوة – ط١.

(٢) د/ محمود نحلة – لغة القرآن الكريم في جزء عم – دار النهضة العربية – بيروت – ط١ ١٩٨١ م.

الحديث: هو ما وقع في متن الحديث من لفظة غامضة بعيدة من الفهم لقلة استعمالها»[1].

وعرفه السخاوي بأنه: «ما يخفى معناه من المتون لقلة استعماله ودورانه، بحيث يبعد فهمه، ولا يظهر إلا بالتفتيش فى كتب اللغة»[2].

وعرفه ابن الصلاح بقوله: «وهو عبارة عما وقع في متون الأحاديث من الألفاظ الغامضة البعيدة من الفهم لقلة استعمالها»[3].

ووصفه الزمخشري بأنه: «كشف ما غرب من ألفاظه واستبهم، وبيان ما اعتاص من أغراضه واستعجم»[4].

واهتمامي في التعريف بذكر غريب الحديث الشريف يرجع لأمرين: الأول: أن الجانب التطبيقي بالرسالة يُعنى بالحديث الشريف وإظهار النواحي البلاغية في تلك الأحاديث. الثاني: أن الغريب أصبح علمًا مستقلا بذاته بعد إلقاء الضوء عليه من قبل علماء الحديث فهم أول من نظر إلى الغريب باعتباره مادة تستحق الدراسة المنفصلة، لذا نراهم يصنفون له التصانيف المستقلة، وينشئون له الدواوين

(١) النووي – التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير – ص٨٧- دار الكتاب العربي بيروت – ط١.

(٢) السخاوي – فتح المغيث بشرح ألفية الحديث – ج٤ ص٢٤ – مكتبة السنة مصر – ط١.

(٣) أبو عمرو ابن الصلاح – مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث – ص٤٥٨ – دار المعارف مصر – ط٢.

(٤) الزمخشري – الفائق في غريب الحديث – ج١ ص١٢ – دار المعرفة لبنان – ط٢.

الخاصة. فالمراد بغريب الحديث: الألفاظ اللغوية البعيدة المعنى والغامضة التي تحتاج إلى شرح وإيضاح، وعلم غريب الحديث فن قائم بذاته ألفت فيه مؤلفات عديدة.

أهمية علم غريب الحديث:

يعتبر هذا الفن من العلوم التي يُحتاج إليها في معرفة معاني الأحاديث، حيث يترتب عليه الحكم على المتن من جهة، واستنباط الأحكام منه من جهة أخرى، وهو صورة من صور شرح الحديث فيحتاج إلى علم واسع بهذا الفن مع التحري والدقة. فقد سئل الإمام أحمد عن حرف من غريب الحديث فقال: «سلوا أصحاب الغريب، فإني أكره أن أتكلم في قول الرسول ﷺ بالظن فأخطئ»[1].

يقول الحافظ ابن حجر: «فإن خفي المعنى بأن كان اللفظ مستعملا بقلة احتيج إلى الكتب المصنفة في شرح الغريب»[2].

ويوسع السخاوي الغرض منه فيقول: «وهو من مهمات الفن لتوقف التلفظ ببعض الألفاظ فضلاً عن فهمها عليه، وتتأكد العناية به لمن يروي بالمعنى»[3].

(١) أبو عمرو ابن الصلاح – مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث – ص ٤٥٨.

(٢) ابن حجر العسقلاني – نخبة الفكر ص ٤٧–٤٨ – المكتبة العلمية – المدينة المنورة –ط ٣.

(٣) السخاوي – فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي – ج٤ ص٢٤ – مكتبة السنة – مصر – ط١ – ٢٠٠٣ م.

وسئل الأصمعي عن معنى حديث: (الجار أحق بسقبه) فقال: «أنا لا أفسر حديث رسول الله ﷺ، ولكن العرب تزعم أن السقب اللزيق»[1].

وإلى مثل هذا ذهب الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه على ألفية السيوطى فقال: «هذا الفن من أهم فنون الحديث واللغة، ويجب على طالب الحديث إتقانه، والخوض فيه صعب، والاحتياط في تفسير الألفاظ النبوية واجب، فلا يقدمنّ عليه أحد برأيه... ثم إن من أهم ما يلحق بهذا النوع البحث فى المجازات التى جاءت فى الأحاديث، إذ هى عن أفصح العرب ﷺ، ولا يتحقق فى معناها إلا أئمة البلاغة، ومن خير ما ألف فيها كتاب المجازات النبوية تأليف الإمام العالم الشاعر الشريف الرضي»[2].

أهم كتب غريب الحديث:[3]:

أول من جمع في هذا الفن أبو عبيدة معمر بن المثني (١١٠ - ٢٠٩هـ)، فجمع من ألفاظ غريب الحديث والأثر كتيبـًا صغيراً، ولم تكن قلته لجهله بغيره من غريب الحديث، وإنما كان ذلك لأمرين:

(١) أبو عمرو ابن الصلاح - مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث - ص ٢٧٣.

(٢) ألفية السيوطي، ومعه تعليق الشيخ أحمد شاكر، ص ٢٠١-٢٠٢ دار المعرفة بيروت.

(٣) انظر أحمد محمد الخراط - منهج ابن الأثير الجزري في مصنفه «النهاية في غريب الحديث والأثر» - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة - ص٦ وما بعدها.

أحدهما: أن كل من بدأ في فن لم يسبق إليه فإنه يكون قليلاً ثم يكبر.

والثاني: أن الناس يومئذ كان عندهم معرفة بلغة العرب، ولم يكن الجهل باللغة قد عم كما حصل في العصور المتأخرة.

ثم جمع أبو الحسن النضر بن شميل المازني (١٣٢ - ٢٠٣هـ) كتاباً أكبر من كتاب أبي عبيدة بسط فيه القول على صغر حجمه. ثم جمع عبد الملك بن قريب الأصمعي المشهور (١٢٢ - ٢١٦هـ) كتاباً أحسن فيه وأجاد، وكان كتابه أكبر حجماً ممن سبقه. وكذلك فعل محمد بن المستنير المعروف بقطرب (٢٠٩هـ) وغيره من الأئمة الذين جمعوا أحاديث وتكلموا على لغتها ومعناها في أوراق ذوات عدد، ولم يكد أحدهم ينفرد عن الآخر بكثير من الأحاديث.

واستمر الحال إلى زمن أبي عبيد القاسم بن سلام (١٥٧- ٢٢٤هـ) وكان من كبار علماء الحديث والأدب والفقه، فجمع كتابه المشهور في غريب الحديث والآثار، والذي أفنى فيه عمره حيث جمعه في أربعين سنة، وهو كتاب حافل بالأحاديث والآثار الكثيرة المعاني، اللطيفة الفوائد، وكان يظن ﷺ على كثرة تعبه أنه أتى على معظم الغريب، والمصنف هنا يذكرالأحاديث الواردة فيها هذه الكلمات أو العبارات ويأتي عليها بالشواهد من اللغة العربية وأقوال العرب، والكتاب غير مرتب على حروف المعجم، ولكن في آخر الكتاب فهرس بالألفاظ الموجودة في الكتاب، مما يسهل عملية البحث.

وبقي كتابه معتمد الناس إلى عصر أبي محمد عبد الله بن مسلم قتيبة الدينوري (٢١٣ - ٢٧٦هـ) فصنف كتابه المشهور في غريب الحديث، انتهج فيه نهج أبو عبيد في كتابه فتتبع ما أغفله أبو عبيد من ذلك، ولم يودعه شيئًا من كتاب أبي عبيد إلا ما دعت إليه الحاجة من زيادة شرح وبيان، أو استدراك أو اعتراض، فجاء مثل كتاب أبي عبيد أو أكثر منه، حتى ظن ابن قتيبة أن لا يكون بقي بعد هذين الكتابين من غريب الحديث ما يكون لأحد فيه مقال.

وكان في زمان ابن قتبية الإمام إبراهيم بن إسحاق الحربي الحافظ فجمع كتابًا كبيراً في خمس مجلدات بسط القول فيه، واستقصى الأحاديث عن طريق أسانيدها، وأطاله بذكر متونها، فطال كتابه وتُرِك وهجر، وإن كان كثير الفوائد، وقد توفي ببغداد سنة ٢٨٥هـ.

ثم أكثرَ الناسُ من التصانيف في هذا الفن كالمبرد اللغوي المشهور، وثعلب، ومحمد بن القاسم الأنباري، وسلمة بن عاصم النحوي، وعبد الملك بن حبيب المالكي، ومحمد بن حبيب البغدادي، وغيرهم ممن لا يحصون من أئمة اللغة والنحو والفقه والحديث.

واستمر الحال إلى عهد الإمام الخطابي البستي المتوفى سنة (٣٧٨هـ) فألف كتابه المشهور في غريب الحديث، وسلك فيه نهج أبي عبيد وابن قتيبة، وصرف عنايته فيه إلى جمع ما لا يوجد في كتابيهما، فاجتمع له من ذلك ما يداني كتاب أبي عبيد وكتاب ابن قتيبة.

فكانت هذه الكتب الثلاثة في غريب الحديث والأثر أمهات الكتب، وهي الدائرة بين أيدي الناس وعليها يعول علماء الأمصار، غير أن هذه الكتب الثلاثة وغيرها لم يكن فيها كتاب مرتب ترتيباً يستطيع الإنسان أن يأخذ حاجته منه بسرعة، بل يجد الباحث فيها كل تعب وعناء حتى يصل إلى الحديث.

وبقي الحال كذلك إلى أن جاء أبو عبيد أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الباشاني الهروي، المتوفى سنة (٤٠١ هـ)، وهو من معاصري الخطابي فألف كتابه السائرفي غريب القرآن والحديث، جمع فيه بين غريب القرآن والحديث، ورتبه ترتيباً لم يسبق إليه، فاستخرج الكلمات اللغوية الغريبة من أماكنها، وأثبتها في حروفها مرتبًا لها على حروف المعجم، وحذف الأسانيد وجمع فيه من غريب الحديث ما في كتب من تقدمه، وزاد عليه، فجاء كتاباً حافلاً جامعاً، إلا أنه جاء الحديث مفرقاً في حروف كلماته. وقد ذاع صيت هذا الكتاب بين الناس واتخذوه عمدة في الغريب، واقتفى أثره كثيرون واستدرك ما فاته آخرون.

ثم جاء الإمام أبوالقاسم محمود بن عمر الزمخشري جار الله، المتوفى سنة (٥٣٨هـ)، فألف كتابه (الفائق في غريب الحديث)، وهو كتاب قيم جامع، رتبه على وضع اختاره على حروف المعجم، ولكن العثور على معرفة الغريب منه فيه مشقة، وذلك لأنه يجيء بشرح الكلمات الغربية في حرف واحد فترد الكلمة في غير حروفها، فلذلك كان كتاب الهروي أقرب منه تناولاً، وإن كانت كلمات الحديث متفرقة في حروفها.

والإمام أبو الفرج الحافظ عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي صنف كتاباً في غريب الحديث نهج فيه طريق الهروي مجرَّداً عن غريب القرآن، يغلب عليه الوعظ، قال فيه: «قد فاتهم أشياء فرأيت أن أبذل الوسع في جمع الغريب وأرجو أن لا يشذ عني مهم من ذلك، وأن يغني كتابي عن جميع ما صنف في ذلك»[1].

النهاية في غريب الحديث والأثر:

ثم جاء مجد الدين مبارك بن محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير فألف كتابه النهاية في غريب الحديث والأثر، رتبه على حروف المعجم أيضاً، وقال في مقدمته: «ولقد تتبعت كتاب ابن الجوزي فرأيته مختصراً من كتاب الهروي منتزعاً من أبوابه شيئاً فشيئاً، ووضعاً فوضعاً، فلم يكن إلا جزءًا يسيرًا من أجزاء كثيرة، وأما أبو موسى الأصفهاني رحمه الله فإنه لم يذكر في كتابه مما ذكره الهروي إلا كلمة اضطر إلى ذكرها إما لخلل فيها أو زيادة في شرحها أو وجه آخر في معناها، ومع ذلك فإن كتابه يضاهي كتاب الهروي كما سبق لأن وضْعُ كتابِهِ استدراكٌ لما فات الهروي»[2].

ويقول: «ولما وقفت على كتابه الذي جعله مكملاً لكتاب الهروي ومتمماً وهو في غاية الحسن والكمال، وكان الإنسان إذا أراد كلمة غريبة يحتاج إلى أن يتطلبها في أحد الكتابيْن فإن وجدها فيه وإلا طلبها من الكتاب الآخر، وهما كتابان

(١) ابن الجوزي – غريب الحديث – ج١ ص٤ – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٨٥.

(٢) ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث – ج١ ص٩ – المكتبة العلمية – بيروت ١٩٧٩.

كبيران ذوا مجلدات عدة ولا خفاء بما في ذلك من الكلفة، فرأيت أن أجمع ما فيهما، من غريب الحديث مجرَّدًا من غريب القرآن، وأضيف كل كلمة إلى أختها في بابها تسهيلاً لكلفة الطلب»[1].

إلى أن قال: «كما يكون قد فاتني من الكلمات الغريبة التي تشتمل عليها أحاديث الرسول ﷺ وأصحابه وتابعيهم رضي الله عنهم، جعلها الله سبحانه ذخيرة لغيري يظهرها على يده ليذكر بها، ولقد صدق القائل: كم ترك الأول للآخر»[2]. ويبقى كتاب النهاية هو النهاية في هذا الفن، وهو أكبر مرجع في غريب الحديث.

وقد تحدَّث الإمام الخطابي في مقدمة كتابه (غريب الحديث) عن أسباب نشأة الغريب في حديث رسول الله ﷺ، وأشار إلى أنَّ الرسول ﷺ بُعِث مُبَلِّغًا ومُعَلِّمًا، فهو لا يزال في كلّ مَقامٍ يقومُه وموطنٍ يشهده، يأمر بمعروف، وينهى عن منكر، ويُفتي في نازلة، والأسماع إليه مُصْغِية. وقد تختلف في ذلك عباراتُه، ويتكرَّر بيانُه، ليكون أوْقَعَ للسامعين. وأولو الحفظ والإتقان من فقهاء الصحابة يرْعون كلامه سمعًا ويستوفونه حِفْظًا، ويُؤَدُّونه على اختلاف جهاته، فيجتمع لذلك في القضية الواحدة عدةُ ألفاظ تحتها معنى واحد. وكان الصحابة رضي الله عنهم يفهمون جُلَّ حديث نبيهم ﷺ وما خَفِيَ عليهم منه سألوه عنه، وأزالوا الإشكال عنه. وبعد انقضاءِ عصرهم، مضى المسلمون فاتحين يُبَلِّغون رسالة الله في الأرض، ومن

(١) المصدر السابق – ص٩.

(٢) المصدر السابق – ص١١.

الطبيعي أن يختلطوا ويختلط أولادهم بالأمم الأخرى، فتمتزج الألسنة، ويغيب عصرُ الفصاحة، وتَضْعُفَ سبُلُ المحافظة عليها، مع استمرار الاتصال بالأمم الأخرى، ودواعي امتزاج الألسنة والشعوب[1].

مما سبق يتبين لنا أن بعضًا مما عده الناس من الغريب في أحاديث النبي ﷺ هو من معلوم لغة قريش التي تتحدث بها وقد لحقته الغرابة بسبب توالي العصور عليه ولا أقول إن كل ما تحدث به النبي كان معلوما لهم بل توجد طائفة كبيرة منه كان الصحابة أنفسهم يسألون عن معناه لغموضه عليهم وقد أوليت جُل عنايتي في هذا البحث بهذا الغريب الذي كان غريبًا في زمن النبي ﷺ فضلا عن غرابته – ولا شك – في العصور التالية.

(١) انظر الخطابي – غريب الحديث – دار الفكر – دمشق – ١٩٨٢ م – ج١ ص٦٨.

الفصل الثاني

الغريب في دراسة البلاغيين

مدخل:

عُني البلاغيون قديمًا وحديثا بالغريب وجدوى استعماله في الكلام وتباينت نظرتهم حوله وهاأنا ذا أطوّف بكتبهم عساني أصل إلى دراسة تميط اللثام عن حقيقته والبلاغيون قد أفردوا دراسته في حديثهم عن الفصاحة وشروطها حيث قد وضعوا شروطا لفصاحة الكلمة فجعلوا منها خلوها من الغرابة والابتذال وتنافر الحروف ومخالفة العرف وكثرة الحروف الذي ينشأ عنه غرابة في نطق الكلمة[1].

تلك هي أهم العيوب التي تخل بفصاحة الكلمة المفردة في تصور بعض البلاغيين وهو تصور يشوبه بعض القصور لأنه يعني أن ألفاظ اللغة تنقسم إلى قسمين لا ثالث لهما ولا تداخل بينهما: فصيح وهو ما برئ من تلك العيوب وغير فصيح وهو ما كان فيه عيب أو أكثر منها، وهذا مما لا يمكن التسليم به على إطلاقه فالفصاحة أو الجمال أو القبح أو الوضوح أو ما إلى ذلك ليست خواصًا

(١) انظر ابن سنان الخفاجي – سر الفصاحة – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – ص٦٤ وما بعدها.

ذاتية للألفاظ بل هي صفات عارضة تكتسبها الألفاظ في سياقاتها فاللفظة الواحدة قد تكون فصيحة في سياق وغير فصيحة في سياق آخر(١).

وحسب الغريب في الحديث النبوي بلاغة خروجه من لسان النبي ﷺ الذي هو أفصح العرب قاطبة ولم لا؟ وقد قال عنه ربه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٣-٥]، فنحن لسنا في معرض الدفاع عن الغريب في الحديث النبوي ولا نسعى لمحاولة إثبات فصاحته بل نحاول جاهدين إبراز النواحي الجمالية في هذا الغريب وتسليط الضوء على مدى ملاءمته للسياق الذي جاء فيه مع الأخذ في الاعتبار أنه لم يكن كثيرا ولا متكلفا بل هو قليل جاء كالملح الذي يصلح الطعام ليزيده حلاوة.

الغريب عند البلاغيين القدماء:

أول ما نواجه من كتابات بلاغية حول قضية الغريب هي كتابات الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) وقد اتسمت نظرة الجاحظ إلى الغريب بالغموض؛ حيث وضع الغريب كله في سلة واحدة فلم يفرق بين الغريب الذي جاء يحمل في طياته معنى فريدًا لا يقدر غيره من الألفاظ على الاضطلاع به وبين الغريب الذي لم يضف إلى المعنى أي جديد سوى الإغراب والإبهام ولم يفرق بين غريب حسُنَ في أذن سامعيه وغريب ساء في أذن سامعيه من أجل المعاظلة أو تنافر الحروف.

---

(١) انظر د حسن طبل – د عبد الرحمن فودة – البلاغة العربية مصطلحات ومفاهيم – ألفا للنشر والتوزيع – بدون تاريخ – ص ١٩.

يعقد الجاحظ فصلا في كتابه البيان والتبيين يسميه (اللفظ الغريب ليس فصيحا) ثم يسرد فيه نماذج من مروياتهم ينعتها بضعف الفصاحة لما بها من ألفاظ غريبة فيقول: «ورأيت الناس يتداولون رسالة يحيى بن يعمر على لسان يزيد بن المهلب: «إنّا لقينا العدوّ فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة، ولحقت طائفة بعراعر الأودية وأهضام الغيطان، وبتنا بعرعرة الجبل، وبات العدو بحضيضة». قال: فقال الحجاج: ما يزيد بأبي عُذرِ هذا الكلام[1]. فقيل له: إن معه يحيى بن يعمر! فأمر بأن يحمل إليه فلما أتاه قال: أين ولدت؟ قال: بالأهواز. قال: فأنّى لك هذه الفصاحة؟ قال: أخذتها عن أبي عراعر الأودية: أسافلها. وعراعر الجبال: أعاليها. وأهضام الغيطان: مداخلها. والغيطان: جمع غائط، وهو الحائط ذو الشجر»[2].

والجاحظ ينقل كلامهم دون التعليق على عبارة الحجاج «فأنّى لك هذه الفصاحة؟» فالحجاج لم يستهجن كلام المتكلم بل سأله من أين لك هذه الفصاحة ولسنا بصدد الدفاع عن النص سالف الذكر بل الغرض منه إظهار تباين الآراء واختلاف المشارب بين المشتغلين بالأدب حول نظرتهم للغريب فلم يرفضه كلهم بل منهم من رفضه ألبتة ومنهم من قسم الغريب إلى غريب يسوغ استعماله وغريب لا يسوغ استعماله بحسب ما أضافه للنص الأدبي من قيمة جمالية وحسب السياق الذي جاء فيه وهذا أعدل المذاهب ومنهم من انحاز إلى

(١) يقال: هو أبو عذر هذا الكلام أي هو أول من قاله كأنه افتضه أولا – محقق البيان.

(٢) الجاحظ – البيان والتبيين – ج١ ص٣٠٠.

الغريب ورأى فيه ضالته المنشودة سواء أضاف للمعنى أم لم يضف.

ويبدو لنا من كلام الجاحظ أنه من الصنف الأول الذي رفض الغريب بالكلية دون تفصيل وإن كانت النصوص التي قدمها لينتصر لمذهبه لم تطاوعه على هذا الرأي فنراه يقول: «ورأيتهم يديرون في كتبهم أن امرأة خاصمت زوجها إلى يحيى بن يعمر فانتهرها مرارا، فقال له يحيى بن يعمر: «أإن سألتك ثمن شكرها وشبرك، أنشأت تطلّها وتضهلها» قالوا: الضهل: التقليل، والشكر: الفرج، والشبر: النكاح، وتطلها: تذهب بحقها، يقال دم مطلول. ويقال بئر ضهول، أي قليلة الماء»[1].

ثم يعلق الجاحظ على هذا الكلام بقوله: «فإن كانوا إنما رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة. وإن كانوا إنما دوّنوه في الكتب، وتذاكروه في المجالس لأنه غريب، فأبيات من شعر العجاج وشعر الطّرمّاح وأشعار هذيل، تأتي لهم مع حسن الرصف على أكثر من ذلك. وهذا ليس من أخلاق الكتاب ولا من آدابهم»[2].

والمتأمل لكلام الجاحظ هنا يجد أن نبرته الحادة في الحديث عن الغريب قد خفت؛ حيث جوّز استخدام الغريب للشعراء دون الكتاب؛ فهو يرى أن سماجة الغريب الذي لم يحسن توظيفه تخف بحسن النظم بكونه شعرًا.

---

(١) الجاحظ – البيان والتبيين – ج١ ص٣٠٠.

(٢) المصدر السابق – ج١ ص٣٠٠.

ثم نراه يقول: «وأنا ذاكر بعد هذا فنًا آخر من كلامه ﷺ، وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦]، فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق»[1].

لم يهجر النبي ﷺ الغريب بالكلية بل استعمله للحد الذي أحوج العلماء قبل الجاحظ وفي عصره وبعده لتصنيف الكتب التي تعنى باستخراج الغريب من دواوين السنة وشرحه؛ لذا نرى الجاحظ قد احترز من نفي الغريب بالكلية عن كلام النبي ﷺ بقوله (الغريب الوحشي) في إلماح لطيف وإشارة سريعة إلى التفرقة بين نوعين من الغريب عند الجاحظ وإن كان لم يذكره صراحة فهذه إشارة لطيفة وإلماحة سريعة منه إلى جواز استعمال نوع آخر من الغريب وهو ما كان بخلاف الوحشي وذلك إذا ما اقتضاه الحال ودعا إليه المقام.

ويعقد الجاحظ في كتاب الحيوان فصلا يسميه لغة الكتب فيقول فيه: «وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه، حتّى لا يحتاج السامع لما

(١) الجاحظ – البيان والتبيين – ج٢ ص١٣- ١٤.

فيه من الرويّة، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السّفلة والحشو، ويحطّه من غريب الأعراب ووحشيّ الكلام، وليس له أن يهذّبه جدّا، وينقّحه ويصفّيه ويروّقه، حتى لا ينطق إلّا بلبّ اللّبّ، وباللفظ الذي قد حذف فضوله، وأسقط زوائده، حتّى عاد خالصا لا شوب فيه؛ فإنّه إن فعل ذلك، لم يفهم عنه إلا بأن يجدّد لهم إفهاما مرارا وتكرارا، لأنّ النّاس كلّهم قد تعوّدوا المبسوط من الكلام»[1].

وهذا الكلام الذي قاله لم يحِد فيه عن الصواب ونتفق معه فيه ولكن وددنا لو فرق فيه بين الغريب الذي يجوز الدفع به في الكلام عند الحاجة والغريب المستهجن الذي لا يزيد النص إلا تعقيدًا إلا أنه من الواضح أن هذه النظرة – وإن كانت لا تخفى على مثل الجاحظ الأديب الأريب – لم نجد في كلامه تقريرا لها وتفصيلا فيها اللهم إلا ما يفهم ضمنا من استهجانه الغريب الوحشي وغريب الأعراب مما يدل على استحسانه ما عداه أو على الأقل تجويزه إياه. يقول ابن قتيبة في مقدمة الشعر والشعراء: «وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء، الذين يعرفهم جلّ أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم فى الغريب وفى النحو»[2] فاختياره للشعراء مبني على معرفتهم الكاملة ودرايتهم الواسعة بلغة العرب عموما وبالغريب خصوصا، بل لقد كان منهم من يطلب الغريب؛ ليظهر

(١) الجاحظ – الحيوان – ج١ ص٦١.

(٢) ابن قتيبة – الشعر والشعراء – ج١ ص٦١ – دار الحديث – القاهرة – ١٤٢٣ هـ.

درايته بالعربية، قال رؤبة: «كان الكميت والطرمّاح يسألانى عن الغريب ثم أجده بعد ذلك فى أشعارهما»[1].

أما ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) فقد فرق بين الغريب المتوعر الذي يثقل في أذن سامعه وبين الغريب الذي يحسن في أذن سامعه فنراه يقول في شروط فصاحة اللفظة المفردة: «أن تكون الكلمة كما قال أبو عثمان الجاحظ غير متوعرة وحشية كقول أبي تمام:

لقد طلعت في وجه مصر بوجهه بلا طائر سعد ولا طائر كهل

فإن (كهل) هاهنا من غريب اللغة وقد روى أن الأصمعي لم يعرف هذه الكلمة وليست موجودة إلا في شعر بعض الهذليين وهو قوله:

فلو كان سلمى جاره أو أجاره رياح بن سعد رده طائر كهل

وقد قيل: إن الكهل الضخم وكهل لفظة ليست بقبيحة التأليف لكنها وحشية غريبة لا يعرفها مثل الأصمعي»[2].

إن ابن سنان مع تفريقه بين الغريب الذي ثقل في آذان سامعيه وبين ما سهل في آذانهم قد ترك الكلمات الغريبة التي جمعت مع غرابتها صعوبة النطق والتي احتجوا بها على قلة الفصاحة وأتى بكلمة مستعملة في القرآن ليصفها بذلك وهي

(١) المصدر السابق – ج٢ ص٥٧٠.

(٢) ابن سنان الخفاجي – سر الفصاحة – ص٦٦-٦٧ – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٨٢.

كلمة (كهل) حيث يقول الله ﷻ: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٦]، فضلا عن أن المعرفة والجهالة أمر نسبي فما كان معروفًا لفلان قد يكون مجهولا لغيره، فكيف يعوّل على ذلك في الحكم على فصاحة الكلمة.

وضع ابن سنان الغريب كله في دائرة الرفض برغم تفريقه بين النوعين: ما قبح تأليفه وما حسن فسوى بين الكهل المذكورة في القرآن وبين «تكأكأ» و«افرنقع» التي لا يختلف على قبحها اثنان فيقول: «ومن ذلك أيضـًا ما يروى عن أبي علقمة النحوي من قوله: «ما لكم تتكأكؤون علي تكأكؤكم على ذي جنة افرنقعوا عني» فإن تتكأكؤون وافرنقعوا وحشي وقد جمع لعمري العلتين مع قبح التأليف الذي يمجه السمع والتوعر»[1]. ولكن حسبه ما أشار إليه من أن «تكأكأ» و«افرنقع» قد زادتا على الأولى قبح التأليف، وقد أغفل ابن سنان الحديث عن علاقة الكلمة بالسياق الذي جاءت فيه فاكتفى بذكر ما للكلمة من صفات في ذاتها؛ ليحكم عليها بالفصاحة أو مجانبتها بيد أن إغفال السياق وإهمال مقتضى الحال في الحديث عن الفصاحة يعطينا صورة غير مكتملة في دراستنا للألفاظ.

وإذا انتقلنا إلى الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) فإننا نرى أن نظرته إلى الغريب قد اتسمت بأنها نظرة متوازنة؛ فهو محمود عنده إذا دعت إليه الحاجة أما إقحامه في الكلام بلا داع أو مبرر فهو ضرب من الخروج عن الفصاحة ومباينة للبلاغة فنراه يقول: «والكلام الغريب واللفظة الشديدة المباينة لنسج الكلام قد تحمد

(١) ابن سنان الخفاجي – سر الفصاحة – ص٦٦– ٦٧.

إذا وقعت موقع الحاجة في وصف ما يلائمها، كقوله ﷻ في وصف يوم القيامة: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]، فأما إذا وقعت في غير هذا الموقع، فهي مكروهة مذمومة، بحسب ما تحمد في موضعها»[١]. فهو يمدحها أو يذمها حسب موقعها من السياق وحسب حاجة النص إليها.

وروي أن جريراً أنشد بعض خلفاء بني أمية قصيدته:

بان الخليطُ برامتينِ فودعوا ... أو كلما جَدُّوا لبينٍ تجزعُ؟

كيف العزاءُ ولم أجد مُذ بِنْتُمُ ... قلباً يقرُّ ولا شراباً ينقع

حتى بلغ قوله:

وتقول بَوْزَعُ:

قد دببت على العصا ... هلاّ هزِئتِ بغيرنا يابوزع

فقال: أفسدت شعرك بهذا الاسم[٢].

ولكن المتأمل لدلالة الكلمة المعجمية يعرف لماذا أتى جرير بهذا الاسم؛ حيث جعله جرير علما لمحبوبته ونعتًا في ذات الوقت فـ«بَزُعَ الغُلام، بِالضَّمِّ، بَزاعة: ظَرُفَ ومَلُحَ. وَلَا يُقَالُ إِلّا للأَحداث مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ»[٣] فلما سخرت محبوبته منه أراد أن يسخر منها ومن عقلها الذي لا يتجاوز أن يكون عقلا لطفل

(١) الباقلاني – إعجاز القرآن – ص١٧٧ – دار المعارف – مصر – ١٩٩٧.

(٢) المصدر السابق – ص١٧٧ – ١٧٨.

(٣) ابن منظور – لسان العرب – ج٨ ص١٠.

يَخرج الكلام من فيه بسذاجة الأطفال وعفويتهم ومن ثم يمكننا القول بأن الاسم على غرابته جاء كرد فعل على سخرية محبوبته منه.

فنرى أن نظرته للغريب قد اتسمت بالموضوعية والتزمت الحيادية؛ حيث لم يرفضه بالكلية بل يرى أن السياق الشديد قد يحتاجه أحيانًا فالمعاني البسيطة تحتاج لنظيراتها من الألفاظ والمعاني الفخمة تحتاج لمثيلاتها من الألفاظ فالألفاظ عنده كالأوعية للمعاني فلا يضطلع للمعنى العظيم إلا اللفظ العظيم وإن كان غريبًا فإن الحاجة قد دعت إليه.

وهو يعرض لمذاهب الشعراء واللغويين في هذا الصدد فيقول: «وقوم من أهل اللغة يميلون إلى الرصين من الكلام، الذي يجمع الغريب والمعاني، مثل أبي عمرو بن العلاء، وخلف الأحمر، والأصمعي. ومنهم من يختار الوحشي من الشعر، كما اختار المفضل للمنصور من (المفضليات) وقيل: إنه اختار ذلك لميله إلى ذلك الفن»[1].

قال دعبل: «حدثنى أبو نواس، أنه حضر بشارا، وقد سئل عن جرير والفرزدق، أيهما أشعر؟ فقال: جرير أشعرهما. فقيل له: بماذا؟ فقال: لأن جريراً يشتد، إذا شاء، وليس كذلك الفرزدق، لأنه يشتد أبدا»[2].

(١) الباقلاني – إعجاز القرآن – ص١١٦.

(٢) المصدر السابق – ص١١٦.

يقول بشار عن جرير إنه يشتد إن شاء أما الفرزدق فيشتد أبدا فهو لم يعب الاشتداد ولكنه اشتداد في محله لا يجاوز الحد أما الذي يشتد أبدًا بداع وبلا داع فهو المذموم عندهم.

ويقول: «والأعدل في الاختيار ما سلكه أبو تمام من الجنس الذي جمعه في كتاب (الحماسة) وما اختاره من (الوحشيات)، وذلك أنه تنكب المستنكر الوحشى، والمبتذل العامي، وأتى بالواسطة. وهذه طريقة من ينصف في الاختيار»[1]. فأبو تمام اختار من الغريب ما يقبله السمع ويستسيغه الذوق وهجر ما ينبو عنه السمع وما يلفظه الذوق.

ونراه يقول: «ويجب أن يتنكب ما كان عاميّ اللفظ، مبتذل العبارة، ركيك المعنى، سفسافي الوضع، مجتلب التأسيس على غير أصل ممهد، ولا طريق موطد. وإنما فضلت العربية على غيرها، لاعتدالها في الوضع. لذلك وضع أصلها على أن أكثرها هو بالحروف المعتدلة، فقد أهملوا الألفاظ المستكرهة في نظمها، وأسقطوها من كلامهم، وجعلوا عامة لسانهم على الأعدل. ولذلك صار أكثر كلامهم من الثلاثي، لأنهم بدءوا بحرف وسكتوا على آخر، وجعلوا حرفًا وصلة بين الحرفين، ليتم الابتداء والانتهاء على ذلك»[2].

(١) المصدر السابق – ص١١٦.

(٢) المصدر السابق – ص١١٦ – ١١٧.

فحديثه كله منصب على ذم اللفظ المستكره لدى سامعه المستقبح عند كل أحد الذي تنافرت حروفه أو ركبت على هيئة غير محمودة وهو لا شك نوع من الغرابة التي تعتري اللفظ المفرد فالباقلاني بذا قد أشار إلى الغريب وقسمه ضمنيا إلى غريب معجمي خفي على سامعيه وسوغ استعماله إذا استدعى السياق وغريب من أجل استكراه اللفظ لا يحسن استعماله عنده ألبتة.

أما إذا نظرنا لكلام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) حول الغريب وجدوى استعماله فنراه يقول «ومن ثَمَّ لا يجوزُ لنا أنْ نَعْتدَّ في شأنِنا هذا بأنْ يكونَ المتكلِّمُ قد اسْتَعملَ من اللغتين في الشيءِ ما يقالُ: «إنه أفصحهما»، أو بأن يكونَ قد تَحفَّظ مما تخطئ فيه العامَّة، ولا بأن يكونَ قد استعْمَلَ الغريبَ؛ لأنَّ العلمَ بجميع ذلك لا يعدو أن يكونَ عِلْمـًا باللغةِ، وبأَنْفُس الكَلِمِ المفردة، وبما طريقُهُ طريقُ الحِفْظِ، دونَ ما يُستَعانُ عليه بالنظَرِ، ويُوصَلُ إليه بإعمالِ الفِكْر»[1].

فعبد القاهر في كتابه يؤصل لنظرية النظم ويعلل لقضية إعجاز القرآن ويرى أن غرابة الكلمة أو شيوعها لا علاقة له بفصاحتها وهو لا يرى أن الغريب في القرآن هو سبب إعجازه ولكنه لا ينكر وجوده فنراه يقول: «وأنتَ تقرَأُ السورةَ من السور الطوال فلا تجد فيها من الغريب شيئًا، وتتأمل ما جَمَعهُ العلماءُ في غَريب القرآن؛ فترى الغريبَ منه إلا في القليلِ، إنما كان غريبـًا من أَجْل استعارةٍ هي فيهِ،

(١) عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ٢٠٠١ م – ص٢٥٣.

كمِثْل ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣]، ومثْل: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، ومثْلِ ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، دون أن تكون اللفظةُ غريبةً في نفسها؛ إنما ترى ذلك في كلماتٍ معدودةٍ كَمِثل: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦] و﴿ذَاتِ أَلْوَحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣]، و﴿جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]. فغريب اللغة، ليس له مكان في الإعجاز»[١].

فهو يعوّل على دور الكلمة في السياق سواء كانت مما ذاع بين الناس أو مما غرب ينظر لها على كونها كلمة قد تؤتي ثمرتها المرجوة في سياق وقد تثقل في سياق آخر دون النظر لشيوعها من عدمه.

الكلمة المفردة في نظر عبد القاهر:

يقول عبد القاهر: «إنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة، ولا من حيث هي كلمة مفردة، وأن الفضيلة وخلافها، في ملاءمة معنى اللّفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، مما لا تعلّق له بصريح اللفظ»[٢]. فالكلمة عند عبد القاهر لا قيمة لها في ذاتها؛ لأنها لا تكتسب القيمة إلا إذا التأمت في سياق أو اندرجت في نظم[٣].

(١) عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص٢٥٤.

(٢) عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص٤٠.

(٣) انظر د/ حسن طبل – في البلاغة القرآنية – مذكرة للطلاب – كلية دار العلوم – ج١ ص٩.

وهو لا يكتفي بالتأصيل النظري المجرد على صحة مذهبه بل يضرب الأمثلة التطبيقية ليبرهن على صحة ما يدعو إليه فيقول: «ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، كلفظ «الشّيء»، فإنك تراها مقبولة حسنة في موضع، وضعيفة مستكرهة في موضع. وإن أردت أن تعرف ذلك، فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي

ومن مالئ عينيه من شيء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدّمى

وقول أبي حيّة:

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاها شيء لا يملّ التّقاضيا

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول، ثم انظر إليها في بيت المتنبي:

لو الفلك الدّوّار أبغضت سعيه لعوّقه شيء عن الدّوران

فإنك تراها تقلّ وتضؤل، بحسب نبلها وحسنها فيما تقدّم»[1]. فالحاكم على فصاحة الكلمة عنده ليست خصائصها الصوتية ولكن مكانها داخل السياق هو الذي يحكم لها بالفصاحة «فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزيّة والشرف استحقّت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلف

(١) عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص٤١.

بها الحال، ولكانت إمّا أن تحسن أبدا، أو لا تحسن أبدا»[1].

«ومما يجب إحكامه بعقب هذا الفصل، الفرق بين قولنا: «حروف منظومة»، و «كلم منظوم». وذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرّى في نظمه لها ما تحرّاه. فلو أنّ واضع اللغة كان قد قال: «ربض» مكان «ضرب»، لما كان في ذلك ما يؤدّي إلى فساد»[2].

هذه النصوص السابقة تكشف لنا عن نظرة عبد القاهر للكلمة المفردة فتلك الكلمة لا قيمة لها مفردة وإنما تظهر قيمتها داخل النص وعبد القاهر يدعم رأيه بالأدلة التالية:

أننا لا نفيد من دلالة الكلمة على معناها شيئًا ما فضلا عن أن تكون لها في دلالتها تلك قيمة جمالية فمعنى الكلمة المفردة ليس سوى صورة صامتة مختزنة في أذهان أبناء اللغة أو بطون معاجمها وهذا المعنى يظل على صمته واستقراره حتى يستثأر بالكلمة الدالة عليه والغاية من استثارة المعاني المفردة ليس إفادة السامع إياها بل إفادته وجوه التعلق بينها فنحن لا نتحدث بألفاظ ذات معان يستقل كل منها عن الآخر بل إننا نقيم علاقات بين معاني الألفاظ حتى يتشكل منها نظام لغوي وبدون ذلك لا يتحقق فهم أو إفهام.

---

(١) المصدر السابق – ص٤١.

(٢) المصدر السابق – ص٤٢.

لا تتسم الكلمة المفردة بالجمال أو القبح لذاتها؛ فالجمال أو القبح أو القلق أو التمكن أو ما إلى ذلك كلها صفات توصف بها الكلمات بحسب ملاءمتها أو عدم ملاءمتها للمواضع التي تحتلها في السياق التعبيري؛ ومقتضى ذلك أن الكلمة الواحدة قد تتعاورها صفتا الجمال والقبح فتجمل إذا واءمت سياقها واحتلت فيه موقعها الأكثر مناسبة لها؛ لأنها حينئذ تؤدي وظيفة تعبيرية وتكتسب من سياقها دلالات إضافية ويكون لها إشعاعها الخاص الذي تتلاءم به مع الموقف الكلامي الذي تقال فيه وعلى النقيض من ذلك فإنها تقبح إذا افتقدت هذه الوظيفة لشذوذها عن سياقها واحتلالها غير موقعها ويدلل عبد القاهر على ذلك بكلمة «شيء» في الأبيات السابقة في النص.

كما أنه لا دخل للمتكلم في بنية الكلمة أي في ترتيب حروفها على صورتها الخاصة فنشاط المتكلم وإبداعه لا يتعلقان بهذا الترتيب بل بترتيب آخر هو ترتيب الكلمات في العبارة وبناء على ذلك لا تكون الكلمة في ذاتها ميدانا للمفاضلة وهذا ما يلفت عبد القاهر أنظارنا إليه حين فرق بين نظم الحروف في الكلمة ونظم الكلمات في العبارة فالنظم الأول هو أمر وضعي تقتضيه اللغة وليس في افتراض اختلاله أي نقضه أي أثر في المعنى فلو أن واضع اللغة قد قال: «ربض» مكان «ضرب» لما كان في ذلك فساد أما نظم الكلمات فهو من ذات المتكلم ومن وحي تفكيره الخاص؛ لأنك على حد تعبير عبد القاهر تقتفي في نظمها آثار المعاني

وترتبها علي حسب ترتيب المعاني في النفس فإذا ما اختل هذا النظم تبعه بالضرورة تغير المعنى أو فساده[1].

ثم نجد أن نظرة البلاغيين إلى الغريب قد تكاملت أول ما تكاملت عند ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) فنراه يقسم الغريب إلى نوعين: قسم حسن يمكن استعماله إذا دعت إليه الحاجة وقسم غير حسن لا يقبله عربي بادٍ ولا قروي متحضر فنراه يقول: «وقد خفي الوحشي على جماعة من المنتمين إلى صناعة النظم والنثر، وظنوه المستقبح من الألفاظ، وليس كذلك، بل الوحشيّ ينقسم قسمين: أحدهما: غريب حسن، والآخر: غريب قبيح، وذلك أنه منسوب إلى اسم الوحش الذي يسكن القفار، وليس بأنيس، وكذلك الألفاظ التي لم تكن مأنوسة الاستعمال، وليس من شرط الوحش أن يكون مستقبحا، بل أن يكون نافرا لا يألف الإنس؛ فتارة يكون حسنا، وتارة يكون قبيحا، وعلى هذا فإن أحد قسمي الوحشي- وهو الغريب الحسن- يختلف باختلاف النّسب والإضافات؛ وأما القسم الآخر من الوحشي الذي هو قبيح فإن الناس في استقباحه سواء، ولا يختلف فيه عربي باد ولا قروي متحضّر، وأحسن الألفاظ ما كان مألوفا متداولا إلا لمكان حسنه»[2].

فالألفاظ عند ابن الأثير إذن تنقسم ثلاثة أقسام: قسمان حسنان، وقسم قبيح فالقسمان الحسنان أحدهما: ما تداول استعماله الأول والآخر، من الزمن القديم

(١) انظر د/ حسن طبل – في البلاغة القرآنية – ج١ ص ١٠.

(٢) ابن الأثير – المثل السائر في أدب الكاتب – ص١٦١.

إلى زماننا هذا، ولا يطلق عليه أنه وحشي، والآخر: ما تداول استعماله الأول دون الآخر، ويختلف في استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله، وهذا هو الذي لا يعاب استعماله عند العرب؛ لأنه لم يكن عندهم وحشيّا، وهو عندنا وحشي، وابن الأثير يرى أن القرآن الكريم قد تضمن منه كلمات معدودة، وهي التي تطلق عليها غريب القرآن، وكذلك تضمن الحديث النبوي منه شيئا، وهو الذي يطلق عليه غريب الحديث[1].

فهو لا يقلل من شأن الغريب الحسن الذي سهل لفظه وعذب منطقه لا سيما إذا استلزمه السياق؛ لموقعه في أداء المعنى ويقر بأن هذا النوع موجود في الوحيين فلا مجال للقدح فيه بعد ذلك وقوله السالف الذكر «وأحسن الألفاظ ما كان مألوفا متداولا إلا لمكان حسنه» خير دليل على مذهبه حيث استثنى من الغريب ما دعى إليه السياق وما استدعاه المعنى وهذا مسلكي في هذا البحث؛ لبيان ملاءمة غريب الحديث لمكانه من النص.

فابن الأثير يعالج هذا المبحث معالجة دقيقة من خلال التمييز بين ما يمكن استعماله إذا اقتضى الأمر ودعت الحاجة وبين ما لا يحسن استعماله بحال من الأحوال فيقول: «وأما القبيح من الألفاظ الذي يعاب استعماله فلا يسمى وحشيّا فقط، بل يسمى الوحشي الغليظ»[2] «ويسمى أيضا المتوعّر، وليس وراءه في القبح

(١) انظر ابن الأثير – المثل السائر في أدب الكاتب – ص١٦١.

(٢) ابن الأثير – المثل السائر في أدب الكاتب – ص١٦٢.

درجة أخرى، ولا يستعمله إلا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله معرفة هذا الفن أصلًا»[1].

وابن الأثير لا يقف عند هذا الحد بل يشرح لنا سبب شيوع الكلمة في الاستعمال من عدمه في الفصل الذي أعده لبيان ماهية الفصاحة والبلاغة فيقول: «لم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه والبحث عنه، ولم أجد من ذلك ما يعوّل عليه إلا القليل. وغاية ما يقال في هذا الباب: إن الفصاحة هي الظهور والبيان في أصل الوضع اللغوي، يقال: أفصح الصّبح، إذا ظهر، ثم إنهم يقفون عند ذلك، ولا يكشفون عن السر فيه»[2] .

فهو يرى أن ذيوع الكلمة وشيوعها ليس وحده دليلا على فصاحتها ولكنه يعوّل على صوتية الكلمة ومدى تقبل الذوق البشري لها؛ ليكون هو الحَكَم في هذا الشأن، أما الذيوع والانتشار فلا يصح وحده أن يكون معيارًا لفصاحة الكلمة فيقول: «وبهذا القول لا تتبين حقيقة الفصاحة؛ لأنه يعترض عليه بوجوه من الاعتراضات: أحدها: أنه إذا لم يكن اللفظ ظاهرًا بيّنا لم يكن فصيحا، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحًا»[3].

(١) ابن الأثير – المثل السائر في أدب الكاتب – ص١٦٧.

(٢) المصدر السابق – ص ٨٠.

(٣) المصدر السابق – ص ٨٠.

فهل نخرج الكلمة من دائرة الفصاحة؛ لأنها صارت بمرور الأيام وتوالي العقود قليلة التداول بعد أن كانت شائعة متداولة؟! أو ندخل أخرى في الدائرة لأنها صارت مالوفة بين العامة؟

الوجه الآخر: أنه إذا كان اللفظ الفصيح هو الظاهر البيّن فقد صار ذلك بالنّسب والإضافات إلى الأشخاص فإن اللفظ قد يكون ظاهرًا لزيد، ولا يكون ظاهرًا لعمرو، فهو إذا فصيح عند هذا وغير فصيح عند هذا، وليس كذلك، بل الفصيح هو فصيح عند الجميع، لا خلاف فيه بحال من الأحوال؛ لأنه إذا تحقق حد الفصاحة وعرف ما هي لم يبق في اللفظ الذي يختص به خلاف[1].

فالظهور والخفاء وحده لا يمكن أن يكون معيارًا لفصاحة الكلمة؛ لأنه يختلف بين إنسان وآخر وبين بيئة وأخرى وبين عصر وعصر.

ثم إنه إذا جيء بلفظ قبيح ينبو عنه السمع، وهو مع ذلك ظاهر بين، ينبغي أن يكون فصيحا، وليس كذلك؛ لأن الفصاحة وصف حسن اللفظ، لا وصف قبح. فهذه الاعتراضات الثلاثة واردة على قول القائل: إن اللفظ الفصيح هو الظاهر البين من غير تفصيل[2]. لذا يوجد كثير من الالفاظ المعلومة لدى العامة ولكنها غير فصيحة لوقعها غير المحمود على أذن السامع.

---

(١) انظر المصدر السابق – ص ٨٠.

(٢) انظر المصدر السابق – ص ٨٠.

فالفصيح إذا من الألفاظ هو الحسن، فإن قيل: من أي وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الألفاظ حتى استعملوه، وعلموا القبيح منها حتى نفوه ولم يستعملوه؟ يرى ابن الأثير أن الألفاظ داخلة في حيّز الأصوات فالذي يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحسن، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح؛ ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشّحرور، ويميل إليهما، ويكره صوت الغراب، وينفر عنه، وكذلك يكره نهيق الحمار، ولا يجد ذلك في صهيل الفرس، والألفاظ جارية هذا المجرى[1].

فهذا هو المعيار الذي يريد ابن الأثير أن يجعله في المقدمة وهو السبب الحقيقي وراء استعمال الألفاظ بكثرة أو هجرها بالكلية. فصوتية الكلمة ومدى وقعها في الأذن هو الداعي لاستعمالها عند الناس أو تركها.

فإنه لا خلاف في أن لفظة المزنة والدّيمة حسنة يستلذها السمع، وأن لفظة البعاق قبيحة يكرهها السمع، وهذه اللّفظات الثلاثة من صفة المطر، وهي تدل على معنى واحد، ومع هذا فإنك ترى لفظتي المزنة والدّيمة وما جرى مجراهما مألوفة الاستعمال، وترى لفظ البعاق وما جرى مجراه متروكا لا يستعمل وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو من ذوقه غير ذوق سليم، لا جرم أنه ذم وقدح فيه، ولم يلتفت إليه، وإن كان عربيّا محضا من الجاهلية

(١) انظر المصدر السابق – ص ٨١.

الأقدمين؛ فإن حقيقة الشيء إذا علمت وجب الوقوف عندها، ولم يعرّج على ما خرج عنها[1].

والمزنة والديمة قليلة الاستعمال الآن أو بإمكاننا القول أنها غير مستخدمة تقريبًا في حياتنا اليومية ولا في وسائل الإعلام المقروء ولا المسموع بل ربما لا نجدها إلا بين المشتغلين بالأدب ومع ذلك فإن هذا ليس داعيًا لإخراجها من دائرة الفصاحة ألبتة فإن جهل الناس بملك من الملوك ليس يعنى أنه صار واحدًا من عامة الناس بل يظل محتفظا في نفوس من يعرفونه – وإن كانوا قلة – بما حظي به من الشرف والرفعة كما أنه لا ينبغي أن نغض الطرف عن دور المقام والسياق في ذلك.

أما نظرة القلقشندي (ت ٨٢١ هـ) للغريب فقد جاءت متوافقة لما نسعى لإثباته حيث رآه علمًا مستقلا بذاته ينبغي لمن تصدى للكتابة في فنون الأدب أن يلمَّ بطرف منه لأنه لغة القوم.

يعقد القلقشندي في كتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء) فصلًا عما يحتاجه الكتّاب من أدوات الكتابة فيقول: «بيان ما يحتاج إليه الكاتب من اللغة ويرجع المقصود منه إلى خمسة أصناف: الصنف الأوّل: الغريب: وهو ما ليس بمألوف الاستعمال، ولا دائر على الألسنة وذلك أن مدار الكتابة على استخراج المعاني من القرآن الكريم، والأحاديث النبويّة، والشعر، وألفاظها لا تخلو عن

(١) انظر المصدر السابق – ص ٨١ – ٨٢.

الغريب، بل ربّما غلب الغريب منها في الشّعر على المألوف لا سيّما الشعر الجاهليّ. وقد قال الأصمعيّ: «توسّلت بالمُلَح ونلت بالغريب»[1].

«والغريب، وإن لم ينفق منه الكاتب فإنه يجب أن يعلم ويتطلّع إليه ويستشرف فربّ لفظة في خلال شعر أو خطبة أو مثل نادر أو حكاية، فإن بقيت مقفلة دون أن تفتح لك، بقي في الصدر منها حزازة تحوج إلى السّؤال، وإن صنت وجهك عن السؤال، رضيت بمنزلة الجهّال»[2]. فلا يمكن لمن اضطلع بالكتابة أن يغض الطرف عن الغريب بل لا بد أن يوليه عناية فائقة.

ثم قال: «وأيّ مقام أخزى لصاحبه من رجل من الكتّاب اصطفاه بعض الخلفاء، وارتضاه لسرّه، فقرأ عليه يوما كتابا فيه مطرنا مطرا كثر عنه الكلأ، فقال له الخليفة ممتحنا له: وما الكلأ؟ فتردّد في الجواب، وتعثّر لسانه ثم قال: لا أدري، فقال: سل عنه»[3].

أليست معرفة الغريب هي ثمرة دراسة النصوص الأدبية التي امتلأت به قديما وحديثا؟ أليست الموصلة لفهم نصوص الكتاب والسنة التي بلغ الغريب فيها الحد الذي جعل العلماء يصنفون فيه التصانيف الخاصة به؟ أليست معرفته

---

(١) القلقشندي – صبح الأعشى في صناعة الإنشاء – ج١ ص١٨٦ – دار الكتب العلمية – بيروت – بدون تاريخ.

(٢) المصدر السابق – ج١ ص١٨٦.

(٣) المصدر السابق – ج١ ص ١٨٧.

هي الخطوة الأولى لدمجه في الحديث إذا دفعت الحاجة واقتضت المصلحة بالضوابط التي ذكرها العلماء من غير الإخلال بفصاحة الكلام؟

فقد ظهر أن معرفة الغريب من الأمور الضرورية للكاتب التي هي من أهم شأنه، وأعنى مقاصده. وجلّ كتب اللغة المصنّفة في شأنها راجعة إليه، كصحاح الجوهريّ، ومحكم ابن سيده، ومجمل ابن فارس وغيرها[1].

تقسيم اللفظ من حيث الغرابة وعدمها عند القلقشندي:

يرى القلقشندي أن اللفظ يختلف في الغرابة وعدمها باختلاف النّسب والإضافات؛ فقد يكون اللفظ مألوفا متداول الاستعمال عند كل قوم في كل زمن، وقد يكون غريبًا متوحّشا في زمن دون زمن، وقد يكون غريبا متوحشًا عند قوم، مستعملا مألوفا عند آخرين وهو عنده أربعة أصناف اعتمد في تفصيلها على (المثل السائر) وزاد عليه فآثرنا ذكرها من (صبح الأعشى) لأنها فيه أكثر تفصيلا:

الصنف الأوّل: المألوف المتداول الاستعمال عند كل قوم في كل زمن: وهو ما تداول استعماله الأوّل والآخر من الزمان القديم وإلى زماننا: كالسماء والأرض، والليل والنهار، والحرّ والبرد، وما أشبه ذلك؛ وهو أحسن الألفاظ وأعذبها، وأعلاها درجة، وأغلاها قيمة؛ حيث يرى أن أحسن اللفظ ما كان مألوفا متداولا وهذا لا يقع عليه اسم الوحشيّ بحال[2].

---

(١) انظر المصدر السابق – ج ١ ص ١٨٧.

(٢) انظر المصدر السابق – ج٢ ص٢٢٧.

مع عدم الاختلاف معه بهذا الشأن إلا أن الواقع يحكي أن هذه الكلمات الشائعة لم تضطلع وحدها ببناء نص أدبي كامل بل لا بد من وجود بعض الألفاظ الغريبة، وهو واقع من حيث كونه مشاهدًا وملموسًا.

الصنف الثاني: الغريب المتوحش عند كل قوم في كل زمن: وهذا الصنف لا يختلف على قبحه أحد كائنا من كان؛ لتنافر حروفه، وهو ما لم يكن متداول الاستعمال في الزمن الأوّل ولا ما بعده، بل كان مرفوضا عند العرب كما هو مرفوض عند غيرهم، ويسمّى الوحشيّ الغليظ، والعكر، والمتوعّر وهو على ثلاثة أضرب:

الضرب الأوّل ما يعاب استعماله في النظم والنثر جميعا: ويضرب لذلك مثلا بلفظ الجحيش في قول تأبط شرّا من أبيات الحماسة:

يظــلّ بمومــاة ويمســى بغيرهــا جحيشا ويعروري ظهور المهالك

فإن لفظة (جحيش) من الألفاظ المنكرة القبيحة[1].

ولكنها جاءت بغرابتها لتظهر للسامع ما انطوت عليه نفس تأبط شرًا من الوحشة والانفراد وكأنه أراد أن يشعر الناس ما بداخله من زفرات الخوف مع صوت الشين المنتشر الذي يسمح للمتكلم بإفراغ ما بداخله من شحنات القلق عبر الهواء الخارج من الفم إنه تفرد مشوب بالاضطراب ومصاحب للقلق ومن

(١) انظر المصدر السابق – ج٢ ص٢٣٦.

ثم كانت (جحيشا) أوقع في نفس السامع من (فريدًا) وأكثر دلالة بما حوته من خصائص صوتية أوحت بغربة الشاعر النفسية.

الضرب الثاني ما يعاب استعماله في النثر دون النظم: ويضرب لذلك مثلا بلفظ شرنبثة من قول الفرزدق:

ولـولا حيـاء زدت رأسـك شـجّة إذا سـبرت ظلّـت جوانبهـا تغلـى

شـرنبثة شـمطاء مـن يرتمـي بهـا تشبه ولـو بين الخماسيّ والطّفل

فلفظة شرنبثة عنده من الألفاظ الغريبة التي يسوغ استعمالها في الشعر، وهي هاهنا غير مستكرهة، إلا أنها لو وردت في كلام منثور من كتاب أو خطبة، لعيبت على مستعملها[1].

لجأ الفرزدق - وهو ينعت امرأة سيئة كريهة المنظر- إلى (شرنبثة) تلك الكلمة الغريبة في السياق الذي يصف به امرأة دميمة والشرنبثة هي المرأة غليظة الكف وعروق اليد[2] وهو بلا شك مما تعاب به المرأة فجاءت الكلمة المتنافرة الحروف صعبة التأليف لترسم لوحة معبرة لتلك المرأة الدميمة القبيحة فنراه قد عبر عن القبح بشيئين الأول: المعنى الدلالي للكلمة والثاني: خصائص الكلمة الصوتية الموحية هي الأخرى بذات المعنى.

(١) انظر القلقشندي - صبح الأعشى - ج٢ ص٢٣٩.

(٢) انظر ابن منظور - لسان العرب - ج٢ ص١٦٠ - دار صادر - بيروت - ١٤١٤هـ.

الضرب الثالث: ما يعاب استعماله بصيغة دون صيغة: فإن اللفظة الواحدة قد تنتقل من هيئة إلى هيئة، أو من صفة إلى صفة، فتنتقل من القبح إلى الحسن وبالعكس فيصير القبيح حسنا، والحسن قبيحًا، والمرجع في ذلك إلى الذوق الصحيح والطبع السليم.

فهو ضرب من الغريب يختلف عن المعنى الشائع للغريب؛ فمنشأ الغرابة في هذا النوع هو انتقال الكلمة من صيغة إلى أخرى فقد تكون الكلمة غريبة بالمعنى المشهور للغرابة وهو قلة الاستعمال وقد تكون شائعة معلومة المعنى ولكن سبب الغرابة هنا هو الانتقال من صيغة إلى أخرى أقل استعمالا ومعيار الغرابه لديه هو مدى قبول الأذن لصوتية الكلمة وقد نقله القلقشندي برمته من ابن الأثير ولكنه اعتنى بتقسيمه؛ ليَسهُل على القارئ[1]. وقد نبّه منه على تسعة أنماط:

النمط الأوّل: وذكر فيه ما يترجح فيه الاسم في الاستعمال على الفعل، وذلك في مثل لفظ خود، فإنها عبارة عن المرأة الناعمة، فإذا نقلت إلى صيغة الفعل، قيل خوّد على وزن فعّل بتشديد العين، ومعناها أسرع. يقال: خوّد البعير إذا أسرع في مشيه، فهي على صيغة الاسم حسنة رائقة، قد وردت في النظم والنثر كثيرا، وإذا جاءت على صيغة الفعل لم تكن حسنة[2].

(١) انظر القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٤١.

(٢) انظر المصدر السابق – ج٢ ص٢٤١.

كقول أبي تمّام:

وإلى بني عبد الكريم تواهقت رتك النّعام رأى الطريق فخوّدا

إلا أن لفظة خوّد قد استعملت على غير هذا الوجه في بعض المواضع فزال عنها بعض القبح وإن لم تلحق بدرجة الرائق الحسن، كقول بعض شعراء الحماسة:

أقول لنفسي حين خوّد رألها رويدك لما تشفقي حين مشفق

رويدك حتّى تنظري عمّا تنجلي عماية هذا العارض المتألّق

والرّأل: النعام، والمراد أن نفسه فرّت وفزعت، شبهه بإسراع النعام في فراره وفزعه، فلما أورد ذلك على سبيل المجاز زال بعض القبح. وهذا يدركه الذوق الصحيح، فهي في بيت أبي تمّام قبيحة سمجة، وهاهنا بين بين، ويقاس على ذلك أشباهه ونظائره[1].

إن «خَوْد» التي بمعنى المرأة الشابة الحسناء والجمع «خُوْد» و «خودات» كلمة غريبة لا يعرفها سوى أرباب الأدب نظمه ونثره وكلمة «خوَّد» التي هي بمعنى أسرع كلمة أيضًا غريبة ولكنه أجاز استعمال الأولى في الشعر والثر ولم يجز استعمال الثانية لا شعرًا ولا نثرًا؛ لأن الأولى تروق لسامعها، أما الثانية فتسمج لسامعها إذن فلا مانع لديه من استعمال الغريب إذا راق في أذن سامعه واستدعاه الموقف.

(١) انظر المصدر السابق – ج٢ ص٢٤٢.

النمط الثاني: وذكر فيه ما يترجح فيه فعل الأمر والمستقبل في الاستعمال على الفعل الماضي وذلك في مثل لفظة ودع، وهي فعل ماض ثلاثيّ لا ثقل بها على اللسان، ومع ذلك فإنها لا تستعمل على صيغتها الماضية إلا جاءت غير مستحسنة، فإذا استعملت على صيغة الأمر أو الاستقبال جاءت حسنة رائقة[1].

أما على صيغة الاستقبال، فكقول النبي ﷺ وقد واصل في شهر رمضان فواصل معه قوم، فقال: «لو مدّ لنا الشّهر لواصلنا وصالا يدع له المتعمّقون تعمّقهم». وقد استعملها أبو الطّيّب على هذا الوجه في قوله:

تشــقّكم بقناهــا كــلّ ســلهمة والضّرب يأخذ منكم فوق ما يدع

فجاءت في كلامه بهجة رائقة[2].

وأما الماضي من هذه اللفظة فلم يستعمل إلا شاذا ولا حسن له، كقول أبي العتاهية:

أثــروا فلــم يــدخلوا قبــورهم شــيئا مــن الثّــروة التــي جمعــوا

وكــان مــا قــدّموا لأنفســهم أعظــم نفعــا مــن الــذي ودعــوا

فلم تقع في كلامه من الحسن موقعا، ولا أصابت من الطّلاوة غرضا؛ وهذه لفظة واحدة لم يتغير شيء من أحوالها سوى أنها نقلت من صيغة إلى صيغة[3].

---

(١) انظر المصدر السابق – ج٢ ص٢٤٢.

(٢) انظر المصدر السابق – ج٢ ص٢٤٢.

(٣) انظر المصدر السابق – ج٢ ص٢٤٣.

وكذلك لفظة وذر، فإنها لا تستعمل ماضية، وتستعمل على صيغة الأمر كقوله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ [الحجر: ٣]، وتستعمل مضارعة أيضا كقوله تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴾ [المدثر: ٢٦- ٢٨]، ولم ترد في القرآن الكريم إلا على هاتين الصيغتين، وكذلك في غير القرآن الكريم من فصيح الكلام، أما في حالة المضيّ، فإنها أقبح من لفظة ودع، وقد استعملت ماضية مع شذوذ، وهذه لم تستعمل أصلا[1].

وقد بينت الفرق بين (ودع) و(وذر) و(ترك) في الباب الثاني من هذا البحث في فصل الغريب التركيبي فهي وإن كانت كلها تأخذ معنى الترك إلا أن لكل واحدة منها استعمالا يميزها عن مثيلتيها.

النمط الثالث: وذكر فيه ما يترجح فيه الإفراد في الاستعمال على التثنية، وذلك في مثل لفظ (الأخدع)، فإنها يحسن استعمالها في حالة الإفراد دون التثنية؛ فممّا وردت فيه مفردة فجاءت حسنة رائقة، قول الصّمّة بن عبد الله من شعراء الحماسة:

تلفّتّ نحو الحيّ حتّى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

ومما ورد فيه لفظ التثنية فجاء ثقيلا مستكرها قول أبي تمّام:

يـا دهـر قـوّم مـن أخـدعيك فقـد أضججت هذا الأنام من خرقك[2]

(١) انظر القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٤٣.

(٢) انظر المصدر السابق – ج٢ ص٢٤٣.

فالكلمة على صورتها المفردة جاءت رائقة مستملحة واعتراها الثقل عندما ثنيت فحسنت في موضع وساءت في آخر.

النمط الرابع: وذكر فيه ما يترجح فيه الإفراد في الاستعمال على الجمع، وذلك كلفظة «الأرض»، فإنها لم ترد في القرآن الكريم إلا مفردة، سواء أفردت بالذكر عن السماء كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: ١٧]، أو قرنت بالسماء مفردة كما في قوله تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، أو مجموعة كما في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: ١]، ولو كان استعمالها بلفظ الجمع مستحسنا لكان هذا الموضع وشبهه به أليق لمقابلة الجمع في السموات، ولما أراد أن يأتي بها مجموعة قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾» [الطلاق: ١٢][1].

ولكنها جاءت في كلام النبي ﷺ فلا يليق بنا بعدها أن نخرجها من دائرة الفصاحة لمجرد هوى في نفوسنا لا يعتمد على بينة ولا يستند إلى دليل سوى كلام ابن الأثير الذي بناه على عدم قبول ذوقه هو للكلمة والحديث الذي جاءت فيه هو قول النبي ﷺ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا فَإِنَّهُ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سبع أَرضين» (مُتَّفق عَلَيْهِ) [2] فلا مجال لتحكيم الذوق بعد ورودها في الحديث الصحيح.

---

(١) انظر القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٤٤.

(٢) الخطيب التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٢ ص ٨٨٧.

النمط الخامس: وذكر فيه ما يترجّح فيه الجمع في الاستعمال على الإفراد كلفظة اللّبّ الذي هو العقل، فإن استعمالها بصيغة الجمع في غاية الحسن والبهجة والطّلاوة، وقد ورد بهذه الصيغة في غير موضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]. وقوله: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، إلى غير ذلك من الآيات الوارد فيها ذلك بصيغة الجمع، أما في حالة الإفراد فإنها قليلة الاستعمال مع أنها لفظة ثلاثية خفيفة على النطق، بعيدة المخارج، ليست بمستثقلة ولا مكروهة(١).

تعسف القلقشندي الذي تابع ابن الأثير في نظرته تلك فلا معنى لحديثه عن كلمة تستخدم رائقة إذا كانت مجموعة أما إذا كانت مفردة فإنها لا تروق إلا إذا أضيفت أو أضيف إليها فما الغرابة في هذا؟ وهل يمكننا حصر مجموعة أخرى من الكلمات لنضعها تحت هذه القاعدة الواهية؟ فالكلمة تحسن في موضع وتقبح في آخر تبعا لدورها في السياق الذي انتظمت فيه.

النمط السادس: ويذكر فيه ما يترجّح فيه بعض الجموع في الاستعمال على بعض كما في جمع صائب من قولك: سهم صائب، فإنه يقال في الجمع سهام صوائب وصائبات وصيّب بالتشديد، وهذه الجموع كلها حسنة، رائقة، معجبة، دائرة على ألسنة أرباب النثر والنظم، ويقال في جمعه أيضا صُيُب على وزن كتب،

(١) انظر القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٤٥.

وهو جمع قبيح، مرفوض الاستعمال، ثقيل على النطق، جاف عن السمع، وقد استعمله أبو نواس في شعره حيث قال:

مـــا أحـــلّ الله مـــا صـــنعت عينـــه تلـــك العشـــية بـــي

قتلـــــت إنســـــانها كبـــــدي بســـــهام للـــــردى صُـــــيُب

فجاءت غثّة كريهة نابية عن السمع، نافرة عن اللسان[1].

فهذا الجمع الغريب غير المتداول لا فائدة من استعماله سوى الإبهام؛ حيث يقوم المعنى بآخر معلوم له القدرة على أداء المعنى بنفس الصورة والكيفية فلا حاجة هنا للعدول عن المشهور للغريب إذا لم يضف معنى جديدا لسياق الكلام لا سيما إذا كان الجمعان لمفرد واحد فمن ثمّ يؤديان المعنى بطريقة واحدة.

النمط السابع: وذكر فيه ما يترجح فيه أحد صور الوزن الواحد باختلافه بالحركة والسكون كلفظ الثلث والربع إلى العشر، فهو يراها في حالة سكون الوسط كلها حسنة سائغة الاستعمال، فإذا تحرّكت أوساطها فقلت: ثلث، وربع، وخمس، وكذلك إلى عشر بضم الوسط، فإن الحسن من ذلك جميعه ثلاثة وهي الثّلث، والخمس، والسّدس، أما الباقي فليس كذلك في حسنه[2].

(١) انظر القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٤٧.

(٢) انظر القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٤٨.

بالغ ابن الأثير في هذا النوع مبالغة غير محمودة حيث نقل الكلمة من حسن يسوغ استعماله إلى غريب لا يسوغ استعماله حينما تحركت من السكون إلى الضم كيف والكلمات المذكورة لم تستعمل في القرآن إلا مضمومة ولم تستعمل ساكنة مع مكانة الساكنة من الحسن كما يزعم لذا عدل عن بعض الكلمات المذكورة في القرآن وترك الأخرى فخرجت قاعدته غير مستوعبة لكل الكلمات لذا نرى القلقشندي يستدرك عليه بقوله: إنما يظهر ذلك في السبع، والتسع، والعشر خاصة فإن الثّقل ظاهر فيها، أما الربع والثمن فإنهما في الحسن مع تحريك الوسط كالثلث، والخمس، والسدس، وقد ورد القرآن بتحريك الوسط فيهما في سورة النساء حيث قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ ﴾ [النساء: ١٢]، وقوله: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ ﴾ [النساء: ١٢]، وأي حسن وفصاحة بعد وروده في القرآن الكريم؟[1].

باستطاعتنا القول: إن هناك عدولا في القرآن عن لفظ «العُشُر» بضم العين والشين لثقله إلى لفظ «معشار» الأيسر نطقًا في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [سبأ: ٤٥]، دون أن

(١) انظر القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٤٩.

ينسحب كلامنا عن بقية الأعداد لا سيما وقد جاء ذكرها في القرآن فلا مجال حينئذ لإخراجها من دائرة الفصاحة بل الأمر بخلاف ذلك أعني الحديث عن الألفاظ (الثُلُث – الرُبُع – السُدُس – الثُمُن) فقد جاءت في القرآن ثم عدل عن العشر إلى المعشار لثقل الأولى وخفة الثانية.

النمط الثامن: وذكر فيه ما تترجح فيه أبنية بعض أسماء الفاعلين في الاستعمال على بعض، كاسم الفاعل المبنيّ من فعل بفتح الفاء وكسر العين؛ فإنه يبنى على فاعل وفعل بكسر العين وفعلان، نحو حَمِدَ فهو حامد، وحمد، وحمدان، وفرح فهو فرح، وفارح، وفرحان. وقد جاء بناء اسم الفاعل من فرح على فارح في قول بعض شعراء الحماسة في باب المراثي:

فما أنا من حزن وإن جلّ جازع ولا بسرور بعد موتك فارح

فلم يحسن كحسن فرح[1].

ففي هذا النوع الذي يخلط فيه ابن الأثير بين اسم الفاعل وبين الصفة المشبهة باسم الفاعل وبين صيغة المبالغة وبينهم من الاختلاف في الدلالة ما يعرفه أئمة اللغة. فإن الصفة المشبهة: اسم مشتق يدل على ثبوت صفة لصاحبها ثبوتًا عامًّا وتشتق من الفعل الثلاثي، اللازم، المتصرف؛ ليدل على ثبوت صفة لصاحبها ثبوتًا عامًا[2]. أما اسم الفاعل فهو: اسم مشتق، يدل على معنى مجرد حادث وعلى

(١) انظر القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٤٩.

(٢) انظر عباس حسن – النحو الوافي – ج٣ ص٢٨٤ – دار المعارف – مصر – ط١٥.

فاعله والحادث هو: عارض، يطرأ ويزول فليس له صفة الثبوت والدوام[1].

أما صيغة المبالغة: فإنها تدل بنصها وصيغتها الصريحة على الكثرة والمبالغة في ذلك الفعل، أي: في المعنى المجرد. ولهذا تسمى: (صيغة مبالغة)، ومن ثَمَّ كان الذي يستخدم صيغة (فاعل) يرمي إلى بيان أمرين: المعنى المجرد مطلقا، وصاحبه، دون اهتمام ببيان درجة المعنى قوة وضعفًا، وكثرة وقلة. بخلاف الذي يستخدم (صيغة المبالغة)؛ فإنه يقصد إلى الأمرين مزيدًا عليهما بيان الدرجة، كثرةً وقوةً[2].

فلا يمكن بحال بعد هذا أن تحل واحدة من هذه الصيغ مكان الأخرى؛ لتؤدي نفس المعنى فإن كل واحدة قد وضعت لما وضعت له فلا يحسن تغييرها لمجرد أن واحدة أحسن في أذن السامع من الأخرى مع إقرارنا أن كل هذه الصيغ تدل على من قام بالفعل.

ولنا وقفة مع البيت الذي استدل به ابن الأثير على تفضيل صيغة تدل على الفاعل بدل الأخرى وهو قول أحد شعراء المراثي:

فما أنا من حزن وإن جلّ جازع ولا بسرور بعد موتك فارح

فإن ابن الأثير يرى أن الشاعر لو قال فَرِح بدلًا من فارح لكان أفضل فهل فرح أو فرحان في هذا الموضع أفضل من فارح؟

---

(١) انظر المرجع السابق – ج٣ ص٢٣٨.

(٢) انظر المرجع السابق – ج٣ ص٢٥٨.

والذي أراه أن (فارح) من حيث أداء المعنى أفضل من (فرح) و (فرحان) في هذا السياق تحديدا؛ ذلك لأن فارح اسم فاعل تدل على الفرح العارض غير الدائم ولا المستمر أما فرِح فهي صيغة مبالغة تدل على شدة الفرح وفرحان صفة مشبهة باسم الفاعل تدل على الثبات واللزوم والشاعر ينفي عن نفسه أدنى شعور بالفرح بعد موت من يرثيه فالشاعر باستخدام فارح ينفي أي فرح لنفسه حتى ولو كان فرحا عارضا وطارئًا فهو ليس بفارح أدنى فرح فكيف يكون فرحًا التي تدل على المبالغة؟ أو فرحان التي تدل على اللزوم والثبات؟

النمط التاسع: وذكر فيه ما يترجح من أوزان الأفعال بعضها على بعض كلفظة (فعل) و(افتعل)، فإن لفظة (فعل) لها موضع تستعمل فيه، ولفظة (افتعل) لها موضع تستعمل فيه، تقول: قعدت إلى فلان إذا جلست إليه، واقتعدت غارب الجمل، إذا ركبت عليه، ولا يحسن أن تقول اقتعدت إلى فلان وقعدت على غارب الجمل، وإن كان ذلك جائزًا وكذلك (أفعل) و(افعوعل) فإنك تقول أعشب المكان، فإذا كثر عشبه قلت: اعشوشب، فلفظة افعوعل للتكثير، وهي على ما فيها من تكرار الحروف طيّبة عذبة، وكذلك سائر ما في وزنها نحو اخشوشن المكان، واغرورقت العين، واحلولى الطعم، وما أشبه ذلك[1].

(١) انظر القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٤٩.

فانظر إلى ما يفعله اختلاف الصيغة بالألفاظ، وعليك بتفقّد أمثال هذه الكلمات لتعلم كيف تضع يدك في استعمالها، فكثيرا ما يقع فحول الخطباء والشعراء في مثلها، ومؤلّف الكلام من كاتب وشاعر إذا مرّت به الألفاظ عرضها على ذوقه الصحيح، فما يجده الحسّ منها موحّدا وحّده، وما يجده الحس منها مجموعا جمعه؛ وكذلك يجري الحكم فيما سوى ذلك من الألفاظ[1].

إن مفاضلة الشاعر أو الكاتب بين (أفعل) و (افتعل) وكذلك بين (أفعل) و(افعوعل) وإن كان مبناه الذوق، كما يقول ابن الأثير إلا أنه يعتمد في المقام الأول وبدرجة كبيرة على درايته باللغة والنحو والصرف فإن كل زيادة في المبنى تؤدي إلى زيادة في المعنى فلا يحسن بالكاتب أن يتصدى للكتابة قبل أن يعي ما للأوزان المختلفة من دلالات متباينة.

الصنف الثالث: المتوحش في زمن دون زمن: وهذا مما انفرد به القلقشندي ولم يأخذه من ابن الأثير ويعرفه بأنه: ما كان متداول الاستعمال في زمن العرب، ثم رفض وترك بعد ذلك، وبهذا لا يعاب استعماله على العرب لأنه لم يكن عندهم وحشيّا، ولا لديهم غريبا وإنما يعاب استعماله على غيرهم ممن قصر فهمهم عنه، وقلّت معرفتهم به[2].

(١) انظر القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٥٠.

(٢) انظر القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٥٠.

وقد كان كلام العرب مشحونا به في نظمهم ونثرهم، دائرًا على ألسنتهم في مخاطباتهم ومحاوراتهم، غير معيب ولا ملوم عليه، وانظر إلى ما تضمنته خطبهم وأشعارهم من الغريب ترى ذلك غير معاب فمن ذلك قول أبي المثلّم الهذليّ:

آبي الهضيمة ناب بالعظيمة ... متلاف الكريمة جلد غير ثنيان

حامي الحقيقة نسّال الوديقة ... معتاق الوسيقة لا نكس ولا وان

ربّاء مرقبة منّاع مغلبة ... وهّاب سلهبة قطّاع أقران

هبّاط أودية حمّال ألوية ... شهّاد أندية سرحان فتيان[1]

فهذا ومثله في نظر القلقشندي لا يعاب استعماله على العرب؛ لأنه لم يكن عندهم غريبا ولا لديهم وحشيّا، بل شائعا بينهم، دائرًا على ألسنتهم في نظمهم ونثرهم وأعظم شاهد لاستحسان استعماله عندهم ووضوح منهجه لديهم أن القرآن الكريم الذي هو أفصح كلام وأبهج لفظ قد اشتمل على ألفاظ من ذلك، كقوله تعالى: ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ [الصافات: ٨ – ٩]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: ٦]، وما أشبه ذلك[2].

(١) انظر القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٥٠.

(٢) انظر القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٥١.

نراه يجيز استعمال الغريب في زمن دون آخر؛ لأنه كان عند العرب – قديمًا – مألوفا مستعملا وعندنا نحن غير مستعمل وهذا كلام مقبول إذا كان الحديث عن لغة الحضارمة مثلا ولكنه غير مقبول إذا كان الحديث عن لغة قريش التي هي أفصح اللغات وقد نزل بها القرآن فنراه يستند أن القرآن قد شمل طائفة من هذا الكلام عرفت بغريب القرآن فيُجوّز استعمال هذه الألفاظ لهم دون من بعدهم كيف ذلك؟ ومن شأنه أمران:

الأول: أن نحكم على النصوص القديمة كلها في زماننا بالخروج من دائرة الفصاحة لاشتمالها على هذا الغريب وهذا ما لا يمكن أن يقوله أحد.

الثاني: أن نمنع الأدباء والكتاب في عصرنا من التأثر بالنصوص القديمة في كلامهم بما في ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية؛ لاشتمالها على ألفاظ غير دارجة على ألسنتنا.

فهل التحدث بألفاظ جاءت في القرآن والسنة يعاب في زماننا – وإن كانت غريبة –؛ لبعد العهد بيننا وبين زمان نزولها؟ لا يمكن أن يكون الاقتباس منها معيبا إلا أن كلامه قد حوى ذلك – وإن كان لا يقصده – لذا نراه يقول: «وهذه الألفاظ كانت مفهومة عند العرب، معلومة المعاني عند المخاطبين؛ لأن الله تعالى قد خاطبهم به وأمرهم فيه ونهاهم، والخطاب بما لا يفهم بعيد، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ [إبراهيم: ٤][1].

(١) القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٥١.

وكذلك ورد في الأخبار النبوية جملة مستكثرة من ذلك، وهي المعبر عنها بغريب الحديث، كقوله ﷺ «من قعد مقعدا لم يذكر الله تعالى فيه كانت عليه من الله تعالى ترة» أي نقص، وقيل تبعة، وقيل حسرة. وقوله ﷺ: «ليسترجع أحدكم حتّى في شسع نعله فإنها من المصائب» والشّسع: أحد سيور النعل؛ وقوله ﷺ: «ألظّوا بياذا الجلال والإكرام» أي الزموا هذه الدعوة وأكثروا منها، وقوله ﷺ في الدعاء: «واغسل حوبتي واسلل سخيمة قلبي» وأشباه ذلك»[1].

فبعد العهد بين عصرنا والزمن الذي قيلت فيه النصوص لا يمكن أن يكون حاكمًا على النص من جهة الفصاحة والتأثر بها من قِبَل الكتّاب لا يقدح في فصاحته ولا يمكن وصمه بمجانبة الفصاحة.

الصنف الرابع: الغريب المتوحش عند قوم دون قوم: وفيه يلفت الانتباه إلى عنصر المكان ودوره في الحكم على اللفظ بالغرابة وذلك ككلام أهل البادية من العرب بالنسبة إلى أهل الحضر منهم، فإن أهل الحضر يألفون السّهل من الكلام، ويستعملون الألفاظ الرقيقة، ولا يستعملون الغريب إلا في النادر وأهل البادية يألفون اللفظ الجزل ويميلون إلى استعمال الغريب[2].

ثم يفصل ما أجمله بقوله: «وإذا نظرت إلى أهل مكة وكلام قريش الذين نزل القرآن بلغتهم وبعث رسول الله ﷺ من أرومتهم، وكلام أهل حضرموت وما

(١) انظر القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٥٢.

(٢) انظر القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٥٩.

جاورها من اليمن ومخاليف الحجاز، علمت فرق ما بين الكلامين، وتباين ما بين الطّرفين، حتّى كأنّ البادي يرطن بالنسبة إلى الحاضر، ويتكلم بلغة غير العربية»[1].

ويتحدث عن إيثار النبي ﷺ للغة قريش التي هي أفصح اللغات وأيسرها فيقول: «وكانت لغة رسول الله ﷺ التي يتكلم بها على الدوام، ويخاطب بها الخاص والعامّ، لغة قريش وحاضرة الحجاز، إلا أنه ﷺ أوتي جوامع الكلم وجمع إلى سهولة الحاضرة جزالة البادية، فكان يخاطب أهل نجد وتهامة وقبائل اليمن بلغتهم، ويخاطبهم في الكلام الجزل على قدر طبقتهم»[2].

فمن ذلك كلامه ﷺ لطهفة النّهديّ وكتابه إلى بني نهد، وذلك أنه لما قدم وفود العرب على النبيّ ﷺ قدم عليه طهفة بن أبي زهير النّهديّ، فقال: «أتيناك يا رسول الله من غور تهامة على أكوار الميس، ترتمي بنا العيس، نستحلب الصّبير، ونستجلب الخبير ونستعضد البرير، ونستخيل الرّهام، ونستخيل الجهام من أرض غائلة النّطاء، غليظة الوطاء قد جفّ المدهن، ويبس الجعثن وسقط الأملوج، ومات العسلوج وهلك الهديّ، وفاد الوديّ برئنا إليك يا رسول الله من الوثن والعثن، وما يحدث الزمن، لنا دعوة السلام، وشريعة الإسلام، ما طما البحر، وقام

(١) القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٦٠.

(٢) القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٦٠.

تعار، ولنا نعم همل أغفال، ما تبضّ ببلال، ووقير كثير الرّسل، قليل الرّسل، أصابتها سنيّة حمراء مؤزلة، ليس لها علل ولا نهل»[1].

فقال رسول الله ﷺ: «اللهمّ بارك لهم في محضها ومخضها ومذقها وفرقها، وابعث راعيها في الدّثر بيانع الثّمر، وافجر لهم الثمد، وبارك لهم في المال والولد من أقام الصلاة كان مسلما، ومن آتى الزكاة كان محسنا، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصا. لكم يا بني نهد ودائع الشّرك، ووضائع الملك لا تلطط في الزكاة، ولا تلحد في الحياة، ولا تتثاقل عن الصلاة[2]».

والمقام هنا ليس مقام شرح مفردات الرسالة وبيان معناها إلا أنها دليل بيّن على عدول النبي ﷺ إلى الغريب إذا اقتضت الحاجة ودعت المصلحة فالنبي ﷺ لم يحد عن الفصاحة حينما خاطب الوفد من جنس ما يتكلمون وهو دليل على أن الغرابة أمر نسبي يختلف باختلاف الزمان والمكان إلا أن لغة قريش كانت هي اللغة التي اختارت ألفاظها بعناية ولم تتأثر بالبيئات المحيطة بالجزيرة العربية.

وفصاحة رسول الله ﷺ لا تقتضي استعمال هذه الألفاظ، ولا تكاد توجد في كلامه إلا جوابا لمن يخاطبه بمثلها كحديث طهفة وما جرى مجراه على أنه قد كان في زمنه أوّلا متداولا بين العرب ولكنه ﷺ لم يستعمله إلا يسيرا لأنه أعلم بالفصيح والأفصح[3].

---

(١) القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٦٠ – ٢٦١.

(٢) القلقشندي – صبح الأعشى – ج٢ ص٢٦١.

(٣) انظر ابن الأثير – المثل السائر – ص١٦٧.

فهذه الرسالة حفلت بالألفاظ الغريبة ولكنها الغرابة المقبولة المستحسنة؛ لأن المقام يقتضيها وذلك أن الرسالة موجهة إلى قوم من الأعراب لم يغادروا باديتهم فسياقات حديثه الشريف، ومقاماته تقتضي مثل هذه الألفاظ التي لم تكن وحشية نافرة في مسامع المخاطبين، بل إنها كانت مما يدور على ألسنتهم.

الغريب عند البلاغيين المعاصرين:

إذا كان ابن الأثير قديما هو من استفاض وأسهب في الحديث عن الغريب في كتابه المثل السائر فإن العصر الحديث لم يخل من علماء أجلاء قدروا الغريب حق قدره وأبرز هؤلاء الأستاذ الدكتور/ حسن طبل والأستاذ الدكتور / محمد أبو موسى فكتابات هذين العلمين أغنت عن كتابات من سواهما في هذا المضمار.

يرى الدكتور / حسن طبل أن النظر إلى الغرابة وتنافر الحروف كاثنين من العيوب التي تخل بفصاحة الكلمة المفردة في تصور كثير من البلاغيين قديمًا هو تصور يشوبه غير قليل من القصور إذ هو يعني أن ألفاظ اللغة تنقسم إلى قسمين لا تداخل بينهما: فصيح وهو ما برئ من تلك العيوب وغير فصيح وهو ما كان فيه عيب منها وهذا مما لا يمكن التسليم به على إطلاقه فالفصاحة عنده أو الجمال أو القبح أو الوضوح أو ما إلى ذلك ليست صفات أو خواص ذاتية للألفاظ بل هي صفات عارضة تكتسبها الألفاظ في سياقاتها ومعنى ذلك أن اللفظة الواحدة قد تكون فصيحة في سياق وغير فصيحة في سياق آخر[1].

(١) انظر حسن طبل – البلاغة العربية مصطلحات ومفاهيم – ألفا للنشر والتوزيع – بدون تاريخ – ص١٩.

لذا فإن تنافر الحروف وثقلها أو الغرابة ليست – على إطلاقها – عيوبًا تخل بفصاحة الكلمة فالحكم على الكلمة بالفصاحة أو بضدها لا يتعلق عنده بخصائصها الصوتية والدلالية في ذاتها بل بمدى ملاءمة تلك الخصائص أو عدم ملاءمتها للسياق الذي ترد فيه فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ وإذا استحقت المزية استحقتها في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في اللفظ(١).

في ضوء هذه النظرة للدكتور/ حسن طبل نستطيع القول بأن تنافر الحروف والغرابة ليست – على إطلاقها – عيوبًا تخل بفصاحة الكلمة فالحكم على الكلمة بالفصاحة أو بضدها لا يتعلق بخصائصها الصوتية والدلالية في ذاتها بقدر ما يتعلق بمدى ملاءمتها للسياق الذي تأتي فيه أو بمعنى أدق فهو يعوّل على السياق في المقام الأول ثم على خصائص الكلمة الصوتية والدلالية ثانيًا.

أما الدكتور/ محمد أبو موسى فقد قصر الغرابة التي تخرج الكلام عن طور الفصاحة ومضمار البلاغة على الكلمات المتنافرة صعبة النطق التي يمجها السمع وعلى الكلمات التي ليس لها وجود حتى في المعاجم كالقاموس ونحوه الكلمات المندثرة من لغة القوم فنراه يقول: «أما فصاحة الكلمة، فهي أن تكون لينة سهلة النطق تتجاور أصواتها تجاورا لينا هادئا ملسا، وأن تكون مألوفة جرت على الألسنة، ورنت أصداؤها في محافل الشعر والأدب، وأن تكون واردة على قواعد

(١) انظر المرجع السابق – ص٢٠.

تصريف الكلمات، وهذا معنى قولهم: أما فصاحة المفرد فهي خلوصه من تنافر الحروف والغرابة، ومخالفة القياس الصرفي»[1].

يضرب مثلا لما يقوله بكلمة (الهعخع) فقد جمعت الشرطين اللذين وضعهما للغرابة المخلة بالفصاحة؛ لتنافر حروفها من جهة ولعدم وجودها في المعاجم من جهة أخرى فإذا تنافرت حروف الكلمة كان ذلك معيبا، ومخلًّا بفصاحتها، وقد ذكروا أن (الهعخع) اسم شجر، ولم يوجد في لسان العرب، ولا في تاج العروس ولا في القاموس، ويرى أنه ليس اسم شجر؛ لأن أسماء الشجر تكون في الغالب كلمات دوارة، وهذه كلمة ثقيلة لا يستطاب دورانها على الألسنة، إلا أن يكون شجرا كريها مرا، لا يطاق طعمه، كأنه هذه الكلمة التي لا يطاق النطق بها، والتي تحكي صوت المتقيئ، ولم لا يكون لفظا مخترعا للثقل، وأنه لا معنى له؟ وهم يخترعون كلمات للمعاياة، قال ابن الشميل: «إنها معياة ولا أصل لها»[2].

ويعلل أبو موسى سبب تنافر الحروف بتقارب مخارجها فالانتقال من الحلق إلى طرف اللسان مثلا أيسر من الانتقال بين الحروف التي تخرج من الحلق كما في كلمة (الهعخع) فإن الهاء والعين والخاء كلها تخرج من الحلق ومن ثم فإن

(١) محمد أبو موسى – خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني – ص٦١ – مكتبة وهبة – مصر – الطبعة السابعة.

(٢) انظر المرجع السابق – ص ٦١ – ٦٢ + يحيى بن حمزة العلوي – الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – المكتبة العصرية – بيروت – ط١ – ج٣ ص١٢٤.

أبرز سبب يذكر لتنافر الحروف هو قرب مخارجها، أي أن تكون حروف الكلمة المتتابعة تخرج من مخارج قريبة جدًا، وهذا يشبه مشي المقيد، أي أن أعضاء النطق بعد الفراغ من إخراج الصوت يضطرها الحرف الثاني إلى أن تعود إلى مخرج قريب جدا من الأول، وكان يسهل عليها أن تنتقل إلى مخرج أبعد، كأن تثب من الحلق إلى اللسان مثلًا(١).

ويرى أبو موسى أن العربية لغة تجنح إلى السهولة واليسر، لذا تعمد إلى الإدغام عند حدوث ثقل في النطق بالكلمة بسبب التماثل والتجانس والتقارب فالعرب يكرهون الثقل، وقد بنيت لغتهم على الخفة، ولذلك تراهم يعمدون إلى إدغام الحرفين المتماثلين، والمتقاربين مثل (شدّ) وأصله شدد ومثل (اضطر) فإنها، وإن كتبت ضادًا وطاء، فالنطق يجمعهما في صوت واحد مدغم، فإذا فصل بين الحرفين المتقاربين حرف زال الثقل فالعرب لا يعرفون كلمة (هخ) بكسر الهاء وسكون الخاء، وهو حكاية صوت المتنخم أي الذي يدفع النخام من صدره، أو أنفه، وذلك لثقلها بقرب الهاء والخاء، فلما وقعت الياء بينهما، وفصل بين المخرجين تصرفت الكلمة وجرت على لسانهم، فقالوا: هيخ الإبل أي أناخها، والتهيخ إناخة الإبل، أو دعاء الفحل للضراب(٢).

---

(١) انظر المرجع السابق – ص ٦٢ + يحيى بن حمزة العلوي – الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – ج٣ ص١٢٤.

(٢) انظر المرجع السابق – ص٦٢.

ثم ينتقل أبو موسى للحديث عن سبب آخر لتنافر الحروف غير قرب المخرج، وهو تنافر منشؤه عدم قبول الأذن لحروف الكلمة بهذا النحو من التأليف على الرغم من بعد المخارج، بيد أن الحاكم في هذا النوع هو الأذن والذوق السليم فقد ذكر البلاغيون في مثال تنافر الحروف كلمة (الجرشى) بكسر الجيم، وتشديد الشين بمعنى النفس في بيت المتنبي يمدح سيف الدولة:

مبـــارك الاســـم أغـــر اللقـــب كـريم الجرشـى شـريف النسـب[1]

فالحروف في كلمة (الجرشي) ليست متقاربة في المخرج ولكن صوتية الكلمة تعافها الأذن ولاتستسيغها، وبعد الحديث عن التنافر والثقل فإن السياق في بعض الأحيان يحتاج لهذا الثقل الذي يؤدي بدوره دورًا في أداء المعنى بصورة صوتية أوقع في نفس السامع وأشد وطأ على عقله ووجدانه فينبغي أن يلاحظ أن استعمال هذا المقياس يحتاج إلى وعي وذوق؛ لأن هناك كلمات ثقيلة على اللسان، ولكن ثقلها من أهم مظاهر فصاحتها، حيث إن هذا الثقل يصور معناها بحق.

وذلك ككلمة (أنلزمكموها) في قوله تعالى يحكي مقالة سيدنا نوح عليه السلام لقومه: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود: ٢٨]، فكلمة أنلزمكموها، وما فيها من صعوبة

(١) انظر المرجع السابق – ص٦٢ – ٦٣.

في النطق تحكي صعوبة الإلزام بالآيات وهم لها كارهون، وكذلك كلمة فعمّيت وما فيها من الإدغام، والتشديد وكيف تصفان معنى التعمية والإلباس، فالثقل في بعض الألفاظ ضرورة لما يضفيه على السياق من معان لا تتم إلا به.

ولهذا فأبو موسى لا يجد في كلمة اطلخم في بيت أبي تمام:

قد قلت لما اطلخم الأمر وانبعثت عشـــواء تاليـــة غبســـا دهاريســـا

مخالفة للفصيح؛ لأن ثقلها وتداخل حروفها يحكيان الشدة، والاختلاط حين ينبهم الأمر، وتنبعث النوائب العشواء، واطلخم الأمر: اشتد وأظلم، والعشواء: داهية يعشى بها، والغبس: الدواهي السود، والدهاريس: الدواهي[1].

أما الغرابة المخلة بالفصاحة عند أبي موسى فهي أن تكون الكلمة وحشية أي لا يظهر معناها، فتحتاج في معرفتها إلى أن تنظر في كتب اللغة الواسعة، والذوق العربي لا يحب الإغراب في الكلمات، ويكره التباصر بالغريب والتشادق به، ويجعلونه دليل قساوة الطبع، وتشيع في كلامهم هذه المعاني كما في قولهم: الاستعانة بالغريب عجز، والتشادق في غير أهل البادية نقص، وقولهم: البليغ من يجتني من الألفاظ نوادرها. ويستدل أبو موسى على أن استعمال الغريب بضابطه لا يخل بالفصاحة على إكثار بشار من الغريب في القصيدة التي أحدثها في سلم ابن قتيبة، فلما سأله أبو عمرو بن العلاء، وخلف الأحمر عن ذلك قال: بلغني أن سلما

(١) انظر محمد أبو موسى – خصائص التراكيب – ص٦٤.

يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف، فهل أحب بشار أن يسقط فصاحته بين يدي سلم بن قتيبة؟ وهل يسقط البلاغيون غريب بشار؟[1].

فالغرابة التي تخل بفصاحة الكلام عند أبي موسى هي العدول عن المعروف اليسير إلى الغريب دون إن يضيف الغريب شيئًا جديدًا للمعنى مثل استعمال كلمة الطرموق بدل الطين، والاستمصال بدل الإسهال، والإطرغشاش والإبرغشاش بدل الشفاء، وهذه هي الغرابة المخلة بالفصاحة عند البلاغيين[2].

مما سبق يتبن أن البلاغيين أعقل من أن يضعوا أصلا للفصاحة يخرجون به آيات من القرآن، وجملة صالحة من حديث رسول الله ﷺ، وأكثر شعر طرفة ولبيد وامرئ القيس، والنابغة وزهير وشعراء الطبقات كلهم مما ترى فيه الشعر يوغل في البداوة، حين يلتقي بنوافرها، ويصف غرائبه.

كما أن البلاغيين كانوا أدق من أن يقعوا في مثل هذه الكبيرة، ولو تأمل المعترضون عبارتهم لأدركوا ذلك؛ لأنهم يقولون في تحديد الغرابة: أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها، فيحتاج في معرفته إلى أن ينقر عنه في كتب اللغة المبسوطة، فأشاروا إلى الموسوعات اللغوية الكبرى والتي لا يظن أبو موسى أن القاموس والأساس واحد منها، ثم إنهم قالوا: «ينفر عنها» أي: يجتهد في

(١) الجاحظ – البيان والتبيين – ج١ ص٥٩ + ابن رشيق – العمدة في محاسن الشعر وأدبه – دار الجيل – ط٥ ١٩٨١ م – ج١ ص٢٤٧ + محمد أبو موسى – خصائص التراكيب – ص٦٤.

(٢) انظر المرجع السابق – ص٦٥.

استخراجها من هذه المطولات؛ لأنها مدفونة في أضابيرها فهم في قضية الغريب والفصاحة يريدون الكلمات التي توشك أن يميتها الزمن، وأن يبتلعها التاريخ، والتي يمكن أن ينتفع بها الباحث في الأصول السامية لإيغالها في القدم، - وشبهها بكلمات النقوش - أكثر مما ينتفع بها الأدباء وأهل الفصيح، هم يقصدون (زرجون) و(إسفنط) و(خندريس) بدل الخمر، و(هرماس) و(فدوكس) بدل الأسد[1].

رأي ومنهج حول الغريب:

بعد استعراض آراء علماء البلاغة حول مسألة الغريب وجدوى استعماله في النصوص الأدبية، دفعني المقام إلى التأصيل لهذه المسألة، فالغريب كما رأينا شقان: غريب حسن هو ما قل استعماله على الألسن، ولكن الأذن تتقبله وتستسيغه فهذا لا يعاب استعماله إذا احتاج السياق إليه، واستطاع تأدية المعنى بصورة أفضل من غيره، والحقيقة أن غرابة هذا النوع أمر نسبي زمانًا ومكانًا، فقد تكون الكلمة مألوفة شائعة في عصر، ثم يندر استعمالها ويقل في عصر آخر، وقد تكون نادرة في حقبة معينة ثم تذيع وتنتشر في حقب أخرى، وقد تشتهر الكلمة وتستعمل مثلًا في الجزيرة العربية، ويقل استعمالها في مصر وبلاد الشام، والعكس صحيح، إذن فالغرابة على هذا النحو أمر متغير متباين من عصر إلى عصر

(١) انظر ابن منظور - لسان العرب - ج٦ ص٢٤٨ + الزبيدي - تاج العروس - دار الهداية - ج١٦ ص٧ + محمد أبو موسى - خصائص التراكيب - ص٦٥.

ومختلف من بيئة لأخرى، فكيف نجعلها معيارًا لفصاحة الكلمة، ودليلًا على بلاغة الكلام من عدمه.

إن هذا الأمر يقتضي أن نحكم الآن على عامة الشعر الجاهلي بعدم الفصاحة والقصور في باب البلاغة، وهذا أمر لا يمكن أن يقوله قائل أو يعقله عاقل، فالشعر الجاهلي هو النموذج الأسمى الذي ظل الشعراء يحذون حذوه ويقتفون أثره حتى العصر الحديث، هذا من ناحية الغريب الحسن.

أما الغريب الذي يجمع مع ندرة استعماله صعوبة النطق به أو ثقله على الأذن فهذا لا يختلف أحد على عدم فصاحته، وأنّ تعمد استخدامه - بلا مبرر أو مسوغ - يخرج الكلام عن رونق البلاغة، لذا فإن بعض الدراسات البلاغية والأسلوبية قد دافعت عن نماذج من هذا الغريب التي جاءت بصعوبتها في النطق وثقلها على الأذن لتعبر عما بداخل الشاعر أو الكاتب من مشاعر مختلجة وعواطف متشابكة متداخلة.

إن الكلام غير العادي يناسب الموقف غير العادي هذا ما نلمسه جليًا في كلام النبي ﷺ وهذا ما أشار إليه الرافعي في حديثه عن غريب الحديث النبوي حيث يقول: «وليس ذلك بأعجب من مخاطبته وفود العرب بما كان لهم من اللغات والأوضاع الغريبة التي لا تعرفها قريش من لغتها، ولا تتهدَّى إلى معانيها، ولا يعرفها بعضُ العرب عن بعض، ثم فَهمه عنهم مثل ذلك على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، حتى قال له علي رضي الله عنه وقد سمعه يخاطب وفدَ بني نهد: يا رسول الله،

نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره! فقال عليه الصلاة والسلام: (أدبني ربي فأحسنَ تأديبي)»[1].

ومن ذلك كتبه الغريبة التي كان يُمليها ويبعث بها إلى قبائل العرب يخاطبهم فيهم بلحونهم ولا يعدو ألفاظهم وعبارتهم فيما يريد أن يلقيه إليهم، وهي ألفاظ خاصة بهم وبمن يداخلهم ويقاربهم، ولا تجوز في غير أرضهم ولا تسيرُ عنهم فيما يسير من أخبارهم، ولا تأتلف مع أوضاع اللغة القرشية فما ندري أي ذلك أعجب: أن ينفرد النبي ﷺ بمعرفة هذا الغريب من ألسنة العرب دون قومه وغير قومه ممن ليس ذلك في لسانهم، عن غير تعليم ولا تلقين ولا رواية، أو أن يكونَ قومُه من قريش قد ضربوا في الأرض للتجارة حتى اشتق اسمهم منها، وخالطوا العرب وسمعوا مناطقهم في أرضهم، وحين يتوافَون إليهم في موسم الحج، وهم مع ذلك لا يعلمون من هذا الغريب بعضَ ما يعلمه، ولا يديرونه في ألسنتهم، ولا يُورثونه أعقابَهم فيما ينشأون عليه من السماع والمحاكاة حتى كان هذا الباب فيه ﷺ بابًا على حدة[2].

على أنا ننقل كتابًا من هذه الكتب؛ لنعرف الأمر على حقه، ولنميز اللغةَ السهلة التي ذهبت خشونتها وانسحقت في الألسنة، وهي لغة قريش، من هذه اللغات الغريبة التي يجمعها ﷺ دون قومه، ثم لا تجري في منطقه إلا مع أهلها

(١) الرافعي – تاريخ آداب العرب – ج٢ ص ٢٠٧ – دار الكتاب العربي – بدون تاريخ.

(٢) انظر الرافعي – تاريخ آداب العرب – ج٢ ص٢٠٧ – ٢٠٨.

خاصة؛ ولا تندر في كلامه مع غيرهم، أو تغلب عليه، أو تنقصُ من فصاحته، أو تُضعف أسلوبه، كما هو الشأن في أهل الغريب من هذه اللغة، وفيمن يتباصرون به ويتكلفون لذلك حفظَه وروايتَه، وهم أهل التوعرِ والتقعير واستهلاك المعاني، الذين تُسْلمهم إلى ذلك طبيعة الغريب نفسه، إذ يدور في ألسنتهم ويستجيبُ لهم كلما مَثلت معانيه، غير مُختَلب ولا مستكرَه، ويغلبهم على مُرادِفه من الكلام السهل المأنوس؛ لأنهم أكثر رغبة فيه، وأشد عناية به في الطلب والحفظ والمدارسة[1].

أما الكتابُ الذي أشرنا إليه فهو كتابه ﷺ لوائل بن حجر الكِنْدِي، أحد أقيال حَضرَمَوت، ومنه: «إلى الأقيال العَباهلةِ، والأزواع المشابيب...» وفيه:«وفي التيعة شاة لا مقورَةُ الألياط، ولا ضناك، وأنطوا الثبجة. وفي السيُوب الخُمس ومَن زَنى مِم بكر فاصعقوه مائة، واستوفضوه عاماً. ومَن زَنى مِم ثيب فضرجوه بالأضاميم. ولا توصيمَ في الدين، ولا غفة في فرائض الله تعالى، وكل مُسكر حرام وائلُ بن حجر يترفل على الأقيال»[2] .

فهذه مجموعة مما وصل إلينا من غريب اللغات التي كان يعلمها النبي ﷺ فهي ولا ريب لم تكن مجتلبة، ولا متكلفة، ولا ترامى إليها البحث والتفتيش، وإنَّما جرت منه ﷺ مجرى غيرها مما قذفه الطبع المتمكن، وألفته السليقة الواعية،

(١) انظر المرجع السابق – ج٢ ص٢٠٨.

(٢) الزمخشري – الفائق في غريب الحديث – دار المعرفة – لبنان – ط٢ – ج١ ص١٤.

ولا ريب أن وراءها في ذلك الطبع وتلك السليقة، ما وراء ألفاظها من سائر ما انفردت به تلك اللغات عن القرشية، فلا بد أن يكون محيطاً بفروق تلك اللغات، مستوعباً لها على أتم ما تكون الإحاطة والاستيعاب، كأنه في كل لغة من أهلها، بل أفصح أهلها.

ويؤيدني فيما أسعى إليه صاحب معترك الأقران حيث يقول: «ائتلاف اللفظ مع اللفظ وائتلافه مع المعنى: **الأول**: أن تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضاً، بأن يقرَن الغريب بمثله والمتداوَل بمثله، رعاية الفاصلة لحسن الجواب والمناسبة.

والثاني: أن تكون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد، فإن كان فخما كانت ألفاظه فخمة، أو جزلاً فجزلة، أو غريباً فغريبة، أو متداولة فمتداولة، أو متوسطاً بين الغرابة والاستعمال فكذلك»[1]. «فالأول كقوله تعالى: (تاللهِ تَفْتَأ تذكرُ يوسفَ حتى تكونَ حَرَضاً). أتى بأغرب ألفاظ القسم وهي التاء، فإنها أقل استعمالاً، وأبعدُ من أفهام العامة بالنسبة إلى الباء والواو، وبأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار، فإن (تزال) أقرب إلى الأفهام، وأكثر استعمالاً منها، وبأغرب ألفاظ الهلاك وهو الحرض، فاقتضى حسنُ الوضع في النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة تَوَخيا لحسن الجوار ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع، وتتناسب في النظم»[2]. فذكر يوسف بعد

(١) السيوطي – معترك الأقران في إعجاز القرآن – ج١ ص٢٩٥ – دار الكتب العلمية بيروت – ط١.

(٢) المصدر السابق.

سنوات ليست بالقليلة من ضياعه أحدث في نفوسهم حالة تنبئنا عنها الألفاظ الغريبة التي استخدموها لتوازي ما بداخلهم من غرابة وهكذا لعبت الغرابة دورا مهما في إبراز مشاعر الاستنكار في نفوسهم.

نماذج تطبيقية
من عناية البلاغيين القدامى والمحدثين بالغريب

الحديث عن كلمة ضيزى:

من غريب القرآن الذي نال عناية خاصة عند البلاغيين كلمة (ضيزى) التي جاءت في سورة النجم في قوله تعالى ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾[النجم: ٢٢]، أي جائرة أو ظالمة فلماذا حصل العدول عن الشائع المعروف إلى الغريب المتروك في هذا السياق؟ لقد أضافت لفظة ضيزى للسياق ما لم يمكن أن تضيفه لفظة جائرة أو ظالمة هذا ما أقره البلاغيون.

يقول ابن الأثير: «وحضر عندي في بعض الأيام رجل متفلسف فجرى ذكر القرآن الكريم، فأخذت في وصفه، وذكر ما اشتملت عليه ألفاظه ومعانيه من الفصاحة والبلاغة، فقال ذلك الرجل: وأيّ فصاحة هناك وهو يقول: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾؟ فهل في لفظة (ضيزى) من الحسن ما يوصف؟ فقلت له: اعلم أن لاستعمال الألفاظ أسرارًا لم تقف عليها أنت ولا أئمتك، مثل: ابن سينا والفارابي، ولا من أضلَّهم مثل: أرسطاليس وأفلاطون وهذه اللفظة التي أنكرتها في القرآن، وهي لفظة (ضيزى) فإنّها لا يَسُدُّ غيرها مسدَّها، ألا ترى أن السورة كلها مسجوعة

على حرف الياء، فقال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم: ١-٢]، وكذلك إلى آخر السورة، فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة عليه، وغيرها لا يسد مسدها في مكانها»[١].

اكتفى ابن الأثير في جوابه بذكر ما للكلمة من دور في توافق الفواصل حيث إن السورة كلها لها فاصلة واحدة هي حرف الياء ولكن الأمر أبعد من فاصلة قد روعيت. إن هذه اللفظة إنما أوثرت كي تناسب بغرابتها عن مألوف الاستعمال غرابة تلك القسمة التي تصفها[٢] ونرى الصورة قد اتضحت أكثر عند الرافعي.

يقول الرافعي: «وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة «ضيزى» ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه؛ فإن السورة التي هي منها وهي سورة النجم مفصلة كلها على الياء فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ثم هي في معرض الإنكار على العرب؛ إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله مع أولادهم البنات فقال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢١- ٢٢]، فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها»[٣].

---

(١) ابن الأثير – المثل السائر – ص ١٦١ – ١٦٢.

(٢) د/ حسن طبل – الإعجاز البلاغي للقرآن – ص٧٦ – مكتبة الإيمان – المنصورة – ط١.

(٣) الرافعي – تاريخ آداب العرب – ج٢ ص١٥٢.

ويرى الرافعي أن الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتهكم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية[1].

إنه انسجام المحاكاة harmonie imitaitve الذي ندركه من مطابقة الإحساس الذي يخلفه في النفس وقع الأحرف الصامتة للإحساس الذي لدينا عن الشيء الذي نتحدث عنه[2]. والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام، وله نظائر في لغتهم، وكم من لفظة غريبة عندهم لا تحسن إلا في موضعها، ولا يكون حسنها على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذي سيقت له بلفظها وهيئة منطقها، فكأن في تأليف حروفها معنى حسيا، وفي تآلف أصواتها معنى مثله في النفس.

مما سبق نستنتج أن مجيء كلمة (ضِيزَى) في هذا الموضع دون الكلمات التي تُؤدّي معناها له نُكْتَتَان: معنوية، ولفظيّة. أما المعنويّة فهي الإشعار بقباحة التعامل مع الرّبّ الخالق بقسمة جائرة، يختار المشركون فيها لأنفسهم الذكور ويختارون فيها لربّهم الإناث، عن طريق استخدام لفظ يدلُّ بحروفه على قباحة

(١) انظر المرجع السابق – ج٢ ص١٥٢.

(٢) محمد مندور – في الميزان الجديد – ص١٥١ – نهضة مصر – القاهرة – ٢٠٠٤.

مُسَمَّاه. وأمّا اللفظية فهي مراعاة رؤوس الآي، في الآيات قبلها وبَعْدَها[1].

قوله – تعالى - (كبكبوا):

وهي من الكلمات الغريبة التي حظيت بالدراسة لغرابتها من ناحية ولإيقاعها الصوتي من ناحية أخرى والكلمة من قوله – تعالى – ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢– ٩٥]، قال صاحب اللسان في تفسير كبكبوا: «أَي دُهْوِرُوا، وجُمِعُوا، ثُمَّ رُمِيَ بِهِمْ فِي هُوَّةِ النَّارِ؛ وَقَالَ الزَّجَّاجُ: كُبْكِبُوا طُرِحَ بعضُهم عَلَى بَعْضٍ وَقِيلَ: جُمِعُوا، مأْخوذ مِنَ الكَبْكَبة. وكَبْكَبَ الشيءَ: قَلَبَ بعضَه عَلَى بَعْضٍ»[2] قال الزمخشري: «والكبكبة: تكرير الكب، جعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقى في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقرّ في قعرها»[3]. فهي بجرسها الخاص تخيل صورة الاضطراب والتصادم بين هؤلاء الضالين فهم يدفعون فيتدافعون إلى مصيرهم المحتوم في حركات عشوائية مائجة بلا انتظام فالآية آثرت كلمة (كبكبوا) لدورها الفني في السياق[4].

---

(١) انظر عبد الرحمن حسن حبنكة – البلاغة العربية – ج٢ ص٤٧٩ – دار القلم دمشق – ط١ ١٩٩٦.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج١ ص ٦٩٧.

(٣) الزمخشري – الكشاف – دار الكتاب العربي – بيروت – ط٣ – ج٣ ص٣٢٢.

(٤) انظر د/ حسن طبل – البلاغة العربية مصطلحات ومفاهيم – ص٢٢.

فتبين مما سبق أن الكبكبة هي الجمع وهي الإلقاء في هوة فلو عُدل عنها إلى (أدخلوا) لما استطاعت القيام بهذا المعنى والاضطلاع به بالإضافة إلى صوتية الكلمة التي تضافرت مع الدلالة المعجمية في إبراز المعنى فإن الكاف والباء من حروف الشدة التي ينحبس الصوت عند النطق بها فهو يوحي بما يقاسونه من الضيق والشدة في هذا الموقف وهما من حروف الهمس أيضًا وهو جريان النفس عند النطق بالحرف وهو نفس يستحضر في ذهن السامع زفير هولاء الكافرين المتصاعد بعد ضمهم إلى بعض وإلقائهم من شفير جهنم.

وصرفية الكلمة جاءت هي الأخرى بدورها لتؤكد المعنى في ذهن السامع فالفعل (كبكب) فعل مضعف تكوّن من تكرار المقطع (كب) الذي يوحي بتكراره إلى تكرار السقوط في دركات جهنم حتى الاستقرار في قعرها كذلك فقد جاء الفعل ماضيًا للإشارة إلى تحقق ذلك ووقوعه لا محالة.

فصوتية الكلمة ودلالتها الصرفية أتت منسجمة تمام الانسجام مع سياق الوعيد والتهديد لهؤلاء الغاوين فجاء الصوت محاكيا لتردي تلك الأفواج في النار مصورا صوت الوقوع والاصطدام[1].

(١) انظر د/ عبد الحميد هنداوي – الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم – الدار الثقافية للنشر – القاهرة – ط١ ٢٠٠٤ – ص٦٣.

الحروف المقطعة وبراعة الاستهلال:

ثمة دراسة بلاغية عن الحروف المقطعة في أوائل السور، والحروف المقطعة من الغريب الذي كثر حوله الجدل وتباينت آراء المفسرين لها، هل هي من المتشابه الذي لا يعلم كنهه إلا الله؟ أم هي أسماء للسور؟ أم هي رموز لبعض الأسماء؟ أم هي من الغريب الذي من شأنه أن يثير السامع ويجذب انتباهه لما يأتي بعده من محكم الحديث؟ إلا أن الدكتور / محمد بدري عبد الجليل قد أفرد بحثًا لدراسة الأحرف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور، وبيّن ملاءمة كل حرف للسورة التي جاء في أولها، من خلال الكشف عن المعنى المعجمي للحرف المجرد وبيان مدى مناسبة هذا المعنى لسياق السورة من أولها إلى آخرها، وكيف دار معنى الحرف المقطع مع السورة والموضوعات التي تناولتها، فكأن الحرف التي افتتحت به السورة هو مفتاح قراءة السورة، أو النطاق الذي أحاط بالسورة فزادها بهاء على بهائها وحسنًا إلى حسنها.

قبل الشروع في عرض الحروف وبيان مناسبها لسورها نعرض لآراء العلماء حول معنى الحروف المقطعة، حيث اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الْحُرُوفِ الَّتِي فِي أوائل السور، فَقَالَ عَامِرٌ الشَّعْبِيُّ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ: «هِيَ سِرُّ اللهِ فِي الْقُرْآنِ، وَلِلَّهِ فِي كُلِّ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِهِ سِرٌّ. فَهِيَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي انْفَرَدَ اللهُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ، وَلَا يَجِبُ أَنْ يُتَكَلَّمَ فِيهَا، وَلَكِنْ نُؤْمِنُ بِهَا وَنَقْرَأُ كَمَا جَاءَتْ. وَرُوِيَ هَذَا الْقَوْلُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ. وَذَكَرَ أَبُو اللَّيْثِ

السَّمَرْقَنْدِيُّ عَنْ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُمْ قَالُوا: الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ مِنَ الْمَكْتُومِ الَّذِي لَا يُفَسَّرُ. وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ: لَمْ نَجِدِ الْحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةَ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي أَوَائِلِ السور، ولا ندري ما أراد الله ﷻ بِهَا»[1].

وَقَالَ جَمْعٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ كَبِيرٌ: «بَلْ يَجِبُ أَنْ نَتَكَلَّمَ فِيهَا، وَنَلْتَمِسَ الْفَوَائِدَ الَّتِي تَحْتَهَا، وَالْمَعَانِيَ الَّتِي تَتَخَرَّجُ عَلَيْهَا، وَاخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ عَلَى أَقْوَالٍ عَدِيدَةٍ، فَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَلِيٍّ أَيْضًا: أَنَّ الْحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةَ فِي الْقُرْآنِ اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمِ، إِلَّا أَنَّا لَا نَعْرِفُ تَأْلِيفَهُ مِنْهَا. وَقَالَ قُطْرُبٌ وَالْفَرَّاءُ وَغَيْرُهُمَا: هِيَ إِشَارَةٌ إِلَى حُرُوفِ الْهِجَاءِ أَعْلَمَ اللهُ بِهَا الْعَرَبَ حِينَ تَحَدَّاهُمْ بِالْقُرْآنِ أَنَّهُ مُؤْتَلَفٌ مِنْ حُرُوفٍ هِيَ الَّتِي مِنْهَا بِنَاءُ كَلَامِهِمْ، لِيَكُونَ عَجْزُهُمْ عَنْهُ أَبْلَغَ فِي الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ إِذْ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ كَلَامِهِمْ»[2].

قَالَ قُطْرُبٌ: «كَانُوا يَنْفِرُونَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، فَلَمَّا سَمِعُوا: «الم» وَ«المص» اسْتَنْكَرُوا هَذَا اللَّفْظَ، فَلَمَّا أَنْصَتُوا لَهُ ﷺ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِالْقُرْآنِ الْمُؤْتَلَفِ لِيُثَبِّتَهُ فِي أَسْمَاعِهِمْ وَآذَانِهِمْ وَيُقِيمَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ قَوْمٌ: رُوِيَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا أَعْرَضُوا عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ بِمَكَّةَ وَقَالُوا: ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، نَزَلَتْ لِيَسْتَغْرِبُوهَا فَيَفْتَحُونَ لَهَا أَسْمَاعَهُمْ فَيَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ بَعْدَهَا فَتَجِبُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ»[3].

---

(١) القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – ج١ ص١٥٤ – دار الكتب المصرية – القاهرة – ط٢.

(٢) المصدر السابق – ج١ ص١٥٥.

(٣) القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – ج١ ص١٥٥.

وَقَالَ جَمَاعَةٌ: «هِيَ حُرُوفٌ دَالَّةٌ عَلَى أَسْمَاءٍ أُخِذَتْ مِنْهَا وَحُذِفَتْ بَقِيَّتُهَا، كَقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ: الْأَلِفُ مِنَ اللهِ، وَاللَّامُ مِنْ جِبْرِيلَ، وَالْمِيمُ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَقِيلَ: الْأَلِفُ مِفْتَاح اسْمِهِ اللهِ، وَاللَّامُ مِفْتَاح اسْمِهِ لَطِيفٍ، وَالْمِيمُ مِفْتَاح اسْمِهِ مَجِيدٍ. وَرَوَى أَبُو الضُّحَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «الم» قَالَ: أَنَا اللهُ أَعْلَمُ، «الر» أَنَا اللهُ أَرَى، «المص» أَنَا اللهُ أَفْصِلُ. فَالْأَلِفُ تُؤَدِّي عَنْ مَعْنَى أَنَا، وَاللَّامُ تُؤَدِّي عَنِ اسْمِ اللهِ، وَالْمِيمُ تُؤَدِّي عَنْ مَعْنَى أَعْلَمَ. وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ الزَّجَّاجُ وَقَالَ: أَذْهَبُ إِلَى أَنَّ كُلَّ حَرْفٍ مِنْهَا يُؤَدِّي عَنْ مَعْنًى»[1].

وَقَدْ تَكَلَّمَتِ الْعَرَبُ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ نَظْمًا لَهَا وَوَضْعًا بَدَلَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي الْحُرُوفُ مِنْهَا، كَقَوْلِهِ: «فَقُلْتُ لَهَا قِفِي فَقَالَتْ قَافْ» أَرَادَ: قَالَتْ وَقَفْتُ. وَقَالَ زُهَيْرٌ:

بِالْخَيْرِ خَيْرَاتٍ وَإِنْ شَرًّا فَا ... وَلَا أُرِيدُ الشَّرَّ إِلَّا أَنْ تَا

أَرَادَ: وَإِنْ شَرًّا فشر. وأراد: إلا أن تشاء. وَقَالَ آخَرُ:

نَادَوْهُمْ أَلَا الْجِمُوا أَلَا تَا ... قَالُوا جَمِيعًا كُلُّهُمْ أَلَا فَا

أَرَادَ: أَلَا تَرْكَبُونَ، قَالُوا: أَلَا فَارْكَبُوا. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: هِيَ أَسْمَاءٌ لِلسُّوَرِ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: هِيَ أَقْسَامٌ أَقْسَمَ اللهُ تَعَالَى بِهَا لِشَرَفِهَا وَفَضْلِهَا، وَهِيَ مِنْ أَسْمَائِهِ[2].

---

(١) المصدر السابق – ج١ ص١٥٥.

(٢) المصدر السابق – ج١ ص ١٥٥ – ١٥٦.

على هذا النحو تباينت آراؤهم واختلفت نظرتهم للحروف المقطعة مما جعلها تندرج تحت الغريب الذي خفي المقصود منه على السواد الأعظم من الناس، بل قد خفي على العلماء منهم على ما رأيناه إلا أن الدراسة البلاغية التي اعتمدت على تحليل الحروف ودراسة معناها المعجمي، وربط ذلك بالنص القرآني الذي وردت فيه قد استطاعت سبر أغوار الحروف المقطعة وكشفت اللثام عن حقيقة دورها الفعال في بداية السور التي افتتحت بها إنها براعة الاستهلال والعنوان الموصل للغرض من الخطاب في سورة بعينها.

حرف النون:

لم يرد هذا الحرف سوى مرة واحدة في أول سورة القلم وما نون؟ النونة هي الكلمة من الصواب[1] فإذا جمعت صارت (نون) فهي إذن صواب القول وهذا ما ينطبق على كل موضوع في السورة وعلى كل آية مفردةً والسورة القرآنية تتناول ثلاثة موضوعات وما انبنى عليها[2] .

أما الموضوع الأول، فإنها تتحدث عن هذا الكلام الذي أرسله كفار مكة في الرسول ﷺ واصفين إياه بالجنون وما القرآن الكريم بالكلام الذي يوصف مبلغه بهذا الوصف الذي أورده القرآن منفيًا عنه فاستتبع ذلك بإثبات وصف لائق بهٍ ذلك

(١) انظر انظر ابن منظور – لسان العرب – ج١٣ ص٤٢٩.

(٢) انظر د/ محمد بدري عبد الجليل – براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور – ص١٨٠ – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية – ٢٠٠٣.

قوله تعالى: ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٢-٤]، فاستفتحت السورة بالقول الصائب في حق النبي ﷺ أمام ادعاءات الكفار بأنه مجنون أو شاعر أو كاهن.

أما الموضوع الثاني، فقد أخذت الآيات تتحدث عن أصحاب تلك الجنة وتعرض لكلامهم الذي نتج عن عدم تدبر للأمر وعدم تفكير في قول أو عهد أو سلوك لم يتمكنوا من إنفاذه فلقد أقسموا باطلا ﴿ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ [القلم: ١٧]، فكان ما كان لجنتهم فطفقت الآيات تعرض حالة هؤلاء وما كان من اضطراب أمرهم ثم جاءت الكلمة الصواب لتكون أفضل خاتمة لهذه القصة ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ [القلم: ٢٨ - ٣٢]، فنحن أمام قولين: قول لم يكن ليجوز إطلاقه أو إرساله وقول نتج عن ندم وتوبة جاء نهاية لهذه القصة ولم تصرح السورة بعد بما كان من أمرهم وإن روى المفسرون أنهم أبدلوا خيرًا منها وهو عرض سما سموًا بالغًا إذ هو يعرّض بأهل مكة ويلمح لهم بما كان منهم وما ينتظرهم عقابًا إن لم يتوبوا فإن تابوا فالأمر لله ذاك لأن النكات لا تتزاحم إذ كيف يصرح بما تم لهم وهذا ليس من اقتضاء فنية العرض؟ وما ذاك إلا لأن الآيات حديثها عن الكلام[1].

(١) انظر د/ محمد بدري عبد الجليل – براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور – ص١٨١.

أما الموضوع الثالث: فما تصرح به الآيات من قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾[القلم: ٤٨]، وهو أمر للرسول ﷺ بالصبر ونهي عن التسرع أو التعجل الذي كان من صاحب الحوت الذي نادى وكانت تلك النعمة التي تداركته وهي توفيقه للتوبة وإلهامه الدعاء وذكرت الآيات النتيجة المترتبة على قوله الحسن وكلامه الصائب(١).

بهذا الاستدلال يجدر بنا أن نفسر قوله تعالى ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فلا يمكن أن نقول إن التعبير بصاحب الحوت يعدل ذا النون لغة. إن صاحب الحوت ورد في معرض نهي رسول الله ﷺ أن يفعل فعله ومن ثم فإن في التصريح بالحوت إشعارًا بما كان من أمره وما آل إليه ألم تقل الآية: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ – ١٤٤].

وما ورد التعبير عنه بـ «ذا النون» إلا في معرض المن على الأنبياء أيكون فيه التنويه على إساءة بدرت منه؟ أم المن بما أنعم عليه من شرف النبوة؟ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠].

(١) انظر د/ محمد بدري عبد الجليل – براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور – ص١٨٥.

إن ذا النون لم يعبر به عن يونس إلا مصدّرًا للنداء موصوفا به ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. إنه القول الصائب الممتدح به المثنى عليه.

حرف القاف:

ورد حرف القاف في مطلع سورتين إحداهما سورة (ق) وكانت فيها مفردة وبها عرفت والأخرى سورة الشورى والتي مطلعها (حم عسق).

فما معنى قاف؟ – وهي صورة الخط للفظ أو صورة الرسم للأداء – قالت العرب: قاف الأثر عرفه وقفت الأثر اتبعته مثل قفوت أثره، وقال الشاعر:

كذبت عليك لا تزال تقوفني كما قاف آثار الوسيقة قائف

والقائف الذي يتتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه[1].

إنه التعرف على المجهول بالمعلوم والوقوف على الغائب بالمشاهد وتصور المعدوم بالموجود والمستقبل بالحاضر وهي طريقة القرآن التي أشار إليها ابن القيم صدد تفسيره قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨]، أي على رجعه إليه يوم القيامة كما هو قادر على خلقه من ماء هذا شأنه موضحًا بقوله: «إنه المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ على المعاد»[2].

(١) انظر ابن منظور – لسان العرب – ج٩ ص٢٩٣.

(٢) ابن القيم – التبيان في أقسام القرآن – ص١٠٣ – دار المعرفة – بيروت – ط١.

إنه الاطمئنان لما لم يتم بما تم ولما هو متعلق بالجنان بما هو ثابت للعيان معرفة الغائب بما هو محس[1]، إنه العقل وقد قيل لعمرو بن العاص: ما العقل؟ فقال: الإصابة بالظن ومعرفة ما يكون بما قد كان[2]. وما على الإنسان إلا أن يقيس ويتتبع ويقتفي.

وهذا المعنى لكلمة قاف وثيق الصلة بما تضمنته السورتان من آيات تدور كلها حول التعرف على المجهول بالمعلوم والوقوف على الغائب بالمشاهد وهو المفهوم من تقفي الأثر كما سيأتي.

تجد في سورة (ق) حديثًا عن تعجبهم من البعثة وتعجبهم من البعث ذلك قوله تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ [ق: ٢ – ٣]، والله هو الذي خلق سماء رفعت بلا عمد وزينت بكواكب ولا نرى فيها فروجًا إذ خلقت على هذه الصورة والأرض مبسوطة عليها الجبال الثوابت وفيها من كل صنف حسن تبصرة لكل عبد راجع إلى ربه متفكر في بدائع صنعه لا ريب في أن المتتبع لهذه المظاهر يوقن أن القادر على هذا الذي نراه حين يخبر عن مقدرته على شيء آخر غيبي لم نره يكون صادقا قادرا جديرا بالتصديق ومن ثم يكون الحكم بما نعلم على ما لم نعلم[3].

(١) انظر د/ محمد بدري عبد الجليل – براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور – ص١٨٩.

(٢) انظر ابن عبد ربه – العقد الفريد – ج٢ ص١٠٥ – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١.

(٣) انظر د/ محمد بدري عبد الجليل – براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور – ص١٨٧.

وكان هذا تمثيلا على القائف أن يقيس الأشباه بالنظائر؛ فيعرف بما كان ما لم يكن له حصول بعد ويوقن أن البعث كائن وسيكون ساعتها الحساب والعقاب المؤجل وإن أرادوا أن يقفوا على صحة ذلك فلينظروا نظر المتتبع لما كان من العذاب المعجل وليراجعوا أخبار قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وإخوان لوط ثم شرعت الآيات تتحدث عن أخبار الغيب ومن صدق في أخبار الماضي والحاضر فهو الصادق في أخبار المستقبل.

أما الأخرى فهي سورة الشورى التي طبعت بهذا اللون تتحدث عن المستقبل بلفظ الماضي تحقيقا للوقوع فنجد: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٤ – ٤٥]، مستدلة على تحقيق ذلك وتصديقه بما عرضت له من موضوع ماثل أمام الناس في كل زمان ومكان لا يستطيعون فيه تصرفًا ولا عما أريد لهم تحولا وهو موضوع الإنجاب ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ

﴿مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩ – ٥٠]، وهو مظهر من مظاهر القدرة التي على هدي منها يعرف المتتبع قدرة الله فيما لم يتم بعد أمام ناظريه(١).

وعلى هذا النحو يمضي د / محمد بدري عبد الجليل في رسالته فيحاول أن يميط اللثام عن الحروف المقطعة فيربط بين معنى الحرف المعجمي وبين ما تناولته السورة من قضايا فالحروف المقطعة وإن جاءت غريبة على السامع إلا أنه كان لها دور بالغ الأهمية فيما عرف ببراعة الاستهلال إنها البداية التي تحدو بالقارئ إلى أعماق السورة فيسير بعد فهمها على هدى من مراد الله ﷻ والمقام هنا ليس مقام الحروف المقطعة ولكني أحببت إبراز جهود البلاغيين وعنايتهم بغريب القرآن.

وبعد استعراض نماذج من عناية البلاغيين بغريب القرآن فقد كان لهم أيضًا عناية مشابهة بغريب الحديث، لا سيما الزمخشري صاحب الفائق في غريب الحديث الذي عالج هذا الغريب معالجة بلاغية أظهرت أهميته في السياق الذي جاء فيه لذا نعرّج على طرف منه سريعا قبل الشروع في دراسة غريب الحديث من كتابنا (مشكاة المصابيح) الذي هو محور بحثنا.

ألظوا:

قال رسول الله ﷺ: «أَلِظُّوا بِيا ذَا الجلالِ والإِكْرامِ» (ت) عَن أنس (حم ن ك) عَن ربيعَة بن عامر (صحيح)(١).

(١) انظر د/ محمد بدري عبد الجليل – براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور – ص١٨٨.

من الكلمات التي استعملها النبي ﷺ في حديثه وتعد من الغريب كلمة (ألظوا) أي ألحوا فلماذا عدل النبي ﷺ عن (ألح) المعروفة المتداولة إلى (ألظ) الغريبة النادرة؟ لم يفعل النبي ﷺ ذلك إلا لدلالة (ألظ) على المعنى المراد أكثر من غيرها، لذا فقد تعين العدول في هذه الحالة ولننظر إلى كلام ابن منظور على الكلمتين لندرك مدى ملاءمة الكلمة للسياق الذي وردت به سياق التضرع إلى الله في الدعاء والذكر والمداومة عليه.

قال صاحب اللسان: «لَظَّ بِالْمَكَانِ وأَلَظَّ بِه: أَقام بِهِ. وأَلظَّ بِالْكَلِمَةِ: لَزِمها. والإِلْظاظُ: لزُوم الشَّيْءِ والمُثابرةُ عَلَيْهِ. وأَلظَّ فُلَانٌ بِفُلَانٍ إِذا لَزِمه. وَمِنْهُ حَدِيثِ النَّبِيِّ، ﷺ: «أَلِظُّوا فِي الدُّعَاءِ بِيَا ذَا الْجَلَالِ والإِكرام» أَلظوا أَي الْزَمُوا هَذَا واثبتُوا عَلَيْهِ وأَكثِروا مِنْ قَوْلِهِ والتلفُّظ بِهِ فِي دُعَائِكُمْ قَالَ بِشْرٌ:

أَلَظَّ بِهِنَّ يَحْدُوهُنَّ، حَتَّى تبَيَّنتِ الحِيالُ مِنَ الوِساقِ

والمُلاظّةُ فِي الحَرب: المُواظبةُ وَلُزُومُ القِتال. وأَلظَّ المطرُ: دامَ وأَلحَّ»[٢].

فهي الملازمة للمكان والشخص والكلام المتلفظ به والثبات في الحرب ونزول المطر مسترسلا وكل هذه المعاني تناسب حال المتضرع الذي يلزم مكانه ولا يبرحه ويناجي الخالق دون الالتفات لأحد من الناس ويواظب على كلمة بعينها فثباته كثبات المقاتل في الحرب وثبات المطر إذا دام وانهمر.

---

(١) الألباني – صحيح الجامع الصغير وزيادته – ج١ ص٢٦٩ .

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج٧ ص٤٥٩.

قَالَ أَبُو وجزة: «فبلِّغ بَنِي سَعْدِ بن بَكْرٍ مُلِظّة... رسولَ امْرِئٍ بَادِي المودَّة نَاصِح وَعَن بعض بني قيس: فلَان مُلِظٌّ بفلان وَذَلِكَ إِذا رَأَيْته لَا يسكت عَن ذكره»[1]. فهي أيضًا عدم الفتور عن ذكر من تحبه والاستمرار في الحديث عمن تهواه.

أما كلمة (ألح) فلا تستطيع القيام بهذا المعنى يقول صاحب اللسان: «وأَلَحَّ الرَّجُلُ عَلَى غَرِيمِهِ فِي التَّقَاضِي إِذا وَظَبَ»[2] فهي ملازمة للغريم والخصم كالذي يلازمه ليطلب حقًا ثابتا له وهل يُلازم الخصم إلا لذلك؟ فلا يلازم لمحبة بينهما ومن معاني الإلحاح لزوم الرحل لظهر البعير حتى يسيل منه الدم يقول: «والمِلحاحُ مِنَ الرِّحَالِ: الَّذِي يَلْزَق بِظَهْرِ الْبَعِيرِ فَيَعَضُّه ويَعْقِره، وكذلك هو من الأَقْتاب وَالسُّرُوجِ. وَقَدْ أَلَحَّ القَتَبُ عَلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ إِذا عَقَرَهُ؛ قَالَ البَعِيثُ المُجاشِعِيُّ:

أَلَــدُّ إِذا لاقيــتُ قَوْمًــا بخُطَّــةٍ أَلَــحَّ عَلَــى أَكْتــافِهِم قَتَــبٌ عُقَــرْ

قَالَ ابْنُ بَرِّيٍّ: وَصَفَ نَفْسَهُ بالحِذْق فِي الْمُخَاصَمَةِ وأَنه إِذا عَلِقَ بخَصْمٍ لَمْ يَنْفَصِلْ مِنْهُ حَتَّى يُؤَثِّرَ كَمَا يُؤَثِّرُ الْقَتْبُ فِي ظَهْرِ الدَّابَّةِ»[3].

(١) الزمخشري – الفائق في غريب الحديث – ج٣ ص٣١٧.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج٢ ص٥٧٧.

(٣) المصدر السابق – ج٢ ص٥٧٧.

فهي ملازمة يلحقها ضرر ويتبعها أذى فكيف تستخدم لدعاء الإنسان الله ﷻ الذي يحبه وهل يتأذى الله – حاشاه – من تكرار الدعاء والمواظبة عليه فلا يمكن بحال العدول إلى الأشهر المعروف في تلك الحالة لأنه عدول من شأنه الإضرار بالمعنى.

أضف إلى المعنى اللغوي ودقته المعنى المجازي في(ألظ) قال الزمخشري: «ومن المجاز» ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام «أي الزموه يُقَال: ألظّ الْمَطَر بمَكَان كَذَا وأتيتني ملظّتك أَي رِسَالَتك الَّتِي ألححت فِيهَا»[1].

الديوث:

قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةُ: العاقُّ لِوالِدَيْهِ والدَّيُّوثُ ورَجِلَةُ النِّساءِ» (ك هَب) عَن ابْن عمر (صحيح)[2].

قال صاحب اللسان: «دَيَّثَ الأَمرَ: لَيَّنَه، ودَيَّثَ الطريقَ: وَطَّأَه. وطريقٌ مُدَيَّثٌ أَي مُذَلَّل، وَقِيلَ: إِذا سُلِكَ حَتَّى وَضَحَ وَاسْتَبَانَ. ودَيَّثَ البعيرَ: ذَلَّله بَعْضَ الذُّلّ. وجَملٌ مُدَيَّثٌ ومُنوَّقٌ إِذا ذُلِّلَ حَتَّى ذهَبَتْ صُعوبتُه. قَالَ: والدَّيُّوثُ القَوَّاد عَلَى أَهله. وَالَّذِي لَا يَغارُ عَلَى أَهله الَّذِي يدخُل الرجالُ عَلَى حُرْمته، بِحَيْثُ يَرَاهُمْ، كأَنه ليَّنَ نفسَه عَلَى ذَلِكَ»[3]. «و(الديوث) فيعول من ديثت البعير إذا ذللته

(١) الزمخشري – الفائق في غريب الحديث – ج٣ ص٣١٧.

(٢) الألباني – صحيح الجامع الصغير وزيادته – ج١ ص٥٨٧.

(٣) ابن منظور – لسان العرب – ج٢ ص١٤٩.

ولينته بالرياضة فكأن الديوث ذلل حتى رأى المنكر بأهله فلا يغيره»[1].

استعار النبي ﷺ «الديوث» - وهو البعير المذلل - للرجل الذي يقبل الفاحشة في أهله فالبعير يخضع وينقاد لصاحبه دون أنفة والرجل الديوث يذل ويخضع للمنكر ولا يرى داعيًا لإزالته فصور النبي ﷺ هذا الرجل في صورة منكرة تأباها النفوس وتنكرها الطباع السليمة.

الرويبضة:

قال رسول الله ﷺ: «سيأتي على الناس سنوات خداعات يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطق فيها الرويبضة قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة» (حم هـ ك) عن أبي هريرة (صحيح)[2].

قال صاحب اللسان: «هُوَ الْعَاجِزُ الَّذِي رَبَضَ عَنْ معَالي الأُمور وقَعَد عَنْ طَلبها، وَزِيَادَةُ الْهَاءِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي وَصْفِهِ، كَمَا يُقَالُ دَاهِيَةٌ، وَقِيلَ لِلتَّافِهِ مِنَ النَّاسِ رَابِضَةٌ وَرُوَيْبِضَةٌ لِرُبُوضِهِ فِي بَيْتِهِ وَقِلَّةِ انْبِعَاثِهِ فِي الأُمور الْجَسِيمَةِ، قَالَ: وَمِنْهُ يُقَالُ رَجُلٌ رُبُضٌ عَنِ الْحَاجَاتِ والأَسْفار إِذا كَانَ لَا يَنْهَضُ فِيهَا»[3].

---

(١) المناوي - فيض القدير - ج٣ ص٣٢٧.

(٢) الألباني - صحيح الجامع الصغير وزيادته - ج١ ص٦٨١.

(٣) ابن منظور - لسان العرب - ج٧ ص١٥٣.

قال الزمخشري: «ربض الظبي والشاة والكلب، وكل ما لا يبرك على أربع ربوضاً. وفي مثل «كلب عسٍ خير من كلب ربضٍ» وفي الحديث «وأن ينطق الرويبضة» وهو التافه من الرجال القاعد عن المساعي الكريمة. وربض الكبش عن الغنم: ترك ضرابها. وأقامت امرأة عند العنّين ربضتها بالضم أي قدر ما عليها أن تربض عنده وهي سنة»[1].

فالرويبضة هو القاعد عن معالي الأمور وهو الكلب الجالس وهو العنّين واستعاره النبي ﷺ للتافه الذي لا يفقه شيئًا وهو مع ذلك يتصدى للحديث عن مهمات الأمور فيما يخص عامة الناس دون علم أو حكمة أو روية.

كما نلمح البلاغة النبوية في هذا التصغير في لفظ الرويبضة ليزيده تحقيرًا وجهالة بالصياغة الصرفية التي تتضافر مع المعنى المعجمي لهذا اللفظ لتشارك في الإيحاء بهذه الصورة العجيبة[2].

(١) الزمخشري – أساس البلاغة – ج١ ص٣٢٩.

(٢) انظر د / عبد الحميد هنداوي – دراسات أسلوبية – دار الهاني للطباعة والنشر – القاهرة – ٢٠٠٢.

الفصل الثالث

الغريب في دراسة الأسلوبيين

المتأمل لدراسات الأسلوبيين النظرية والتطبيقية يجد أنها قد اعتنت بالكلمة بشكل عام، فهي لا تفرق بين اللفظ الغريب النادر الاستعمال واللفظ الشائع المتداول، بل إن دراستهم عامة لكل لفظ استطاع أن يرتقي بالكلام من المستوى اللغوي التقليدي إلى المستوى الأدبي الرفيع، سواء كانت غريبة أم متداولة لذا فإن حديثنا في هذا الفصل سيكون عن عناية علماء الأسلوب باللفظ بصفة رئيسة باختلاف المستويات التي تناولوها فيه الصوتية، والصرفية، والمعجمية، مع ذكر نماذج من دراساتهم للفظ الغريب حتى لا نحيد بالبحث عن الوجهة التي سار فيها.

إن علماء البلاغة أو قل بعضهم من لدن الجاحظ (ت ٢٥٥) إلى عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١) ومن تابعهم من القرون المتأخرة قد جعلوا الغرابة وقلة الاستعمال أحد العوامل التي عولوا عليها في بيان فصاحة الكلمة وبلاغة الأسلوب من عدمه، بيد أن علماء الأسلوبية قد نظروا إلى اللفظ بصورة أوسع وأعمق، فغضوا الطرف عن شيوعه من عدمه وتأملوه من خلال قدرته على أداء المعنى واضطلاعه على أداء دوره في السياق وخدمة النص الذي ينتمي إليه.

والحق إن هذه كانت نظرة الأدباء في العصر الجاهلي وصدر الاسلام للغريب من خلال ما نلمحه من شعرهم وخطبهم حيث استخدموا اللفظ الغريب دون تكلف في الأغلب الأعم فجعلوه كالملح الذي يصلحون به طعامهم، لا سيما إذا كان هذا الغريب يعبر عما بداخلهم من عواطف.

إن القدماء لم يتعمدوا استعمال الغريب بغرض الإبهام والإغراب بقدر ما أرادوا أن يرتقوا بلغتهم وبثقافة من يسمعونهم أو يقرؤون لهم ولما له - في بعض الأحيان - من قدرة على إصابة كبد المعنى دون غيره من المترادفات الشائعة يقول الجاحظ: «ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب. ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج. ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل»[1]. وعلى هذا النحو كانت عنايتهم بمعرفة الغريب؛ لتسمو لغتهم ولغة من يطلبون نتاجهم الأدبي.

الكلمة بين البلاغة والأسلوبية:

إذا كانت الأسلوبية تحليلًا لغويًا يهتم بالكلمة في المقام الأول، فمما لا شك فيه أن ثمة جهودًا قيمة للقدامى من اللغويين عامة والبلاغيين خاصة في هذا المجال غير أن هذه الجهود القيمة لم تستطع الدراسات المتأخرة بلورتها وصياغتها بصورة واضحة في صياغتها الأخيرة للدرس البلاغي الذي لم يستطع أن يشعرنا بإدراك هؤلاء البلاغيين للقيمة الفنية للألفاظ على جميع مستوياتها اللغوية

(١) الجاحظ - البيان والتبيين - ج٣ ص٣٥٩.

التي أهملتها كتب البلاغة النظرية، أو وقفت عند بعضها وقفة عابرة في مبحث الفصاحة، أو في بعض مباحث علم المعاني[1].

إن البحث الأسلوبي قد أولى اللفظة المفردة عناية خاصة على كل مستوياتها، سواء من ناحية الصوت أو الناحية الصرفية أو الناحية المعجمية، كما أن دراسة الكلمة بهذه المستويات يقع في دائرة اهتمام اللغوي والبلاغي كذلك، بيد أن ما ينشده الناقد والبلاغي يتباين عما يبتغيه اللغويون والنحاة؛ فالبلاغي والناقد يبحث في دائرة الصواب عن أكثر الكلمات أداء للمعنى بين الألفاظ التى تصلح جميعا للتعبير عن المعنى فيما يعرف بالتخير الفني، أما اللغويون والنحاة فتختلف وجهتهم حيث يبحثون في دائرتى الخطأ والصواب.

مصطلح (الاختيار) بين البلاغة والأسلوبية:

لقد طابق الأسلوبيون بين الأسلوب وصاحبه فقالوا: «الأسلوب هو الرجل»[2]. فالأسلوب على هذا ما هو إلا سمات تعبيرية مميزة لصاحبه، فالمبدع يختار ويؤثر من الوسائل التعبيرية التي يختارها من بين أنماط اللغة العديدة ما يصبح سمة مميزة له، وعلمًا دالًا عليه، وبصمة خاصة أو صوتًا ينفرد به لا يختلط بغيره من الأصوات؛ ومن ثم عرفوا الأسلوب بأنه: «طريقة اختيار

(١) انظر د/ عبد الحميد هنداوي – التصوير الفني والتصوير البياني – ص٢٥– ٢٦– دار الهاني القاهرة ٢٠١١.

(٢) د/ عبد الحميد هنداوي – التصوير الفني والتصوير البياني – ص ٢٦.

الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني بقصد الإيضاح والتأثير»[1] أو هو «اختيار واع يسلطه المؤلف على ما توفره اللغة من سعة وطاقات»[2]. ومن ثم فإنه كل اختيار يهدف إلى تحقيق هدف معين والاختيار في الكتابة الفنية يعني اختيار طريقة من طرق التعبير اللغوي بهدف توصيل رسالة معينة إلى المتلقي.

والحق أن الأصول النظرية لهذا الاتجاه الذي نحن بصدده تتجذر في تفرقة (دي سوسير) بين اللغة والكلام[3]، فاللغة عند دي سوسير هي مجموعة النظم والرموز المجردة المختزنة في أذهان أبناء الجماعة اللغوية الواحدة، أما الكلام فهو التحقق الفعلي لتلك النظم والرموز في استعمال (منطوق أو مكتوب) بعينه. أو هو طريقة الصياغة التي تتصرف في تلك العناصر بما تراه أليق بموضوع الكلام[4].

ومن ثم يمكننا أن نفسر عملية الاختيار الأسلوبي على أساس ثنائية دي سوسير الذي حاول أن يفرق بين اللغة والكلام، وذلك باعتبار أن البدائل التي يتم الاختيار بينها هي ما يسمح به نظام اللغة، أما على مستوى الكلام فإن الكلام هو الذي يرجح أو يحتم اختيار أحد هذه البدائل.

---

(١) د/ أحمد الشايب – الأسلوب – ص٣٦ – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – ط٣.

(٢) د/ عبد السلام المسدي – الأسلوبية والأسلوب – ص٧٠ – ٧١ – الدار العربية للكتاب – ليبيا – تونس ١٩٧٧.

(٣) انظر د/ حسن طبل – أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية – كلية دار العلوم – ١٩٩٠ م – ص٣٥.

(٤) انظر تمام حسان – اللغة العربية معناها ومبناها – دار الثقافة – المغرب – ١٩٩٤ م – ص٣٢.

وقد نتج عن تفرقة دي سوسير بين اللغة والكلام التفرقة بين الخطاب العادي والخطاب الأدبي فالأسلوب على هذا النحو مفارقة أو انحراف عن نموذج آخر من القول ينظر إليه على أنه نمط معياري[1] ويراه د/ شفيع السيد بأنه «انحراف عن نموذج من الكلام ينتمي إليه سياقيا هذا النموذج هو نمط معياري تقاس إليه أساليب النصوص التي تتفق معه في السياق»[2] أو هو «انحراف عن النمط وانتهاك له ومخالفة»[3].

ومن المعلوم أن هذا الاختيار لا يمكن أن يتم بعيدا عن مراقبة السياق واصطحاب قرائنه ذلك لأن «السياق هو نقطة البدء، بحيث لا يمكن وجود كيان للتعبير إلا من خلاله، وحينئذ من الواجب رصد السياق، ثم البحث عن اللألفاظ وعلاقاتها فيه ثانيا»[4].

---

(١) انظر د/ سعد مصلوح – الأسلوب دراسة لغوية إحصائية – دار البحوث العلمية – ١٩٨٠ – ص٢٧.

(٢) د/ شفيع السيد – الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي – دار الفكر العربي – ط ١ – ١٩٨٦ – ص٣٨.

(٣) د/ فتح الله سليمان – الاسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية – الدار الفنية للنشر والتوزيع – ص٣٤.

(٤) د/ محمد عبد المطلب – البلاغة والأسلوبية – الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان – ط١ ١٩٩٤ – ص ٣٥٧.

وبالنظر إلى اللغة العادية واللغة الادبية نجد أن الأولى تتصف بالوضوح والمباشرة والتلقائية فلا تصدر عن وعي أو اختيار والغاية منها هي التوصيل ومن ثم فهي محددة المعجم لا تحتاج إلى جهد عقلي أو فكري للوصول إلى مضمونها وتشكل معظم النشاط اللغوي الإنساني ومن ثم فإنها تقدم العناصر العامة في لغة الحياة أما اللغة الأدبية فهي تصدر عن ملكة خاصة عند المبدع وتخاطب الوجدان وتهدف إلى التأثير في المتلقي ومن ثم فهي تصدر عن وعي واختيار للالفاظ والمعاني وقد تحتاج إلى إمعان النظر وإعمال الفكر وهي لغة فردية خاصة تستخدم نفس عناصر اللغة العادية ولكن لتقديم هياكل جديدة وهي بذلك تظهر الطاقات التعبيرية الكامنة في اللغة أي إنها (خلاقة) بتعبير تشومسكي والمعنى فيها ليس مطابقًا لتلك الحصيلة اللغوية العادية وإنما ينفرد بتلك الخصوصية التي تتسم بها اللغة الأدبية[1].

الاختيار عند البلاغيين:

إذا كان نظر الأسلوبيين للأسلوب على أنه اختيار قد أثمر ما يعرف لديهم بالتميز أو التفرد الأسلوبي فإننا نستطيع أن نقرر أن هذا التميز أو التفرد الأسلوبي

(١) انظر د/ محمد العبد – اللغة والإبداع الأدبي – دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع – القاهرة – ط ١ – ١٩٨٩ م ص٢١ + د/ عبد الحكيم راضي – النقد اللغوي في التراث العربي – مجلة فصول عدد تراثنا النقدي ج٢ ع١ ص٨٣ + د / عبده الراجحي – مقالات – إعداد: سمير إسماعيل / محمود عبد الصمد – دار الصحابة للتراث بطنطا – ط١ – ٢٠١١ – ص٧٩.

الذي يميز المستوى الفني من الكلام هو ما عبر عنه البلاغيون القدامى بحسن التخير للفظ، حتى إن بعضهم قد قصر البلاغة على حسن التخير[1].

وهذا ما انتهى إليه كلام عبد القاهر في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وكل ما شاكل ذلك، حيث ينتهي كلامه في هذا المقام إلى أنه «لا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به...»[2]. وتعريف البلاغة بأنها حسن التخير للفظ قد قال به بلاغيون آخرون غير عبد القاهر كذلك حيث عرفوها بأنها «تخير اللفظ في حسن الإفهام»[3].

ومن ثم نتبين من كلام عبد القاهر وغيره من البلاغيين والنقاد أن المستوى الفني أو البلاغي من المعاني التي تدل عليها الألفاظ أساسه الأول هو حسن التخير للكلمة وموافقتها موضعها من الكلام بالتخير بين البدائل المتاحة التي تنأى بالخطاب الأدبي عن اللغة التقليدية إلى اللغة الفنية المتميزة، وهو ما تتلاقى فيه البلاغة مع الأسلوبية.

فعبد القاهر يفرق هنا بين نوعين من المعاني؛ المعنى العادي والمعنى الفني، فالمعنى الأول: هو ما يجبرك على لفظه ولا تجد للتخير سبيلا على حد عبارة

---

(١) انظر د/ عبد الحميد هنداوي – التصوير الفني والتصوير البياني – ص ٣٠.

(٢) عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص٣٨.

(٣) الجاحظ – البيان التبيين – ج١ ص٦٣.

عبد القاهر الجرجاني. ذلك أن من المعاني ما هو سطحي ساذج ومكشوف واضح له لفظ واحد لا يشترك معه غيره في الدلالة عليه، وذلك كما لو أردت أن تعبر عن حضور زيد في الماضي فتقول (حضر زيد).

فمثل هذا ونحوه من المعاني الوظيفية قد لا يستطيع المبدع التعبير عنه إلا بصيغة واحدة لا يحتمل المعنى غيرها، أما المعنى الفني أو البلاغي فمداره على حسن الاختيار للألفاظ، فالمعاني الفنية معان دقيقة اختيرت ألفاظها من بين بدائل عديدة يمكن أن تعبر عن أصل المعنى المراد أو عن المعنى في أبهى صورة، وأحلى حلة، وما يكون أكثر مواءمة وموافقة للمعنى الفني الدقيق الذي يريد أن يعبر عنه أو يبالغ فيه أو يعمقه أو يعرضه في صورة طريفة لم يسبق إليها[1].

وهذا الذي أثبتناه ينطبق عند البلاغيين على الألفاظ في جميع مستوياتها اللغوية سواء المستوى المعجمي أو المستوى الصوتي أو المستوى الصرفي كما سيظهر من النماذج التطبيقية التي اعتنى البحث بعرضها ودراستها.

مصطلح (العدول) بين البلاغة والأسلوبية:

ثمة أساس آخر للتوظيف الفني للكلمة نستطيع أن نلمح وقوف البلاغيين عليه واعتماده لديهم أساسًا للكشف عن القيمة الفنية للكلمة، وهذا الأساس الثاني هو ما أطلق عليه في تراثنا البلاغي مصطلح العدول. فإذا كانت البلاغة ترجع في

(١) انظر د/ عبد الحميد هنداوي – التصوير الفني والتصوير البياني – ص ٣١ + د/ مديحة السايح – المنهج الأسلوبي في النقد الأدبي – دار الثقافة العربية – القاهرة – ط٢ ص٦٠.

سائر تعريفات البلاغيين إلى حسن تخير اللفظ، فإنه مما يجدر بنا التنبيه إليه أن هذا التخير أو الاختيار للفظ يمثل في غالب الأحيان نوعًا من العدول.

فالاختيار في حقيقته إنما هو عدول عن المستوى النمطي أو العادي من اللغة إلى المستوى الفني من الكلام، وقد يمثل تخير اللفظ نوعًا من العدول عن النظام اللغوي أو عن الاستخدام الشائع، أو عدولا داخليًا وهو ما يسميه ريفاتير بالعدول السياقي(١).

أليس العدول عن لفظ شائع قد لاكته الألسن إلى لفظ نادر قليل الاستعمال يدخل في هذا الباب الذي نحن بصدده شريطة أن يؤدي اللفظ الغريب في المعنى ما لم يستطع غيره من الشائع أن يؤديه، إن العدول عن الشائع المتعارف عليه بين الناس – سواء من له عناية بالأدب وغيره – إلى مستوى أرقى من الكلام لا بد أن يحمل في طياته شيئًا من الألفاظ الغريبة التي لا يعرفها سوى أهل هذا الفن ويجهلها من عداهم، فعدولنا عن الشائع والتنقيب عن المستوى الأدبي من الكلام لا يسلم أبدًا من استعمال الغريب، وهو بلا شك محمود إذا قام بدوره في خدمة السياق وانتزاع الأسلوب الأدبي من بين الأساليب الشائعة.

(١) انظر مديحة السايح – المنهج الأسلوبي في النقد الأدبي – دار الثقافة العربية – القاهرة – ط٢ – ٢٠١٣ م ص ٧ – ١٧.

وفي الحقيقة أن النظرة إلى العدول على أنه عدول عن المستوى النمطي إلى المستوى الفني نظرة لا تكاد تفرق بينه وبين الاختيار أما العدول الجدير بإفراده بمصطلح خاص يميزه عن الاختيار – وإن كان يشترك مع الاختيار في كونه انتقاء للفظ وإيثارًا له على غيره – هو العدول عن الأصل اللغوي، وهو ما عرف في التراث اللغوي والبلاغي بالمجاز، والنقل، والانتقال، والتحريف، والانحراف، والصرف، والانصراف، ومخالفة مقتضى الظاهر(١).

وهذه الألفاظ التي عبر بها هؤلاء البلاغيون واللغويون عن العدول والنقل قد عبرت بها الدراسات الحديثة أيضا فنجد عندهم مصطلحات مثل: الانحراف، والانزياح، والاختلال، والانتهاك، والتجاوز، والمخالفة، واللحن، وخرق السنن، والإطاحة، والتحريف...إلخ(٢).

فإذا كان النظر إلى الأسلوب من زاوية المنشِئ قد أثمر مقولة الاختيار، فإن النظر إليه من زاوية النص أو الرسالة قد أثمر مقولة مقولة العدول أو ما أسموه بمصطلحات عديدة أبرزها الانحراف؛ إذ يعتمد تعريف الأسلوب بالنظر إلى النص على أنه نوع من الخطاب الأدبي المغاير للخطاب العادي، وقد يكسر القواعد اللغوية الموضوعة أو يخرج عن النمط المألوف للغة، أو يبتكر صيغًا

(١) انظر المرجع السابق – ص ٧ – ١٧ + د/ عبد الحميد هنداوي – التصوير الفني والتصوير البياني – ص ٣٢.

(٢) انظر د/ عبد الحميد هنداوي – التصوير الفني والتصوير البياني – ص ٣٣.

وأساليب جديدة، أو يستبدل تعبيرات جديدة ليست شائعة بأخرى قديمة، أو يقيم نوعًا من الترابط بين لفظين أو أكثر، أو يقيم نوعًا من الترابط بين لفظين أو أكثر، أو يستخدم لفظا في غير ما وضع له.

العدول في تراثنا البلاغي:

نستطيع أن نقرر أن ما أدلى به البلاغيون في تراثنا البلاغي لم يكن بعيدًا كل البعد عما قررته تلك الدراسات الحديثة؛ حيث نجد جذور الوعي بظاهرة العدول عند كل من أبي عبيدة (ت ٢١٠ هـ)، والفراء (ت ٢٠٧ هـ)، والمبرد (ت ٢٨٥ هـ)، وأبو هلال العسكري (٣٩٥ هـ)، والباقلاني (٤٠٣ هـ)، وغيرهم كثير. أما الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) فقد كان له النصيب الأعظم من الالتفات إلى تلك الأسس التي قام عليها التوظيف البلاغي للكلمة في القرآن الكريم، وتبعه على هذا النهج كافة من جاء بعده من المفسرين، حتى إن بعضهم لا يزيد في كثير من المواضع على أن يحكي عبارة الزمخشري في بيان ما اشتملت عليه الآية من اختيار أو عدول[1].

مستويات الدلالة الفنية للألفاظ بين البلاغة والأسلوبية:

• المستوى المعجمى:

إذا تجاوزنا كتب اللغة المصنفة لرصد الدلالات المعجمية الوضعية لألفاظ اللغة، فإننا نجد بدايات البحث فى ذلك – على ضفاف النص القرآنى – لدى كل

(١) انظر المرجع السابق – ص ٣٧.

من أبى عبيدة (ت ٢١٠ هـ) فى كتابة مجاز القرآن، والفراء (ت ٢٠٧ هـ) والأخفش فى معانى القرآن، والمبرد (ت ٢٨٥ هـ) فى كتابة الكامل، وابن قتيبة فى كتابه تأويل مشكل القرآن، كما نجد الاهتمام الواضح بتحرير الفروق الدقيقة بين الألفاظ لدى أبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) فى كتاب الفروق، كل ذلك فى مواضع تنأى عن الحصر لغلبة الاهتمام بالدلالة المعجمية فى هذه الدراسات. والملاحظ أن الغالب على هذه الدراسات هو بيان المعنى التفسيري للكلمة، ودلالاتها الوضعية التى وضعت لها في اللغة، والتى نادرا ما يتخطاها المفسر إلى دلالاتها ومعانيها المجازية التى وظفت بها فى النص القرآنى[1].

إلا أننا إذا ما تجاوزنا هذه الدراسات اللغوية التي نشأت فى الأصل لخدمة النص القرآنى إلى الدراسات النقدية التى ثارت حول الشعر فى عصور ازدهاره فسوف نجد تحولا كبيرًا فى استنطاق الكلمات ومحاولة استكناه دلالاتها الفنية لدى كل من الآمدي والقاضي الجرجاني وأبي بكر الصولي وغيرهم مما عرفوا بدراساتهم النقدية للنصوص الشعرية.

هذا وقد تجلى البحث البلاغى على المستوى المعجمى فيما عرف عند بعض البلاغيين بباب الفرائد: وهو باب جعلوه مختصا بالفصاحة دون البلاغة لأن مفهومه إتيان المتكلم بلفظة تتنزل من كلامه منزلة الفريدة من حب العقد تدل على

(١) انظر المرجع السابق – ص ٥٩.

عظم فصاحته وقوة عارضته وشدة عربيته، حتى إن هذه اللفظة لو سقطت من الكلام لعزّ على الفصحاء غرامتها[1].

وهو ما يعضد فكرة بحثنا فالكلمة الغريبة قد تحمد في السياق من هذا الوجه وجه المناسبة والملاءمة والانتقال بالكلام من المستوى العادي للكلام إلى المستوى الأدبي من خلال العدول عن الحقيقة إلى المجاز وهو نوع من الغريب لا يمكن إغفاله.

وهى كقول أبي نواس (الكامل):

وكـــأن ســـعدى إذ تودعنـــا وقـد اشـرأب الـدمع أن يكفـا[2]

فلفظة اشرأب من الفرائد التى لا نظير لها فى فصيح اللسان، ولا يقع مثلها إلا على سبيل الندور

وكقوله أيضًا:

حتى إذا مـا غـلا مـاء الشباب لهـا وأفعمت فى تمام الجسم والعصب[3]

فاستعارة الغليان لماء الشباب من الفرائد البديعة.

وكذلك قول أبي تمام:

وقـدما كنـت معسـول الأمـاني ومـأدوم القـوافي بالسـداد[1]

(١) انظر المرجع السابق – ص ٦٢.

(٢) المبرد – الكامل في اللغة والأدب – ج٣ ص١٠٥.

(٣) أبو هلال العسكري – الصناعتين – ج١ ص٢٩١.

فلفظة مأدوم من الفرائد التى لا يقدر على نظيرها، ولا يعثر على شبيهها.

وكقول البحترى فى المعتز بالله:

لابــس حلــة الوفــاء مــن أب هــة الســيف أن يكــون محلــى[٢]

فقوله أبهة من الفرائد الغريبة فى مكانها التى يعجز الفصحاء عن الإتيان بها.

وقد جاء فى الكتاب العزيز من ذلك غرائب يعز حصرها، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الصافات: ١٧٧]، وانظر فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾ [يوسف: ٨٠]، فألفاظ هذه الجملة كلها فرائد معدومة النظائر، وكقوله عزوجل: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ [سبأ: ٢٣]، فانظر إلى لفظة (فُزّع) وغرابة فصاحتها، تعلم أن الفكر لا يكاد يقع على مثلها وكقوله تبارك وتعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]، وهذه الفريدة فى هذه الآية أعجب من كل ما تقدم فأن لفظة (خائنة) سهلة ومستعملة كثيرة الجريان على ألسن الناس لكن على انفرادها فلما أضيفت إلى (الأعين)

---

(١) أبو إسحاق الحصري – زهر الآداب وثمر الألباب – دار الجيل – بيروت – بدون تاريخ – ج٢ ص٣٩٥ + الآمدي – الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري – مكتبة الخانجي – ط١ – ١٩٩٤م – ج٣ ص ٥٨٥ + عبد الكريم النهشلي – الممتع في صناعة الشعر – منشأة المعارف – مصر – ط١ – ص٩٤.

(٢) ابن أبي الإصبع المصري – تحرير التحبير – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – مصر – ط١ – ص٥٧٧.

حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها فى النفوس هذا الموقع العظيم بحيث لا يستطاع الإتيان بمثلها ولا يكاد يقع فى شيء من فصيح الكلام شبهها وأشباه ذلك فى الكتاب العزيز لا يدخل تحت الحصر، وقد ورد فى السنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام مواضع شريفة[1].

وهذا مجرد مثال يوضح لنا مدى وعي البلاغيين بالدلالة الفنية للألفاظ على المستوى المعجمي، ولكن لا يقارن ذلك بما توصلت إليه الأسلوبية والبنيوية من استنطاق للألفاظ واستخراج أقصى دلالاتها وطاقتها اللغوية التى يحملها الشاعر على تلك الألفاظ ويشارك السياق فى إضفاء كثير من الظلال عليها.

اهتمام الدراسات الأسلوبية بالدلالة الفنية للكلمة على جميع المستويات اللغوية:

مهما قيل عن تعدد اتجاهات الأسلوبية ومناهجها فإن القاسم المشترك بينها جميعا أنها تنطلق – بشكل أساسي – من لغة النص الأدبي فى قرائتها له، وهذا ما يتضح من تحديد (رينيه ويلك) لما يحتاجه دارس الأسلوب إذ يلزمه معرفة بقواعد اللغة بكل فروعها من أصوات ومعان ومفردات المعجم وبناء الجمل وهو ما يفضي إلى دراسة المعنى والدلالة[2].

---

(١) انظر د/ عبد الحميد هنداوي – التصوير الفني والتصوير البياني – ص ٦٢.

(٢) د/ سامي عباينة – اتجاهات النقاد العرب في قراءة النص الشعري الحديث – ص١٦٤ – عالم الكتب الحديث – الأردن – ط٢ – ٢٠١٠.

وهذا يدل دلالة واضحة على اتفاق كافة الاتجاهات الأسلوبية على تعظيم دور الكلمة والاهتمام به على جميع مستويات الدرس اللغوى صوتيا وصرفيا ومعجميا ونحويا مع الإشارة إلى أننا قد أخرجنا من دائرة بحثنا ذلك المستوى النحوى لأنه يخرجنا من دائرة دراسة الكلمة إلى دراسة التراكيب.

فالكلمة هي المحك الأول فى التحليل الأسلوبي فهذه الكلمة هى التي تأتي الدراسة الأسلوبية لتجعلها محور بحثها من خلال سياقها الذى وردت فيه ومن حيث إيحاءاتها الكثيرة المتكاثفة التي أفرزتها ومن حيث علاقتها الاستبدالية التي يتحدد مجالها فى التعبير الأدبي بوجه خاص؛ لأن هذا التعبير هو الذى يجعل من اللغة استعمالا إراديًا واعيًا، بل إنه هو الذى يؤكد البنية الجمالية لمستعمل هذه اللغة من حيث يتيح للمبدع أن يضع بالكلمات ما يصفه الرسام بالألوان والموسيقي بالأصوات.

فالتحليل الأسلوبي يعتمد أساسا على الكلمة بل لعلها تكون هى الخيط الذى يمسك به الناقد عند بداية التحليل فعلى سبيل المثال يرى (سبتزر) – الذى يعتمد على الحدس فى تحليله الأسلوبي – أن كلمة أو بيت من الشعر قد يتميز فجأة، فإذا بنا نحس تيارًا من الألفة قد نشأ فى تلك اللحظة بيننا وبين القصيدة[1].

وتبرز عناية الدراسات الأسلوبية الحديثة بالألفاظ من خلال ما أسموه بالتفرد الأسلوبى للمنشئ أو المبدع وذلك أن لكل فرد معجمه اللغوي المتميز

(١) د/ عبد الحميد هنداوي – التصوير الفني والتصوير البياني – ص ٦٢.

فهو يميل إلى استعمال بعض الكلمات دون بعضها الآخر، وهناك كلمات لا يستعملها على الإطلاق ولكل فرد طريقته الخاصة فى بناء الجمل والربط بينها فهو يستعمل بعض الصيغ دون بعضها الآخر أو يستعمل أدوات معينة دون أخرى[1].

ومن ثمَّ يحرص البحث الأسلوبي على الوقوف على السمات الأسلوبية التى تميز مبدعًا عن آخر فى كافة المستويات اللغوية: المعجمية والصوتية والصرفية والنحوية.

حيث تلوح للناقد الأسلوبي إيحاءات البنية الصوتية والصرفية محمولة على الدلالة المعجمية ومتآزرة معها فى خلق الدلالة لبعض الكلمات التى يكررها الشاعر مما يجعلها تشكل ركيزة أساسية فى بنية النص، وهى ما يصفها بالمولدات الإبداعية[2].

وسوف نقف على العديد من الأمثلة التطبيقية من نماذج التحليل الأسلوبي المعاصر التي تكشف عن هذه القيمة الفنية للكلمة في تلك التطبيقات الأسلوبية وقد اقتصرت الأمثلة على الكلمات الغريبة التي هي مضمار بحثنا والتي جاءت بدورها لتدلل على عناية علماء الأسلوبية باللفظ الغريب – بطريق غير مباشر –

(١) د / شكري عياد – مدخل إلى علم الأسلوب – ص٢٨/ ٢٩ – دار العلوم للطباعة والنشر – الرياض – ط١.

(٢) د/ سامي عباينة – اتجاهات النقاد العرب في قراءة النص الشعري الحديث – ص١٨٦.

وأثره في أداء المعنى بصورة أدق عن طريق تضافر المعنى المعجمي وصوتية الكلمة في التعبير عن ذلك.

عناية الأسلوبية بالدلالة الفنية للألفاظ على المستوى الصوتى:

لعل من أهم ما يحسب للأسلوبية الحديثة التفاتها إلى القيمة الفنية للأصوات فى إطار استيعابها لجميع العناصر الدالة وجميع العناصر المدلولة بحثا يتوخى تكاملها النهائي[1] ولقد حظي الشعر فى الدراسات الأسلوبية الحديثة باهتمام كبير من الناحيتين النظرية والتطبيقية من الناحية الصوتية لا سيما من حيث التكرار الصوتي.

وقد اعتمدت الدراسات الأسلوبية الحديثة فى هذا المجال على ما انتهت إليه الدراسات اللغوية السابقة عليها وذلك بطبيعة الحال نتيجة بديهية للصلة أوالعلاقة الوثيقة بين علم الأسلوب وعلم اللغة[2].

وإذا كنا بصدد إسهام الدراسات الحديثة فى هذا المجال فلا يفوتنا تلك الوقفة المتأنية لرتشاردز فى كتابه (مبادئ النقد) عند بحثه عن الدلالة الصوتية حيث يقرر صعوبة الربط بين السمات الصوتية والمدلول الأدبي فهو يقرر أن النشاط الجمالي الصوتي معقد حقا وهو يدخل فى تكوين مسافات مختلفة ولا ينبع

(١) د/ صلاح فضل – علم الأسلوب – ص ١٢٣.

(٢) المرجع السابق – ص١٢٩ / ١٤٦.

من كيفية معينة أو صفة مفردة ولا يمكن إذن إلا أن يكون شيئا غنيا متأصلا ذا جذور تستعصي على التقرير والتحديد[1].

كما يرى رتشاردز أن تأثير اللفظ من حيث هو صوت لا يمكن فصله عن تأثيراته الأخرى التى تتم فى نفس الوقت فجميع هذه التأثيرات ممتزجة بحيث لا يمكن فصل أحدها عن الآخر ويرى أنه لا توجد مقاطع أو حروف متحركة تتصف بطبيعتها بالحزن أو الفرح إذ تختلف الطريقة التى يؤثر بها الصوت فى نفوسنا تبعًا للانفعال الذى يكون موجودًا فعلا فى ذلك الوقت بل إنها تختلف أيضا تبعًا للمدلول وتوقع حدوث الصوت نتيجة للعادة ولروتين الإحساس ليس إلا مجرد جزء من حالة التوقع العامة فهناك عوامل تتدخل فى العملية ولا يحدد الصوت ذاته طريقة تأثيره بقدر ما تحددها الظروف التي يدخل فيها هذا الصوت هذه التوقعات جميعًا مرتبطة بعضها بالبعض الآخر ارتباطا وثيقا والكلمة الناجحة هى التى تستطيع أن تشبع هذه التوقعات جميعا فى نفس الوقت[2].

إلا أنه يجب علينا ألا نعزو إلى الصوت وحده ميزات تتضمن هذا العدد الكبير من العوامل الأخرى ولا يعني قولنا هذا أن نقلل من أهمية الصوت فى شيء فالصوت فى معظم الحالات هو مفتاح التأثيرات[3] والحق أن ما ذكره ريتشاردز يثير

(١) المرجع السابق – ص١٢٩ / ١٤٦.

(٢) المرجع السابق – ص١٢٩ / ١٤٦.

(٣) انظر د/ صلاح فضل – علم الأسلوب – ص ١٢٣.

عددًا من القضايا المهمة فى بحث تلك العلاقة الدقيقة بين الصوت والدلالة تحتاج منا إلى وقفة متأنية لتأملها.

فهو يقرر أولا أن الدلالة الصوتية للفظ تأتي متصاحبة ومتضافرة فى الوقت نفسه مع دلالاته الأخرى المعجمية والصرفية والنحوية..... وهذا ينبغي ألا يمثل أشكالا من جهة عزو تأثير هذا اللفظ إلى إحدى هذه الدلالات دون الأخرى.

فقد يدّعى مدع أن الدلالة الصوتية للفظ ما فى سياق ما هى كذا وكذا فلا يجوز لأحد تكذيبه لكونه يستشعر أن تلك القيمة إنما هى حصيلة الدلالة الصرفية أو المعجمية لتلك الكلمة مثلا؛ لأنه يرد على ذلك المكذب بأنه لا تزاحم بين الدوال فلا مانع أن يكون للمعنى الواحد دوال متعددة فهذا يؤدي إلى تقوية المعنى وتأكيده لأن هذه الدوال إنما تعمل متآزرة متعاضدة.

ويرى صاحبا نظرية الأدب (رينيه ويلك و أوستن وارين) أن كل عمل أدبي فني هو قبل كل شيء سلسلة من الأصوات ينبعث عنه المعنى، ففي العديد من الأعمال الفنية بما فيها الشعر طبعا تلفت طبقة الصوت الانتباه وتؤلف بذلك جزءا لا يتجزأ من التأثير الجمالي[1].

هذا كله يؤكد التفات هؤلاء النقاد جميعا إلى ما للأصوات من دلالة فنية وجمالية لا يمكن تجاهلها عند البحث عن جماليات العمل الأدبي وعن الوسائل

(١) رينيه ويلك وأوستن وارين – نظرية الأدب – ترجمة عادل سلامة – دار المريخ – الرياض – ١٩٩٢ م.

التعبيرية المختلفة المشاركة فى تحقيق تلك الجماليات مع التأكيد على ما قرره ريتشاردز من قبل من عدم الفصل بين الدلالة الصوتية للألفاظ وأنواع الدلالات الأخرى الناتجة من النظر إلى الكلمة فى مستوياتها اللغوية المختلفة من معجم وصرف ونحو ومع التفات النقاد المحدثين إلى قيمة الأصوات وتأثيراتها الجمالية.

يرى د/ عبد الحميد هنداوي «أن دراسة القيمة الجمالية والدلالية للأصوات والصيغ مع قلة العناية بها على المستوى النظري لم تحظ بالطبع بعناية كافية كذلك على المستوى التطبيقي بالدرجة الكافية لدى النقاد العرب وإن وجد بعض الدراسات الحديثة التي وجهت بعض عنايتها إلى هذا الجانب المهم في دراسة القيمة الفنية للألفاظ»[1].

فمن هذه الدراسات دراسة: د/ محمد النويهي عن الشعر الجاهلى فقد عرض فيها لجملة من الألفاظ التي حكم عليها النقاد بالصعوبة وعدم الفصاحة ثم برر فنية تلك الألفاظ بما اشتملت عليه من صعوبة من خلال تأمله لما اشتملت عليه هذه الألفاظ من محاكاة للمعاني وقد كانت تلك التحليلات مصحوبة برده على تلك الشروط الجامدة التي اشترطها البلاغيون فى مقياسهم الذى وضعوه للفصاحة وهو عدم تنافر الحروف قد خانهم التوفيق لأنهم لم ينتبهوا إلى أن

(١) انظر د/ عبد الحميد هنداوي – التصوير الفني والتصوير البياني – ص ٦٨.

المعنى والعاطفة قد يقتضيان هذا التنافر ويجعلانه أمرا لازمًا ويستدل على ذلك ببيت امرئ القيس يصف شعر محبوبته وهم يستشهدون به على قبح التنافر:

غـدائره مستشـزرات إلـى العـلا تضـل العقـاص فى مثنـى ومرسـل

فيقول: لا شك أن فى قوله (مستشزرات) تنافرًا بين الحروف يجعل الكلمة ثقيلة النطق لكن قليلًا من التفكير يهدينا إلى أن هذا التنافر لازم فنيا مؤكدا؛ لأنه ينطبق على الصورة التى يريد الشاعر أن يرسمها لهذه الخصلات الكثيرة الكثيفة الثقيلة التي تتزاحم على رأس محبوبته وترتفع إلى أعلى ويغيب بعض الشعر الكثيف تحتها من مفتول ظل على انتظامه وغير مفتول انطلق هنا وهناك صورة غنية رائعة حاشدة مزدحمة إذا أجدنا تصورها واستمعنا إلى (مستشزرات) أدركنا كيف أنها تقتضى هذا التنافر وبدأنا نستحليه ونتلذذ بتعثر لساننا فى النطق وهو حقا تنافر ولكن ما أقوى انسجامه مع الصورة المرسومة[1].

ونستطيع أن نقول مؤيدين كلام د / النويهى ومفسرين فى الوقت نفسه مطابقته تلك الكلمة لسياقها: إن ما عابه النقاد والبلاغيون على هذه الكلمة ورأوا فيه سببا لعدم فصاحتها هو بعينه ما نستشعر فيه أسباب إيحائها بالمعنى الذى أراد الشاعر التعبير عنه فأجاد.

(١) انظر د/ محمد النويهي – الشعر الجاهلي – ص ٤٤/ ٤٥.

وذلك لأن البلاغيين قد حكموا على هذه الكلمة بعدم الفصاحة لكون حروفها متقاربة ليست متباعدة المخارج[1] ولكون حروفها مع ذلك متنافرة فإن فى توسيط الشين وهو من الحروف المهموسة الرخوة بين التاء وإنها من المهموسة الشديدة وبين الزاي وإنها من الحروف الصفير المهجورة من التنافر ما لا يخفى فلو قيل: (مستشرفات) لزال الثقل.

وإذا تأملنا هذا الذي ذكروه فى أسباب عدم فصاحة تلك الكلمة ثم وازنا بين السمات الصوتية والنطقية لتلك الحروف وبين المعنى الذى تعبر عنه لوجدناها معبرة تمام التعبير عن هذا المعنى وذلك لأن الميم شفوية وكلا من السين والثاء والزاى أسنانية متقاربة المخرج مما يجعل هذه الأحرف معبرة بهذا التقارب فى النطق الذى يتعثر فيه اللسان تعثرا شبيها بتعثر المدرى فى خصلات هذا الشعر الكثيف المتعثكل بين مثنى ومرسل.

كما يتخلل الشين تلك الحرف ليعبر بماله عن استطالة وتفش وانبساط عن استطالة ذلك الشعر وانبساطه وتفشيه وانسداله. كذلك تشارك الراء بما لها من صفة تكرارية فى التعبير عن الكثرة والتزاحم فى تلك الخصلات الشعرية المتكررة ويضاعف المد بالألف بماله من صفات الهوى والعمق والجوفية والامتداد فى مضاعفة الشعور بكثرة هذا الشعر وعمقه وامتداده إلى أغوار بعيدة[2].

---

(١) انظر ابن سنان – سر الفصاحة – ص٦٠.

(٢) انظر د/ محمد النويهي – الشعر الجاهلي – ص ٤٤/ ٤٥.

ويلفت د/ النويهي إلى أن كلمة (مستشزرات) ليست هي الكلمة المتنافرة الوحيدة فى بيتي امرئ القيس ومن ثم يتعرض إلى البيت السابق على هذا البيت وهو قوله:

وفَـرعٍ يـزينُ المـتنَ أسـودَ فـاحمٍ أثيــثٍ كقنــوِ النخلــةِ المُتعكثــلِ

فهذه الكلمة الأخيرة التى تبدو غريبة نافرة لمسامعنا تنسجم بحروفها وترتيب مقاطعها مع الصورة الكثيفة المتداخلة التي يريد الشاعر أن يرسمها لهذا الشعر الغزير بالتجعيدات المتدلي على ظهرها ويستشهد بقول تأبط شرا:

قليــل ادخــار الــزاد إلا تعلــة فقد نشز الشرسوف والتصق المعا

يقول: لم لجأ تأبط شرا إلى هذا التنافر فى قوله: «نشزالشرسوف»؟ ألأنه بدوي متوحش عديم الفصاحة؟ بل لأنه يصف نفسه – وهو من الشعراء الصعاليك – بالجوع وقلة الطعام حتى أصابة الهزال فبرزت رؤس ضلوعة من صدره شاخصة للعيان أفكان يستطيع أن يؤدي صورته هذه أداء حيًا بغير هذا التنافر؟[1].

واستشهد الدكتور النويهي بقول الأعشى فى وصف محبوبته وضخامة أوراكها وامتلاء ذراعيها بالشحم فى تفسير هذه الظاهرة بقول الأعشى:

هركولــة فنــق درم مرافقهــا كـأن أخمصــها بالشــوك منتعــل

(١) انظر المرجع السابق – ص ٤٤/ ٤٥.

يقول: «إن الشاعر يتعمد تعمدًا أن يأتي بألفاظ ضخمة ليصور الصورة الضخمة التى يريد حملها إلينا»[1].

وهذا الذى قرره د/ النويهي قد أيده فيه كثير من الباحثين بعده وزادوا عليه بأمثلة كثيرة وقفوا فيها أمام الأدلة الصوتية لتلك الألفاظ التى حكم البلاغيون والنقاد القدامى عليها بعدم الفصاحة.

فمن ذلك على سبيل المثال كلمة (ضيزى) فهى ولا شك ليس لها من انسيابية النطق وجمال الوقع على الأذن ما للكلمة المرادفة لها (جائرة) لكننا نزعم أنها فى موقعها من قول الله تعالى فى سورة النجم يخاطب المشركين: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١ -٢٢]، دالة أبلغ دلالة على المراد وهو فساد القسمة، وحيفها بشكل يولد فى النفس – عند نطق الكلمة – إحساسا بثقلها وبغضها، والنفور منها، وهى دلالة لا تتفجر من كلمات مماثلة في المعنى.

إن الناظر فى مناسبة تلك الكلمة لدلالتها لا يحتاج أكثر من أن يتأمل طريقة نطقه بها وأن ينظر إلى هيئة الفم حال النطق بها حيث نلاحظ أن النطق بحرف الضاد مصحوبًا بحركة ياء المد يجعل الفم منفتحا بدرجة كبيرة سببها أن مخرج الضاد من حافة اللسان مما يلى الأضراس فإذا جاءت الضاد مصحوبة بالمد بالياء فإن ذلك يؤدي إلى انفتاح الفم انفتاحا أفقيًا إلى هذه الدرجة التى هى أشبه بهيئة

(١) المرجع السابق – ص ٤٩.

المشمئز من الشيء ويزداد الاقتراب فى الشبه بهذه الهيئة حينما ينتقل الفم فجأة من نطق الضاد ذات الكسرة الطويلة إلى نطق الزاى ذات الفتحة الطويلة (المد بالألف) مما يؤدى إلى انتقال الفم من الانفتاح الأفقي العرضي إلى الانفتاح الرأسي الطولي؛ ليوحي بهذه الطريقة الإشارية المتولدة من نطق هذه الكلمة بدلالة النفور والاشمئزاز من تلك القسمة الجائرة التي تبعث على الاشمئزاز والأنفة من تلك العقول الفاسدة التى سوغت أن يكون الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا بينما هم لا يرضون بالإناث لأنفسهم فيتخلصون منهم بالقتل أو الوأد(١).

ويكمننا أن نقف كذلك عند الدلالة الصوتية لكلمة (اثّاقلتم) من قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[التوبة: ٣٨].

فالناطق لتلك الكلمة يستشعر صعوبة واضحة فى نطقها وليست خفيفة الوقع كذلك على الأذن وذلك على خلاف ما نراه فى كلمة بديلة وهى «تثاقلتم» بيد أن الأولى بتشكيلها الصوتى أقوى فى تصوير المراد والإيحاء به إذ ترسم صورة مجسمة للتباطؤ الشديد وتثير فى خيال قارئها وسامعها صورة ذلك الجسم المثاقل يرفعه الرافعون فى جهد فيسقط من أيديهم فى ثقل.

(١) انظر د/ عبد الحميد هنداوي – التصوير الفني والتصوير البياني – ص ٧٠ / ٧١.

وحينما نوازن بين السمات الصوتية لهذه الكلمة وبين سياقها نجد أنها قد جاءت معبرة تمام التعبير عن الفكرة التي سيقت لأجلها حيث نلاحظ أن الثاء قد جاء مكررا وهو حرف يخرج مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا فهو قريب المخرج وتكراره بالتشديد يصور هيئة المتثاقل المتباطئ فهو لا يبرح مكانه يتردد فيه كما أن النطق لايزال يتردد فى مخرج الثاء يكرره ولا يبرحه ثم يأتى المد ليصور لك أن المتثاقل لا يتحرك ولا يمتد إلا فى مكانه فهو مد خاص بهذا الحرف القريب المخرج (الثاء) الذي لا يكاد النطق يبرحه تارة بتشديده وتكريره وتارة بمدهٱ ثم ها هو المد يبلغ أقصاه حيث مخرج القاف أقصى اللسان وهنا يظن الظان أن المتثاقل قد تحرك شيئا وجاوز مكانه فإذا به يرتد تارة أخرى إلى مكانه الذى قد قام منه وهو منطقة طرف اللسان حيث الثاء واللام والتاءٱ بل إنه يتساقط ويتأخر عن مكان ابتدائه حيث يرتد إلى مخرج الميم عند الشفتين ولا شك أن المرء حينما ينطق بهذه الكلمة لا يكاد يصل إلى نطق تلك الميم الساكنة وخاصة مع إيجاد هذا المقطع الأخير (تم) حتى يستشعر أن شيئا قد سقط على الأرض فجأة محدثا هذا الصوت[1].

فكأن النطق بهذه الكلمة يصور هيئة المتثاقل المتساقط وهو يتردد فى قيامه ويتمادى فى تباطئه وذلك فى نطق الثاء المشددة ثم لا يلبث أن ينهض حتى يتساقط مرتدا إلى مكان قيامه أو متجاوزا عنه إلى الخلف قليلا فهو لا يكاد يقوم حتى

(١) انظر د/ عبد الحميد هنداوي – التصوير الفني والتصوير البياني – ص ٧٢.

يسقط وهنا نستشعر أن الكلمة بسماتها الصوتية موحية ومعبرة عن معنى التثاقل والتباطؤ بدرجة فنية عالية لا تستطيع أن توحى بها دلالتها المعجمية وحدها.

على أن في الآية كلمة أخرى لا تقل دلالتها الصوتية عن دلالة تلك الكلمة فى التعبير عن ذلك التثاقل والخلود إلى الأرض والركون إلى الدعة والراحة ألا وهي كلمة (الأرض) وذلك أنك إذا تأملت وقوفك على الضاد الساكنة بما لها من صفة الاستطالة والانبساط لاستشعرت فيها ما يوحى به نطق الضاد من استطالة الركود والانبساط فيه واسترخاء هولاء المتثاقلين وتمددهم فى التصاقهم بالأرض.

إنها دلالة تساعد على إبراز الدلالة الرمزية للأرض كرمز للسكون والخلود إلى القعود والكسل تجد فيها قدرا من الثقل الفصيح؛ لأنه يصف تقاعسهم وتثاقلهم، وخلودهم إلى الأرض، واستشعارهم مشقة الجهاد، وعزوف أرواحهم عنه، وقد دعوا إليه في عام العسرة، فكان منهم ما وصفت الآية، ولذلك جاء التهديد البالغ ليواجه تخاذل أرواحهم، فقال سبحانه: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾[التوبة: ٣٩].

والملاحظ أن تلك الدراسات الحديثة قد تركزت فى أغلبها على ما يمكن أن نسميه بلغة الأسلوبية بالاختيار الأسلوبي وهو فى دراستها تلك تنطلق من مقولات البلاغيين السابقين من خلال استثمارها أحيانا أو انتقادها فى أغلب الأحيان. فمن الملاحظ أن هذه الدراسات الحديثة – وإن انتقدت العديد من وجوه التنظير البلاغى فى هذا المجال – عند متأخرى البلاغيين – فإنها لا يمكنها بحال

من الأحوال أن تتنكر للبلاغة القديمة وألا تفيد منها حتى بالنسبة لتلك الدراسات التى تمخضت للدرس الأسلوبي الحديث؛ وذلك لأن ثمة صلة وثيقة – سبق تأكيدها عليها – بين كل من البلاغة والأسلوبية[1].

ومن ثم فإننا نقول: إن البحث البلاغي لابد أن يتسع لدينا ليشمل جميع المستويات اللغوية للكلمة والكلام على المستوى الصوتي والمعجمي والصرفي والنحوي هذا مع التأكيد التام على استحالة فصل الكلمة عن تركيبها وسياقها وأنها لا حكم عليها بجمال أو قبح خارج ذلك السياق ومن ثم لابد أن نضع فى اعتبارنا الوظيفة النحوية للكلمة كذلك عند تحليلها بل لابد من تحديد موقعها من سياق الكلام كله باعتبارها وحدة من وحدات نسيجه الكلي وهذا الأمر موضع اتفاق بين كل من البلاغة والأسلوبية.

(١) د/ عبد الحميد هنداوي – التصوير الفني والتصوير البياني – ص ٧٣.

الباب الثاني

البلاغة في غريب الحديث النبوي

مدخل:

لقد اهتم علماء البلاغة بقضية ملاءمة الكلمة لسياقها التي وردت فيها، يتجلى ذلك في قول الخطابي: «ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلمة وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة»(١).

ومع اهتمام عبد القاهر الجرجاني بالنظم فإن هناك نصوصا من كلامه تدل على عدم إغفاله لدور اللفظ في السياق، ومدى أهمية الاختيار الدقيق لهذه الألفاظ حيث يقول: «ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه، وأتم له، وأحرى أن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية»(٢).

ومن هنا يتضح أن بلاغة الكلام مرتبطة في جانب منها بمدى تمكن صاحبها من أدوات اللغة ومدى إحاطته بالفروق الدقيقة بين ألفاظها، ومدى قدرته على استثمار هذه الفروق وتوظيفها لخدمة المعنى.

ويوضح ابن الأثير أن من يسلك هذا الدرب يحتاج إلى ثلاثة: الأول منها: اختيار الألفاظ المفردة، وحكم ذلك حكم اللآلئ المبددة فإنها تتخير وتنتقى قبل

(١) أبو سليمان الخطابي – بيان إعجاز القرآن – ص ٢٩.

(٢) عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص ٤٣.

النظم، والثاني: نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها؛ لئلا يجيء الكلام قلقا نافرًا عن مواضعه، وحكم ذلك في حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها، والثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه[1].

ومن الملاحظ أن الكلمة لا تكتسب المزية عند البلاغيين إلا إذا كانت هناك كلمة أخرى صالحة لأداء وظيفتها العامة من جهة وقاصرة عن أن تؤديه في سياقها الخاص من جهة أخرى.

ومن ثم نستطيع القول بأن مناسبة لفظ دون غيره مرهون بالسياق الذي جاء فيه، ولا يعطي هذا مزية للفظ نفسه، فالتركيب غير البارع في سياق من السياقات قد يكون له تأثير فعال في سياق آخر.

ومعيار الغرابة في الكلمات التي اخترتها مادة لبحثي هو قلة دوران الكلمات على الألسن مع الأخذ في الاعتبار الفارق الزمني بيننا وبين الزمن الذي قيلت فيه تلك النصوص النبوية الشريفة فهي ليست نادرة الاستعمال في زماننا فحسب بل نادرة أيضًا في زمانهم والذي أعول عليه في نسبتها إلى الغرابة وقلة الاستعمال في زمانهم أيضًا هو قلة استخدامها من قِبل النبي ﷺ فهي كلمات لم تذكر كل واحدة منها في كل دواوين الحديث سوى مرة أو مرتين وأضيف إلى هذا الشرط أن تكون الكلمة قد وردت في كتب غريب الحديث أو في أحدها فهي بذا – ولا شك – تعد من الغريب بشهادة الراسخين في هذا المجال فنكون قد نأينا ببحثنا عن دائرة الأهواء إلى التأصيل العلمي.

---

(١) انظر ابن الأثير – المثل السائر – ج١ ص ١٦٣.

الفصل الأول
البلاغة في الغريب المعجمي

وهو ما احتاج في معرفة معناه إلى معاجم اللغة لقلة دورانه على الألسن وندرة استعماله، فإننا نرى النبي ﷺ قد استخدم هذا اللفظ الغريب لدلالته على معنى من المعاني لا يستطيع غيره من الألفاظ القيام به، وفي هذا الفصل سنركز على مظاهر الدقة في الاختيار من بين البدائل المعجمية المتاحة، ولماذا عدل النبي ﷺ عن لفظ لآخر؟ فهناك بعض الألفاظ التي تشترك مع غيرها في أصل المعنى أو الدلالة المعجمية العامة، ومع وجود هذا الاشتراك فإن كل لفظ يحتفظ لنفسه بدلالات خاصة لا نجدها في غيره، ومن هنا كانت الخصوصية في أداء المعنى.

يقول الخطابي: «ذلك أن فى الكلام ألفاظًا متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، كالعلم والمعرفة والحمد والشكر والبخل والشح وكالنعت والصفة وكقولك: اقعد واجلس وبَلَى ونعم وذلك وذاك ومن وعن ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف والصفات والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك لأن كل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان في بعضها»[1].

(١) أبو سليمان الخطابي – إعجاز القرآن – ص٢٩.

١- تَقحّم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا مثلي وَمثل النَّاس كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حوله جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّار يقعن فِيهَا وَجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فِيهَا فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تقحّمون فِيهَا». هَذِهِ رِوَايَةُ الْبُخَارِيِّ وَلِمُسْلِمٍ نَحْوَهَا وَقَالَ فِي آخرهَا: «فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ: هَلُمَّ عَنِ النَّارِ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ فَتَغْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)(١).

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (تقحمون) قال صاحب اللسان: «(القُحَمُ) الأُمور العِظام الَّتِي لَا يَركبها كُلُّ أَحد. وَلِلْخُصُومَةِ قُحَم أَي أَنها تَقْحَمُ بِصَاحِبِهَا عَلَى مَا لَا يُرِيدُهُ. والقُحَم المَهالك، وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ يَصِفُ الإِبل وَشِدَّةَ مَا تَلْقَى مِنَ السَّيْرِ حَتَّى تُجْهِض أَولادها:

يُطَــرِّحْنَ بــالأَوْلادِ أَو يَلْتَزِمْنهــا عَلَــى قُحَــمٍ بــينَ الفَــلا والمَناهِــل

وَهي كُلُّ شَاقٍّ صَعْب مِنَ الأُمور المُعضِلة وَالْحُرُوبِ وَالدُّيُونِ فَهِيَ قُحَم وأَنشد رؤْبة: «مِنْ قُحَمِ الدَّيْنِ وزُهْدِ الأَرْفاد» قَالَ: «قُحَمُ الدَّيْنِ كَثْرَتُهُ ومَشقَّته»(٢).

قَالَ سَاعِدَةُ بْنُ جُؤَيَّةَ: «والشَّيْبُ داءٌ نَحِيسٌ، لَا دواءَ لَهُ... للمَرءِ كَانَ صَحيحًا صائِبَ القُحَمِ أي إِذَا تقَحَّمَ فِي أَمر لَمْ يَطِش وَلَمْ يُخْطِئ، وَقَالَ ابْنُ الأَعرابي فِي

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح ج١ ص٥٣ حديث رقم ١٤٩.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج١٢ ص٤٦٣ + الزمخشري – أساس البلاغة – ج٢ ص٥٤.

قَوْلِهِ: قومٌ إِذَا حارَبوا، فِي حَرْبِهم قُحَمُ، قَالَ: إِقْدَامٌ وجُرأَة»[1].

فهي الدخول في الأمر بلا ترو ولا ارعواء، والكلمة جعلها العرب وصفا لكل ما صعب من الأمور، فوصفوا بها الطريق الوعر والأمور العظام والخصومة والديون، واستخدمها النبي ﷺ خير استخدام حيث جعلها نعتا لمخالفة هديه وعصيان أمره حيث صور النبي ﷺ المخالفين لأوامره بالفراش الذي يلقي بنفسه في النار ولا يدري عاقبة فعله.

«واقْتَحَم الْمَنْزِلَ: هَجَمه، قَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

أَوْ مُقْحَم أَضْعفَ الإِبْطانَ حادِجُه،... بالأَمْسِ، فاسْتَأْخَرَ العِدْلان والقتَبُ

شبَّه بِهِ جَناحَي الظَّلِيم، والقُحْمة: الانْقِحام فِي السَّيْرِ قَالَ ابن الأعرابي:

لمَّا رأَيتُ العامَ عَامًا أَسْحَما،... كَلَّفْتُ نفْسي وصِحابي قُحَما»[2].

قال الطيبي: «(فيتقحمن فيها) التقحم الإقدام والوقوع في الأمور الشاقة من غير تثبت»[3]. «وقحّم الفرس راكبه تقحيماً: رمى به على وجهه. وتقحمت به الناقة: ندّت فلم يضبطها. وأنشد ابن الأعرابي:

أقــول والناقــة بــي تقحّــم وأنــا منهــا مكلئــزٌّ معصــم

ويحك ما اسم أمّها يا علكم

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج١٢ ص٤٦٣.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج١٢ ص٤٦٣.

(٣) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٢ ص٦١٤.

ومن المجاز: قحم نفسه في الأمور: دخل فيها بغير رويّة، وتقحّم فيها واقتحم. وفلان مقدام مقحام، ليس معه إحجام»[1].

لفظ الكلمة جاء معبرا عما استخدمت من أجله، فجاءت القاف بما فيها من صفة التفخيم لتدلل على عظم الأمر الذي خاض فيه، والقاف بشدتها وجهرها وهو انحباس الصوت والهواء عند النطق بها، ثم الاندفاع بعد ذلك الذي نجم عن الحاء المشددة الرخوة المهموسة الذي يجري بها الصوت والهواء عند النطق يجسد الاندفاع الذي دل عليه معنى الكلمة.

٢- أمتهوكون

عَنْ جَابِرٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ أَتَاهُ عُمَرُ فَقَالَ: إِنَّا نَسْمَعُ أَحَادِيثَ مِنْ يَهُودَ تُعْجِبُنَا أَفْتَرَى أَنْ نَكْتُبَ بَعْضَهَا؟ فَقَالَ: «أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُمْ كَمَا تَهَوَّكَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً وَلَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي». رَوَاهُ أَحْمد وَالْبَيْهَقِيّ فِي كتاب شعب الايمان. (حسن)[2].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (متهوكون) قال صاحب اللسان: «الأَهْوَكُ الأَحمق، وَرَجُلٌ هَوَّاك ومُتَهَوِّك: مُتَحَيِّرٌ؛ أَنْشَدَ ثَعْلَبٌ:

إِذَا تُـرِكَ الكَعْبـيُّ والقَـوْلَ سـادِراً تَهَـوَّكَ حَتَّـى مَـا يَكـادُ يَرِيـعُ

(١) الزمخشري - أساس البلاغة - ج٢ ص٥٤.

(٢) التبريزي - مشكاة المصابيح - ج١ ص٦٣ حديث رقم ١٧٧.

والتَّهَوُّكُ: السُّقوط فِي هُوَّة الرَّدى. قَالَ النَّبِيُّ، ﷺ: «أَمُتَهَوِّكونَ أَنْتُمْ؟» قَالَ أَبُو عُبَيْدَةُ: مَعْنَاهُ أمُتَحَيِّرونَ أَنْتُمْ فِي الإِسلام حَتَّى تَأْخُذُوهُ مِنَ الْيَهُودِ؟ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أمُتَرَدِّدُونَ سَاقِطُونَ؟ وَإِنَّهُ لمُتَهَوِّكٌ لِمَا هُوَ فِيهِ أَيْ يَرْكَبُ الذُّنُوبَ وَالْخَطَايَا. الْجَوْهَرِيُّ: التَّهَوُّكُ مِثْلُ التَّهَوُّر، وَهُوَ الْوُقُوعُ فِي الشَّيْءِ بِقِلَّةِ مُبالاة وَغَيْرِ رَوِيَّةٍ. والتَّهَوُّك: التحيُّر. والمُتَهَوِّك: الَّذِي يَقَعُ فِي كُلِّ أَمر»[1].

فالتهوك هو التحير والتخبط والدخول في الأمر بغير تثبت ولا روية ومنشأه ضعف العقل والحمق، فلما ساوى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين الوحي المنزل على رسول الله ﷺ وبين صحف التوراة التي اعتراها التحريف وأصابها التصحيف غضب النبي ﷺ من كون عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يميز بين الصحيح المهيمن على ما عداه من الكتب السماوية وبين المنسوخ المحرف فنعته بالتهوك والتهور والتحير بشأن أمر لا يقبل الجدال ولا يحتمل الشك.

قال الزمخشري: «المتهوّك الَّذِي يَقع فِي كل أَمر وَأنْشد الْكسَائي:

رآنِــي امْــرَأً لَا هــذرة مُتَهَوِّكــًا وَلَا وَاهِنــًا شَــرَّاب مَــاء الْمَظَــالِم

وَقيل: التهوّك والتَّهفّك: الِاضْطِرَاب فِي القَوْل وَأَن يكون على غير استقامة الضَّمِير فِي بهَا للحنيفية»[2].

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج١٠ ص٥٠٨ + الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٢ ص٦٤٥.

(٢) الزمخشري – الفائق في غريب الحديث ج٤ ص١١٦.

٣- تزفزفين

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: دَخَلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ فَقَالَ: «مَالك تُزَفْزِفِينَ؟». قَالَتِ: الْحُمَّى لَا بَارَكَ اللهُ فِيهَا فَقَالَ: «لَا تَسُبِّي الْحُمَّى فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ» رَوَاهُ مُسلم(١).

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (تزفزفين) دخل النبي ﷺ على أم السائب رضي الله عنها فوجدها ترتعد من الحمى فقال لها (ما لك تزفزفين) قال صاحب اللسان: «الزَّفيفُ: سُرْعةُ الْمَشْيِ مَعَ تَقَارُبِ خَطْو، وَقِيلَ: هُوَ أَوّل عَدْو النَّعَام، وزَفَّ القومُ فِي مَشْيِهِمْ: أَسْرَعوا. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات: ٩٤]، أَي يُسرعُونَ، وأَصله مِنْ زَفِيف النَّعامةِ وَهُوَ ابْتِدَاءُ عَدْوِها، والنَّعامةُ يُقَالُ لَهَا زَفُوفٌ؛ قَالَ ابْنُ حِلِّزَةَ:

بِزَفُـــوفٍ كَأَنهـــا هِقْلَـــةٌ أُمُّ رِئـــالٍ، دَوِّيَّـــةٌ سَـــقْفاء

وزَفَّت الريحُ زَفِيفًا وزَفْزَفَتْ: هَبَّتْ هُبُوبًا لَيِّنًا وَدَامَتْ، وَقِيلَ: زَفْزَفَتُها شِدَّةُ هُبوبها. والزَّفْزَفَةُ: تَحْرِيكُ الرِّيحِ يَبيسَ الْحَشِيشِ؛ وأَنشد العجاج:

تســمع للحلــي إذا مــا وسوســا والــتج في أجيادهــا وأجرســا

زفزفة الريح الحصاد اليبسا»(٢)

«وَقِيلَ: الزَّفْزَفَةُ مِنْ سَيْرِ الإِبل فَوْقَ الخَبَبِ قَالَ امْرُؤُ القَيس:

---

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح ج١ ص٤٨٧ حديث رقم١٥٤٣.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج٩ ص١٣٦ + الزمخشري – أساس البلاغة – ج١ ص١٣٣.

لَمَّـــا رَكِبنـــا رَفَعْنـــاهُنَّ زَفْزَفَـــةً حَتَّـى احْتَوَيْنـا سَـواماً ثَـمَّ أَرْبابُـهْ

وزَفَّ الطَّائِرُ فِي طَيَرَانِهِ يَزِفُّ زَفّاً وزَفِيفاً وزَفزف: ترامَى بِنَفْسِهِ، وَقِيلَ: هُوَ بَسْطُه جناحَيه؛ وأَنشد: «زَفِيفَ الذُّنابى بِالْعَجَاجِ القواصِفِ»[1]

من كلام ابن منظور يظهر أن العرب استعملوا اللفظة للحركة السريعة الخفيفة، كحركة النعام وهو يحرك جناحيه، وحركة الإبل، وحركة الحشائش التي هيجتها الرياح، بل قد جاءت في التنزيل في سير قوم إبراهيم إليه بعدما كسر أصنامهم، وجاءت في الحديث تعبر عن رعدة المريض الذي أصابته الحمى.

قال الطيبي: «(ترفرفين) زفزف الطائر بجناحيه إذا بسطهما عند السقوط علي شيء يحوم عليه ليقع فوقه. والمعنى: مالك ترتعدين؟ ويروى بالزاي من الزفزفة وهي الارتعاد من البرد»[2].

شبه حركتها وهي ترتعد من أثر الحمى بحركة جناحي الطائر السريعة المتحفزة للطيران، فجاءت هذه الاستعارة معبرة عما أصابها من الرعدة الشديدة مع تتابع النفس السريع الذي يصدر صوتا خفيفا يشبه صوت حركة الجناحين عند التهيؤ للطيران، فدلت كلمة تزفرفين على حركة المريض وصوت أنفاسه المتسارع.

---

(١) ابن منظور – لسان العرب ج٩ ص١٣٦.

(٢) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٤ ص١٣٤١.

استخدام الفعل المضعف زفزف المتكون من تكرار مقطع «زف» بما للحرفين من صفة الرخاوة وهي جريان الصوت وما للفاء من صفة الهمس التي هي أيضا نوع آخر من الجريان وهو جريان النفس كل هذا أدى إلى مساعدة صوتية الكلمة على الدلالة على المعنى بشكل تصويري فما يعانيه المحموم من رعشة الأطراف وتتابع أنفاسه مع ما يصدر عن ذلك من صوت خفيف، هو أشبه ما يكون بصوتية الكلمة التي تشعر من حروفها بالأعراض التي يعانيها هذا المحموم.

فاستخدام الفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار بالإضافة إلى اسخدام صيغة صرفية مناسبة مع ما لحروف الكلمة من خصائص صوتية كل ذلك ساعد في أداء المعنى وتقريب الصورة إلى ذهن السامع.

٤- اسلل – سخيمة

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو يَقُولُ: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ ربِّ اجعَلني لكَ شَاكِرًا لَكَ ذَاكِرًا لَكَ رَاهِبًا لَكَ مِطْوَاعًا لَكَ مُخْبِتًا إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي وَاغْسِلْ حَوْبَتِي وَأَجِبْ دَعْوَتِي وَثَبِّتْ حُجَّتِي وَسَدِّدْ لِسَانِي وَاهْدِ قَلْبِي وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي». رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَأَبُو دَاوُد وَابْن مَاجَه[1].

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح ج٢ ص٧٦٦ حديث رقم ٢٤٨٨.

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (اسلل) قال صاحب اللسان: «السَّلُّ: انتزاعُ الشَّيْءِ وإِخراجُه فِي رِفْق، سَلَّه يَسُلُّه سَلًّا. والسَّلُّ: سَلُّك الشعرَ مِنَ الْعَجِينِ وَنَحْوِهِ. والانْسِلالُ: المُضِيُّ وَالْخُرُوجُ مِنْ مَضِيق أَو زِحامٍ. وسَيْف سَلِيلٌ: مَسْلُول. قال حِمَاس بْنُ قَيْسِ بْنِ خَالِدٍ الْكِنَانِيُّ:

هَـــذَا سِـــلاحٌ كامِـــلٌ وأَلَّـــهْ وَذُو غِـــرَارَيْنِ سَـــرِيعُ السَّـــلَّهْ

وانْسَلَّ وتَسَلَّلَ: انْطَلَق في استخفاء»[1]

«وانْسَلَّ مِنْ بَيْنِهِمْ أَي خَرَجَ، وَفِي الْمَثَلِ: رَمَتْني بِدائها وانْسَلَّتْ، وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ: «فانْسَلَلْتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ» أَي مَضَيْتُ وَخَرَجْتُ بتَأَنٍّ وَتَدْرِيجٍ، وَفِي حَدِيثِ حَسَّان: لأَسُلَّنَّك مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعَرة مِنَ الْعَجِينِ، وَفِي حَدِيثِ الدُّعَاءِ: اللَّهُمَّ اسْلُل سَخِيمةَ قَلْبِي، وانْسَلَّ فُلَانٌ مِنْ بَيْنِ الْقَوْمِ يَعْدو إِذا خَرَجَ فِي خُفْية يَعْدُو»[2].

وهي تدل على خروج الشيء بسهولة ويسر وهو متحتم إذا كان النزع من قلب إنسان، فهي بلا ريب أفضل من مثيلاتها (الإخراج) و(النزع) لأنها استخراج برفق وانتزاع بلين.

وصوتية الكلمة كان لها دور في الدلالة على معناها فالفعل (سل) بما اشتمل عليه من حروف السين التي تخرج من طرف اللسان مع رخاوتها التي ينتج عنها جريان الصوت وهمسها الذي ينتج عنه جريان النفس دل على تلك السهولة في

(١) ابن منظور – لسان العرب ج١١ ص٣٣٩.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج١١ ص٣٣٩.

الخروج واللام المضعفة التي تخرج هي أيضا من طرف اللسان ومن صفات اللام كما هو معلوم أنها من الحروف الزلقة التي تخرج من الفم بأقل مجهود كل ذلك لعب دوره في إبراز معنى الخروج السهل.

٥- سخيمة

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (سخيمة قلبي) قال صاحب اللسان: «السَّخَمُ: مَصْدَرُ السَّخِيمَةِ، والسَّخِيمةُ الحِقْدُ والضَّغِينةُ والمَوْجِدةُ فِي النَّفْسِ؛ وَفِي الْحَدِيثِ: «سَخِيمَةَ قَلْبِي» وَمِنْهُ حَدِيثُ الأَحْنَفِ: «تَهادَوْا تَذْهَبِ الإِحَنُ والسَّخائِمُ» أَي الحُقُودُ، وَهِيَ جَمْعُ سَخِيمةٍ. وَرَجُلٌ مُسَخَّم: ذُو سَخِيمَة، وَقَدْ سَخَّمَ بِصَدْرِهِ. والسُّخْمَةُ: الْغَضَبُ، وَقَدْ تَسَخَّمَ عَلَيْهِ. والسُّخْمَةُ: السَّوَادُ. والأَسْخَمُ: الأَسود. وَقَدْ سَخَّمْتُ بِصَدْرِ فُلَانٍ إِذا أَغضبته وَسَلَلْتُ سَخِيمَتَهُ بِالْقَوْلِ اللَّطِيفِ والتَّرَضِّي. والسُّخامُ، بِالضَّمِّ: سَوَادُ القِدْر. وَقَدْ سَخَّمَ وجهَه أَي سَوَّدَهُ. والسُّخامُ: الفَحْمُ»[1].

قال الطيبي: «وإضافتها إلي الصدر؛ لأن مبدأها القوة الغضبية المنبعثة من القلب الذي هو في الصدر، وسلها إخراجها، وتنقية الصدر منها»[2].

فأصل الكلمة من سخام القدر وهو السواد الذي يصيب القدر من أثر وضعه على النار، فقد استعار النبي ﷺ سواد القدر لما بالقلب من ضغائن وكدورات

(١) ابن منظور – لسان العرب ج١٢ ص٢٨٣ + الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٦ ص١٩٢٦.

(٢) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٦ ص١٩٢٦.

وأحقاد (ليس في قلبه حاشاه بل هو يعلم الناس ما أوحاه إليه ربه من الدعاء) فأخرج المعنوي في صورة حسية توضح وتبرز معناه، ووجه نيابة السخام عن الحقد والضغينة هو أنه لا يظهر فجأة على القدر بل يظهر خفيفا ثم يشتد يوما فيوما كذلك الحقد في قلوب البشر ينمو مع تعاقب المواقف الداعية إليه وكلاهما عارض يمكن إزالته فيعود للقدر لمعانه ويعود القلب هادئا مطمئنا.

٦- علات

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى بن مَرْيَمَ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ الْأَنْبِيَاءُ أُخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ وَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِي» مُتَّفق عَلَيْهِ[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (علات) والعَلَّة: الضَّرَّة. وبَنُو العَلَّاتِ: بَنُو رَجل وَاحِدٍ مِنْ أُمهات شَتَّى، سُمِّيَت بِذَلِكَ لأَن الَّذِي تَزَوَّجها عَلَى أُولى قَدْ كَانَتْ قَبْلَهَا ثُمَّ عَلَّ مِنْ هَذِهِ؛ قَالَ ابْنُ بَرِّيٍّ: وإِنما سُمِّيت عَلَّة لأَنها تُعَلُّ بَعْدَ صَاحِبَتِهَا، مِنَ العَلَل قَالَ:

عَلَيْها ابْنُ عَلَّاتٍ، إِذا اجْتَشَّ مَنْزِلًا... طَوَتْه نُجومُ اللَّيل، وَهِيَ بَلاقِع

إِنَّما عَنى بِابْنِ عَلَّاتٍ أَن أُمَّهاته لَسْنَ بقَرائب، وَيُقَالُ: هُمَا أَخَوانِ مِنْ عَلَّةٍ. وَهُوَ أَخي مِنْ عَلَّةٍ، وَهُمَا أَخَوانِ مِنْ ضَرَّتَيْن، وَلَمْ يَقُولُوا مِنْ ضَرَّةٍ[1].

(١) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٣ ص١٥٩٤ حديث رقم ٥٧٢٢.

وَقَالَ ابْنُ شُمَيْلٍ: «هُمْ بَنُو عَلَّةٍ وأَولاد عَلَّة وأَنشد:

وهُــمْ لمُقِــلِّ المــالِ أَولادُ عَلَّــةٍ وإِن كَانَ مَحْضـًا فِي العُمومةِ مُخْوِلا

والْحَدِيثِ: (الأَنبياء أَولاد عَلَّاتٍ) مَعْنَاهُ أَنهم لأُمَّهات مُخْتَلِفَةٍ ودِينُهم وَاحِدٌ، أَراد أَن إِيمانهم وَاحِدٌ وَشَرَائِعَهُمْ مُخْتَلِفَةٌ. وأَبناء عَلَّاتٍ يُسْتَعْمَلُ فِي الْجَمَاعَةِ الْمُخْتَلِفِينَ؛ قَالَ عَبْدُ الْمَسِيحِ:

والنَّاسُ أَبناء عَلَّاتٍ، فَمَنْ عَلِمُوا أَنْ قَــدْ أَقَــلَّ، فَمَجْفُــوٌّ ومَحْقُــور

وهُــمْ بَنُــو أُمٍّ مَــنْ أَمْسى لَــهُ نَشَــبٌ فَــذاك بالغَيْــبِ مَحْفُــوظٌ ومَنْصــور

وَقَالَ آخَرُ:

أَفِي الــــوَلائِم أَوْلاداً لِواحِـــدة، وَفِي المـــآتِم أَولاداً لِعَـــلَّات؟»[2].

استعار النبي ﷺ تعدد الشرب والشارب الواحد لتعدد الأمهات والأب الواحد، فالأنبياء كلهم من أب واحد هو نوح وبعده إبراهيم ودعوتهم واحدة، ولكن أمهاتهم مختلفة وأزمانهم التي بعثوا فيها مختلفة وشرائعهم متباينة مع ارتباطهم بأصل واحد هو ما يدعون إليه، وكلمة علات أدت المعنى خير أداة فالشرب سبب للحياة وبقاء النفس، وكذلك الأنبياء وما أتوا به سبب لحياة

(١) انظر ابن منظور – لسان العرب ج١١ ص ٤٧٠ + ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث – ج٣ ص٢٩١ + ابن الجوزي – غريب الحديث – ج٢ ص١٢٣.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج١١ ص٤٧٠.

القلوب ولو قال (ضرائر) المشتقة من الضرر لتنافى مع رسالة الأنبياء السامية التي تدعو لقيم الخير والحق والجمال.

والمعنى أن حاصل أمر النبوة والغاية القصوى من البعثة التي بعثوا جميعًا لأجلها دعوة الخلق إلى معرفة الحق، وإرشادهم إلى ما به ينتظم معاشهم ويحسن معادهم، فهم متفقون في هذا الأصل، وإن اختلفوا في تفاريع الشرع التي هي كالوصلة المؤدية والأوعية الحافظة له، فعبر عما هو الأصل المشترك بين الكل بالأب ونسبهم إليه، وعبر عما يختلفون فيه من الأحكام والشرائع المتفاوتة بالصورة المتقاربة في الغرض بالأمهات، وهو معنى قوله: (أمهاتهم شتى ودينهم واحد) وأنهم وإن تباينت أعصارهم وتباعدت أيامهم فالأصل الذي هو السبب في إخراجهم وإبرازهم - كلا في عصره - أمر واحد وهو الدين الحق الذي فطر الناس مستعدين لقبوله ممكنين من الوقوف عليه والتمسك به، فعلى هذا المراد بالأمهات الأزمنة التي اشتملت عليهم وانكشفت عنهم[1].

٧- تشميت

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ وَإِجَابَةُ الدعْوَة وتشميت الْعَاطِسِ» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)[2].

---

(١) انظر الطيبي - شرح مشكاة المصابيح ج١١ ص٣٦٢٠ + المناوي - فيض القدير ج٣ ص٤٧.

(٢) التبريزي - مشكاة المصابيح - ج١ ص٤٨٣ حديث رقم ١٥٢٤.

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (تشميت) قال صاحب اللسان: «الشَّماتة: فَرَحُ الْعَدُوِّ، وَالْفِعْلُ مِنْهُمَا شَمِتَ بِهِ، بِالْكَسْرِ، يَشْمَتُ شَماتةً، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ:

﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. وَفِي حَدِيثِ الدعاءِ: «أَعوذُ بِكَ مِنْ شَماتة الأَعداءِ» شَماتةُ الأَعداء فَرَح العَدُوِّ ببليَّةٍ تَنْزِلُ بِمَن يُعَادِيهِ وشَمَّتَه اللهُ: خَيَّبه.

وأَنشد للشَّنْفَرى:

وباضِعةٍ، حُمْرِ القِسِيِّ، بَعَثْتُها، وَمَنْ يَغْزُ يَغْنَمْ مَرَّةً ويُشَمَّتِ»[1]

وتشميت العاطسِ: الدُّعاءُ لَهُ. شَمَّتَ العاطِسَ؛ وسَمَّتَ عَلَيْهِ دَعا لَهُ أَن لَا يَكُونَ فِي حَالٍ يُشْمَتُ بِهِ فِيهَا؛ وَالسِّينُ لُغَةٌ، وَكُلُّ داعٍ لأَحدٍ بِخَيْرٍ، فَهُوَ مُشَمِّت لَهُ، ومُسَمِّتٌ، بِالشِّينِ وَالسِّينِ، والشينُ أَعلى وأَفْشَى فِي كَلَامِهِمْ. وَفِي حَدِيثِ زَوَاجِ فَاطِمَةَ لِعَلِيٍّ، رضي الله عنهما: فأَتاهما، فَدَعَا لَهُمَا، وشَمَّتَ عَلَيْهِمَا، ثُمَّ خَرجَ. وَهُوَ مِنَ الشَّوامِتِ الْقَوَائِمِ، كأَنه دُعاءٌ لِلْعَاطِسِ بِالثَّبَاتِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ؛ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَبْعَدَك اللهُ عَنِ الشَّماتةِ، وجَنَّبك مَا يُشْمَتُ بِهِ عَلَيْكَ[2] .

فهو دعاء للعاطس أن يكون بمنأى عن شماتة الأعداء وفرحهم ببلية تنزل به، إذا كان في حالة توحي بالمرض أو اضطراب الهيئة سمى الدعاء تشميتا لأنه إذا

(١) ابن منظور – لسان العرب ج٢ ص٥٢.

(٢) انظر ابن منظور – لسان العرب ج٢ ص٥٢ + المناوي – فيض القدير شرح الجامع الصغير ج٤ ص١٦٣.

استجيب للمدعو له فقد زال عنه الذي يشمت به عدوه لأجله. ونلاحظ ما لكلمة التشميت من صوتية ملائمة لما استخدمت له من الدعاء لمن أصابه العطاس فالشين بما تشتمل عليه من صفات جاءت لتضع أذنك وعقلك في هذه اللحظة التي تسمع فيها صوت العطاس حيث الهمس الذي هو عبارة عن جريان النفس عند النطق بالحرف لضعف المخرج، تماما مثل ما يحدث مع شخص أصابه العطاس، كذلك فإن من صفات الشين الرخاوة التي هي جريان الصوت وهو بدوره جاء أيضا ليشعرك بصوت العطاس، وصفة التفشي التي ينفرد بها حرف الشين وهو انتشار الهواء عند خروج صوت الحرف من الفم كل ذلك ساعد في أداء المعنى بصورة صوتية معبرة جاءت لتتضافر مع المقصود اللغوي ليكون المعنى جليا لمن يسمعها.

٨- سقب

عَنْ أَبِي رَافِعٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْجَارُ أَحَقُّ بِسَقَبِهِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيّ[١].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (سقب) قال صاحب اللسان: «والسَّقَبُ: القرْبُ. وَقَدْ سَقِبَتِ الدَّارُ، بِالْكَسْرِ، سُقُوبًا أَي قَرُبَتْ، وأَسْقَبَتْ؛ وأَسْقَبْتُها أَنا: قرَّبتها، وأَبْياتُهم مُتساقِبة أَي مُتدانِية، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: (الجارُ أَحقُّ بِسَقَبِه) السَّقَبُ، بِالسِّينِ: القُرْب. يُقَالُ: سَقِبَتِ الدارُ وأَسْقَبَتْ إِذا قَرُبَتْ»[٢].

---

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح ج٢ ص٨٩٣ حديث رقم ٢٩٦٣.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج١ ص٤٦٩.

قال ابن الأثير: «ويَحتجُّ بِهَذَا الْحَدِيثِ مَنْ أَوْجَب الشُّفعَة للجَارِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُقَاسِمًا: أَيْ أنَّ الجَارَ أحقُّ بالشُّفعة مِنَ الَّذِي لَيْسَ بجَارْ، وَمَنْ لَم يُثْبِتْها لِلْجَارِ تأوَّل الجارَ عَلَى الشَّريك، فَإِنَّ الشَّرِيكَ يُسَّمى جَارًا. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يكونَ أرادَ أَنَّهُ أَحَقُّ بالبِرِّ والمَعُونَة بِسَبَبِ قُرْبه مِنْ جَاره، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ (أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إنَّ لِي جَارَين فَإِلَى أيِّهما أُهْدى؟ قَالَ: إِلَى أقْرَبهما مِنْكَ بَابًا)»[1].

هل القريب هنا هو الشريك؟ أم الجار الذي له حق الشفعة؟ أم الجار الذي له حق الجوار من البر والصلة؟ جاءت السقب غريبة مبهمة لتحتمل كل معاني القرب وجميع صور الجوار، ومن ثمّ جاءت دالة على عدة معاني يحتملها السياق بل يحتاج إليها لا سيما إذا كان الحديث في معرض بيان حقوق الجار والقريب، ولو عدل إلى غيرها لدلت على معنى واحد دون سائر المعاني.

قال أبو الفتح: «(السَّقَبُ) الْقُرْبُ وَالصَّادُ لُغَةٌ وَمَعْنَى الْحَدِيثِ «الْجَارُ أَحَقُّ بِسَقَبِهِ» أَيْ أَنَّ الْجَارَ أَحَقُّ بِالشُّفْعَةِ إِذَا كَانَ جَارًا مُلَاصِقًا وَالْبَاءُ مِنْ صِلَةِ أَحَقُّ لَا لِلتَّسْبِيبِ (وَأُرِيدَ) بِالسَّقَبِ السَّاقِبُ عَلَى مَعْنَى ذُو السَّقَبِ أَوْ تَسْمِيَةٌ بِالْمَصْدَرِ أَوْ وَصْفٌ بِهِ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ دَارِي سَقَبٌ مِنْ دَارِهِ أَيْ قَرِيبَةٌ وَيُرْوَى فِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ «أَنَّهُ عليه السلام لَمَّا قَالَ ذَلِكَ قِيلَ وَمَا سَقَبُهُ قَالَ شُفْعَتُهُ» وَهَذَا يَشْهَدُ لِصِحَّةِ مَا ذَكَرْنَا»[2].

---

(١) ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث والأثر – ج٢ ص٣٧٧.

(٢) أبو الفتح الخوارزمي المطرزي – المغرب – ص٢٢٨.

إلا أن الطيبي يرى أن الحديث قد روي عن الصحابي في قصة صار البيان مقترنـًا به؛ ولهذا أورده علماء النقل في كتب الأحكام في باب الشفعة، وأولهم وأفضلهم البخاري ذكره بقصته عن عمرو بن الشريد إلي آخره. فالواجب علي الناظر أن لا يسلك طريق التعصب، ويأخذ المنهج القويم، ثم النظر إلي نفس التركيب من غير اعتبار أمر خارجي يوجب التأويل، فالسقب حقيقة هو القرب، وإذا ذهب إلي المجاز فالبر والإحسان أقرب لوجود العلاقة المعتبرة، والقرينة الصارفة إليهما من نفس التركيب، ومثله ما روي عن عائشة ﵂: قلت: يا رسول الله! إن لي جارين فإلي أيهما أهدي؟ قال: (إلي أقربهما منك بابـًا)، وإذا ذهب إلي الشفعة كانت العلاقة بعيدة، والقرينة خفية فيصير بمنزلة التعمية والإلغاز، فيفتقر إلي الاستفسار [1].

فالطيبي يريد قصر المعنى على البر والصلة والإحسان إلى الجار ولكن إذا صح حديث في كونها تشتمل أيضا على معنى الشفعة فلا شيء يقدم على الحديث من اجتهادات أحد، كائنا من كان.

(١) انظر الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج٧- ص٢١٩٩ وفي النسخة أبو سليمان والصواب أبو الفتح لأنه هو صاحب كتاب المغرب.

٩- يجرجر

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الَّذِي يَشْرَبُ فِي آنِيَةِ الْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ فِي آنِية الْفضة وَالذَّهَب» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)(١).

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (يجرجر) و(جَرْجَرَ) ضَجَّ وَصَاحَ. وفَحْلٌ جُراجِرٌ: كَثِيرُ الجَرْجَرَة، وَهُوَ بَعِيرٌ جَرْجارٌ. وَفِي الْحَدِيثِ: «إنما يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ» أَي يَحْدُرُ فِيهِ، فَجَعَلَ الشُّرْبَ والجَرْعَ جَرْجَرَةً، وَهُوَ صَوْتُ وُقُوعِ الْمَاءِ فِي الْجَوْفِ، والجَرْجَرَةُ: صَوْتُ الْبَعِيرِ عِنْدَ الضَّجَرِ وَلَكِنَّهُ جَعَلَ صَوْتَ جَرْعِ الإنسان لِلْمَاءِ فِي هَذِهِ الأَواني الْمَخْصُوصَةِ لِوُقُوعِ النَّهْيِ عَنْهَا وَاسْتِحْقَاقِ الْعِقَابِ عَلَى اسْتِعْمَالِهَا، كَجَرْجَرَةِ نَارِ جَهَنَّمَ فِي بَطْنِهِ مِنْ طَرِيقِ الْمَجَازِ، وجَرْجَرَ فُلَانٌ الْمَاءَ إِذا جَرَعَهُ جَرْعـًا مُتَوَاتِرًا لَهُ صَوْتٌ، فَالْمَعْنَى: كأَنما يَجْرَع نَارَ جَهَنَّمَ(٢). وقال القاسم بن سلام: «أصل الجرجرة: الصوتُ وَمِنْه قيل للبعير إِذا صوَّت: هُوَ يجرجر قَالَ الْأَغْلَب الْعجلِيّ يصف فحلًا يهدر - وَيُقَال: إِنَّه لدكين:

وَهْــوَ إِذا جَرْجَــرَ بعــد الهَــبِّ جَرْجَــرَ فِــي حَنْجَــرةٍ كالحــبِّ»(٣)

(١) التبريزي - مشكاة المصابيح ج٣ ص١٢٣١ حديث رقم ٤٢٧١.

(٢) انظر ابن منظور - لسان العرب ج٤ ص١٣١ + الطيبي - شرح مشكاة المصابيح ج٩ ص٢٨٧٨ + المناوي - فيض القدير - ج٢ ص٣٨٢.

(٣) القاسم بن سلام - غريب الحديث - ج١ ص٢٥٣.

فالجرجرة تطلق على شيئين؛ صوت البعير عند الضجر، وصوت شرب الماء، فاختارها النبي ﷺ لما لها من دلالة تتناسب مع السياق سياق الحديث عن الذي يشرب في إناء الذهب والفضة وهو عالم بالتحريم، فصوره النبي ﷺ وهو يشرب صورة منفرة تأباها النفوس، فجعل صوته وهو يشرب كصوت البعير حال ضجره وجعل صوت شرب الإنسان الماء في هذه الآنية لكون استعمالها محرما موجبا لاستحقاق العقاب كجرجرة نار جهنم في بطنه.

استخدم النبي ﷺ الفعل المضارع «يجرجر» بما يعطيه من معنى الاستمرار والتجدد، كما يوحي باستحضار الصورة في ذهن السامع، وقد ساعدت صوتية الكلمة التي تتكون من الفعل المضعف «جرجر» على أداء المعنى فشدة الجيم التي تعني انحباس الصوت ثم النطق بالراء التي تتوسط بين الشدة والرخاوة ثم العودة للجيم فالراء مرة أخرى تشعرك بحركة المياه المنحدرة إلى المعدة من الفم وكأنه السقوط من مرتفع الذي يتبعه الحركة في مكان فسيح، حتى من جهل معنى الجرجرة فسيسمع المعنى المتدفق إلى أذنه من خلال خصائص الكلمة الصوتية.

١٠- يتجلجل

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الْخُيَلَاءِ خُسِفَ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلى يومِ الْقِيَامَة» رَوَاهُ البُخَارِيّ[1].

(١) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٩ ص٢٨٩٢ حديث رقم ٤٣١٣.

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (يتجلجل). و(التَّجَلْجُل) السُّؤُوخ فِي الأَرض أَو الْحَرَكَةُ والجوَلان. وتَجَلْجَل فِي الأَرض أَي سَاخَ فِيهَا وَدَخَلَ وَفِي الْحَدِيثِ: (أَن قَارُونَ خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ يَتَبَخْتَرُ فِي حُلَّة لَهُ فأَمر اللهُ الأَرض فأَخذته فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: (بَيْنَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الخُيَلاء خُسِفَ بِهِ فَهُوَ يتَجَلْجل إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) قَالَ ابْنُ شُمَيْلٍ: يَتَجَلْجَلُ يَتَحَرَّكُ فِيهَا أَي يَغُوصُ فِي الأَرض حِينَ يُخسف بِهِ. والجَلْجَلَة: الْحَرَكَةُ مَعَ الصَّوْتِ أَي يَسُوخ فِيهَا حِينَ يُخْسف بِهِ. وَقَدْ تَجَلْجَل الريحُ تَجَلْجُلًا، والجَلْجَلَة: شِدَّةُ الصَّوْتِ وحِدَّته، وَقَدْ جَلْجَلَهُ؛ قال:

يَجُــرُّ ويَسْــتأْبي نَشَاصــًا كأَنــه بغَيْفَة لَمّا جَلْجَلَ الصوتَ جَالِبُ[1]

نلحظ أن الكلمة جاءت لكل حركة أو سقوط تبعه أو صحبه صوت كحركة السحاب وهطول المطر وحركة المنزل إذا ضعفت أركانه والسؤوخ في الأرض فالجلجلة حركة يصحبها صوت، فهي حركة عنيفة وسقوط مروع يصحبه صوت لشدة وقعه، لذا فقد عدل النبي ﷺ عن مثيلاتها (هوى – سقط – وقع – نزل) لأنها دلت على ما لا يدل عليه غيرها من الألفاظ فهو ليس مجرد حركة أو هبوط، وإنما هو سقوط مدوٍ.

(١) انظر ابن منظور – لسان العرب ج١١ ص١٢١ + المناوي – فيض القدير ج٣ ص٤٣٨ + الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج١٠ ص٣٠٧٠.

قال إبراهيم الحربي: «(فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ) يُقَالُ: عَلَّقَ الضَّبُّ جُلْجُلَهُ فِي جُحْرِهِ وَهُوَ اضْطِرَابُهُ قال الْأَصْمَعِيِّ: الْجَلْجَلَةُ فِي تَجَلْجَلَ وَهُوَ الذَّهَابُ بِالشَّيْءِ وَالْمَجِيءُ بِهِ. جَلْجَلَتْهُ الرِّيحُ: ذَهَبَتْ بِهِ وَجَاءَتْ وَأَنْشَدَنَا:

(بِسَاهِكَاتٍ دُقَّقٍ وَجَلْجَالْ) قَالَ أَبُو نُخَيْلَةَ:

كَيْفَ تَرَى حِجْرًا أُبِيحَ بَاطِلُهْ جُلْجُلُهُ مُهَاجِرٌ وَنَائِلُهْ

يَعْنِي: رَجُلَيْنِ هَدَمَاهُ. وَهُوَ حِصْنٌ مِنْ حُصُونِ الْيَمَامَةِ. أَيْ: أَخْرَبَاهُ»[1].

صوتية الكلمة جاءت بدورها معبرة عن المعنى، فالانتقال من حرف الجيم الشديد المجهور إلى اللام المتوسطة بين الشدة والرخاوة المجهورة أيضا، ثم تكرار هذا المقطع يشعرك بالحركة النابعة من تكرارك لنفس المقطع، والصوت الشديد الناشئ من توالي الحروف المجهورة كل ذلك أدى بدوره إلى التعبير عن المعنى عن طريق الصوت. كما أدى استخدام الفعل المضعف دوره خير أداء فـ (جلجل) كغيره من الأفعال المضعفة يستطيع بما له من خصائص على إشعارك بالحركة، كما أدى استخدام الفعل المضارع بما يدل عليه من التجدد والاستمرار على استحضار الصورة في ذهن السامع.

١١- الفذ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلَاة الْفَذ بِسبع وَعشْرين دَرَجَة» (مُتَّفق عَلَيْهِ)[1].

(١) إبراهيم الحربي – غريب الحديث ج١ ص١٢٥.

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (الفذ) قال صاحب اللسان: «الفَذُّ الفَرْد، وَالْجَمْعُ أَفذاذ وفُذوذ. وأَفَذَّت الشَّاةُ إِفْذاذاً، وَهِيَ مُفِذٌّ: وَلَدَتْ وَلَدًا وَاحِدًا، وَلَا يُقَالُ لِلنَّاقَةِ مُفِذٌّ لأَنها لَا تُنْتِجُ إِلا وَاحِدًا. وَفِي الْحَدِيثِ: «هَذِهِ الْآيَةُ الفَاذَّة» أَي الْمُنْفَرِدَةُ فِي مَعْنَاهَا. والفذُّ: الْوَاحِدُ، وَقَدْ فَذَّ الرَّجُلُ عَنْ أَصحابه إِذا شذَّ عَنْهُمْ وَبَقِيَ فَرْدًا. وَكَلِمَةٌ فَذَّةٌ وَفَاذَّةٍ: شَاذَّةٌ»(٢).

اختار النبي ﷺ كلمة الفذ للإشارة لمن تخلف عن صلاة الجماعة مع الناس فصلاها وحده، والفرق بين الفذ والفرد أن الفذ هو الذي اختار أن يكون فردا باعتزال الناس ومفارقة مجلسهم وترك جماعتهم، أما الفرد فهو وصف لشخص لم يتعمد مفارقة جمع الناس قال تعالى على لسان زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، فهو وصف ملازم لزكريا عليه السلام لم يطلبه ولم يختره هو لذا جاءت الكلمة معبرة عن المعنى وأجدر بالسياق يؤيد ذلك قول النبي ﷺ في الحديث الآخر: «ألا من سره بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد»(٣) فالنبي ﷺ آثر الفذ على الفرد لأن الفذ هو الذي آثر العزلة وفضل الانفراد أما الفرد فلم يختر ذلك ولم يطلبه وإن كان مشتركا في نفس النعت.

---

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج١ ص٣٣٢ حديث رقم ١٠٥٢.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج٣ ص٥٠٢ + الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٤ ص١١٢٥.

(٣) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج١٢ ص٣٨٤٤ حديث رقم ٦٠١٢.

١٢- لا زبر له – الشنظير

عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ متصدِّقٌ موفق وَرجل رَحِيم رَفِيق الْقلب لكلَّ ذِي قربى وَمُسْلِمٍ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ. وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ الَّذِينَ هم فِيكُمْ تَبَعٌ لَا يَبْغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ وَذَكَرَ الْبُخْلَ أَوِ الْكَذِبَ وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ» رَوَاهُ مُسلم(١).

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (لا زبر له) و(الزَّبْرُ): الْحِجَارَةُ، وزَبَرَهُ بِالْحِجَارَةِ: رَمَاهُ بِهَا. والزَّبْرُ: طَيُّ الْبِئْرِ بِالْحِجَارَةِ، يُقَالُ: بِئْرٌ مَزْبُورَةٌ. وزَبَرَ الْبِئْرَ زَبْراً: طَوَاهَا بِالْحِجَارَةِ، وَمَا لَهُ زَبْرٌ أَي مَا لَهُ رأْي، وَقِيلَ: أَي مَا لَهُ عَقْلٌ وتَماسُكٌ، وَفِي حَدِيثِ أَهل النَّارِ وعَدَّ مِنْهُمُ (الضعيفَ الَّذِي لَا زَبْرَ) لَهُ أَي لَا عَقْلَ لَهُ يَزْبُرُه وَيَنْهَاهُ عَنِ الإِقدام عَلَى مَا لَا يَنْبَغِي. وأَصلُ الزَّبْرِ: طَيُّ الْبِئْرِ إِذا طُوِيَتْ تَمَاسَكَتْ وَاسْتَحْكَمَتْ؛ وَاسْتَعَارَ ابْنُ أَحمر الزَّبْرَ لِلرِّيحِ فَقَالَ:

ولَهَـــتْ عَلَيْـــهِ كـــلُّ مُعْصِـــفَةٍ هَوجـــاءَ، لَـــيْسَ لِلُبِّهـــا زَبْـــرُ

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح ج٣ ص١٣٨٦ حديث رقم ٤٩٦٠.

وإنما يُرِيدُ انْحِرَافَهَا وَهُبُوبَهَا وأنها لَا تَسْتَقِيمُ عَلَى مَهَبٍّ وَاحِدٍ فَهِيَ كَالنَّاقَةِ الهَوْجاء، وَهِيَ الَّتِي كَأَنّ بِهَا هَوَجًا مِنْ سُرْعَتها. وَفِي الْحَدِيثِ: «الْفَقِيرُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ زَبْرٌ» أَي عَقْلٌ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ. والزَّبْرُ: الصَّبْرُ، يُقَالُ: مَا لَهُ زَبْرٌ وَلَا صَبْرٌ[1].

فأصل الزبر الحجارة التي يطوى بها البئر لتتماسك فلا ينهال فيها ما يعكرها، واستعيرت للعقل الذي يحجز الإنسان عن الانسياق وراء شهواته والاندفاع خلف ما حرم الله من الموبقات، وجاءت الاستعارة مناسبة لسياق الكلام فطي البئر بالحجارة يحافظ عليها صافية لكل وارد وناهل فبذلك يستقيم حالها وتصلح للانتفاع بها، فأشبه العقل الذي يحجز صاحبه عن اقتراف الشهوات المحرمة وارتكاب المنهيات التي من شأنها تعكير صفو الفطرة النقية لصاحبها.

قال الطيبي: «(لا زبر له) يقال: ما له زبر أي عقل. المعنى لا يستقيم عليه؛ لأن من لا عقل له لا تكليف عليه. فكيف يحكم بأنه من أهل النار؟ وأرى الوجه فيه أن يفسر بالتماسك؛ فإن أهل اللغة يقولون: لا زبر له أي لا تماسك له، وهو في الأصل مصدر. والمعنى: لا تماسك له عند مجيء الشهوات. فلا يرتدع عن فاحشة ولا يتورع عن حرام»[2].

---

(١) انظر ابن منظور – لسان العرب ج٤ ص٣١٥ + المناوي – فيض القدير ج٢ ص٢٨٦ + الزمخشري – الفائق في غريب الحديث ج٢ ص١٠٢.

(٢) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج١٠ ص٣١٧٩- ٣١٨٠.

فالطيبي يزيل الإبهام في تفسيره للكلمة فيبين أن المقصود بـ(بلا عقل) ضعيف العزم الذي لا صبر له على مجانبة الشهوات المحرمة أما المجنون الذي لا يميز بين الخير والشر فلا إثم عليه وليس داخلا في الحديث.

١٣- الشنظير

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (الشنظير) قال صاحب اللسان: «شَنْظَر الرجلُ بِالْقَوْمِ شَنْظَرَة: شَتَمَ أَعراضهم؛ وأَنشد:

يُشَنْظِرُ بِالْقَوْمِ الْكِرَامِ، ويَعْتَزي إِلى شَرِّ حافٍ فِي البِلادِ وناعِلِ

الشِّنْظِير السَّخِيف الْعَقْلِ، ورجل شِنْظِير: بَذِيٌّ فَاحِشٌ؛ أَنشد ابْنُ الأَعرابي لامرأَة مِنَ الْعَرَبِ:

شِنظيرة زَوَّجَنِيهِ أَهْلِي،... مِنْ حُمْقِه يَحْسَبُ رأْسِي رِجْلي،

كأَنه لَمْ يَرَ أُنثى قَبْلِي

والأُنثى شِنْظيرَة؛ قَالَ:

قامَتْ تُعَنْظِي بِكَ بَيْنَ الحَيَّيْنْ شِنْظِيرَةُ الأَخلاقِ، جَهْراءُ العَيْنْ

قال شَمِرٌ: الشِّنْظِير مِثْلُ الشُّنْظُرَة وَهِيَ الصَّخْرَةُ تنفلِق مِنْ رُكْن مِنْ أَركان الْجَبَلِ فَتَسْقُطُ»[1].

والشنظير: «أي البخيل السيئ الخلق»[1] والشنظرة: «ضرب أَعْرَاض الْقَوْم وَفُلَان يشنظر بالقوم مذ الْيَوْم وَهُوَ شنظير وشنظيرة»[2].

(١) ابن منظور – لسان العرب ج٤ ص٤٣١.

فالكلمة تطلق على سيئ الخلق الفاحش الذي يشتم أعراض الناس، وأصل الكلمة الصخرة التي تنفصل من الجبل وتسقط، ولكن ذاع استعمالها عند العرب في المعنى الأول، وجاءت اللفظة غريبة لتناسب سياق التنفير من الخلق السيئ والكلام القبيح فجاءت الكلمة غريبة ينبو لها السمع مثلما دلت عليه من قبيح الفعال والأقوال.

المتأمل لصوتية الكلمة يستشعر ما دلت عليه من قبيح الخصال والفعال دون معرفة معناها، فلا يمكن لمستمع الكلمة أن يخال أنها نعت للمؤمنين الصالحين، بل لا بد أن يجزم أنها نعت لرجل ذي خلال مذمومة وصفات مذؤمة، فالشين بما اتصفت به من التفشي والانتشار تشعرك بالبذاءات الخارجة من في الشنظير والظاء المفخمة تشعرك وتوحي لك غلظ الطباع الذي جبل عليه هذا المرء الذي هذا نعته.

١٤- الجواظ - الجعظري

عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْجَوَّاظُ وَلَا الْجَعْظَرِيُّ» قَالَ: وَالْجَوَّاظُ: الْغَلِيظُ الْفَظُّ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ». وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ وَصَاحِبُ» جَامِعِ الْأُصُولِ «فِيهِ عَنْ حَارِثَةَ. وَكَذَا فِي «شَرْحِ السُّنَّةِ» عَنْهُ وَلَفْظُهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْجَوَّاظُ الْجَعْظَرِيُّ». يُقَالُ: الْجَعْظَرِيُّ:

(١) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج١٠ ص ٣١٨١.

(٢) الزمخشري – الفائق في غريب الحديث ج٢ ص١٠٢.

الْفَظُّ الْغَلِيظُ. وَفِي نُسَخِ «الْمَصَابِيحِ» عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ وَهْبٍ وَلَفْظُهُ قَالَ: «وَالْجَوَّاظُ: الَّذِي جَمَعَ وَمَنَعَ. وَالْجَعْظَرِيُّ: الغليظ الْفظ»[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (الجوّاظ) قال صاحب اللسان: «الجَوَّاظُ: الْكَثِيرُ اللَّحْمِ الْجَافِي الْغَلِيظُ الضَّخْمُ الْمُخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ وَالجَوَّاظُ المتكبِّر الْجَافِي، وَرَجُلٌ جَوَّاظةٌ: أَكول، وَقِيلَ: هُوَ الْفَاجِرُ، وَقِيلَ: هُوَ الصَّيَّاح الشِّرِّير. ويُقَالُ لِلرَّجُلِ الطويل الجسيم الأَكُولِ الشَّرُوب البَطِر الْكَافِرِ: جَوَّاظٌ والجَوَّاظُ: الجَمُوع المَنُوع الَّذِي جمَع ومنَع، وَقِيلَ: هُوَ الْقَصِيرُ البَطِينُ. والجَوَّاظ: الأَكول. وَفِي نَوَادِرِ الأَعراب: رَجُلٌ جَيّاظٌ سَمِينٌ سَمِج المِشْية. أَبو سَعِيدٍ: الجُواظُ الضجَرُ وقِلّة الصبْر عَلَى الأُمور»[2].

فالكلمة كما بينت المعاجم وكتب الشروحات تدل على جملة من خصال الشر والصفات المكروهة، فالجواظ هو المختال المتكبر الأكول الضخم الغليظ الجافي، وكلها صفات احتاجها السياق لوصف أهل النار لا سيما إذا كانت مجتمعة في شخص بعينه وجاءت صوتية الكلمة هي الأخرى معبرة عن معنى الكلمة؛ فحرف المد الذي تبعه الظاء المفخمة يوحي بامتداد الغلظة وضخامة وشدة من جاءت الكلمة صفة له.

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح ج٣ ص١٤٠٨ حديث رقم ٥٠٨٠.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج٧ ص٤٣٩ + الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج١٠ ص٣٢٣٤.

١٥- الجعظري

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (الجَعظريّ) والجِعْظارُ، بِكَسْرِ الْجِيمِ: الْقَصِيرُ الرِّجْلَيْنِ الْغَلِيظُ الْجِسْمِ، فإذا كَانَ مَعَ غِلَظِ جِسْمِهِ أَكولًا قَوِيًّا سُمِّيَ جَعْظَرِيّـًا؛ وَقِيلَ: الجعْظارُ الْقَلِيلُ الْعَقْلِ، وَهُوَ أَيضـًا الَّذِي يَنْتَفِخُ بِمَا لَيْسَ عِنْدَهُ مَعَ قِصَرٍ، وقيل: هو الأَكول السَّيِءُ الخُلُقِ الَّذِي يَتَسَخَّطُ عِنْدَ الطَّعَامِ. وَقَالَ ثَعْلَبٌ: الجَعْظَرِيُّ الْمُتَكَبِّرُ الْجَافِي عَنِ الْمَوْعِظَةِ؛ وَقَالَ مُرَّةُ: هُوَ الْقَصِيرُ الْغَلِيظُ. وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الجَعْظَرِيُّ الفَظُّ الْغَلِيظُ. الْفَرَّاءُ: الجَظُّ والجَوَّاظ الطَّوِيلُ الْجِسْمِ الأَكول الشَّرُوبُ البَطِرُ الكَفُورُ، الأَزهري: الجَعْظَرِيُّ الطَّوِيلُ الْجِسْمِ الأَكول الشروب البَطِرُ الكافر، وَهُوَ الجِعْظارُ[1].

فهو الغليظ القصير الشره المنتفخ بما ليس عنده، فهو امرؤ حوى مجموعة من الرذائل وثلة من القبائح جعلته من المستحقين لدخول النار يوم القيامة ومن ثم جاءت مواتية للسياق الذي يخبر فيه النبي ﷺ عن أهل النار.

جاءت صوتية الكلمة لتعبر بدقة عما استخدمت فيه الكلمة فشدة الجيم ثم توسط العين بين الشدة والرخاوة بصوتها المنبعث من الحلق ثم الظاء المفخمة الغليظة ثم تختم الكلمة بالياء المشددة بما لها من صفة النبر وهو الضغط على الحرف ليظهر تشديده، كل ذلك جاء معبرا عن الغلظة موحيا بالفظاظة التي عليها

(١) انظر ابن منظور – لسان العرب ج٤ ص١٤٢ + الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج١٠ ص ٣٢٣٤ + الزمخشري – الفائق في غريب الحديث ج٣ ص٧٣.

هذا الرجل، ومن ثم كانت غرابة الكلمة هي والتي قبلها في صالح السياق، حيث كان لصوتية الكلمة الدور الأكبر في خدمة إيصال المعنى وليس إبهامه.

١٦- هيشات

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثَلَاثًا وَإِيَّاكُم وهيشات الْأَسْوَاق» رَوَاهُ مُسلم[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (هيشات) قال صاحب اللسان: «هاشَت الإِبلُ هَوْشـًا: نفَرَت فِي الْغَارَةِ فتبدَّدَتْ وتفرَّقت، وإِبل هَوّاشةٌ: أَخَذَت مِنْ هُنَا وَهُنَا، والهَوْشَةُ: الفِتْنةُ والهَيْجُ والاضطرابُ والهَرْجُ والاختلاطُ، يُقَالُ: قَدْ هَوَّشَ الْقَوْمَ إِذا اخْتَلَطُوا قَالَ ذُو الرُّمَّةِ يصِفُ الْمَنَازِلَ وأَن الرِّيَاحَ قَدْ خلَطت بعضَ آثَارِهَا بِبَعْضٍ:

تَعَفَّـتْ لِتَهْتـانِ الشِّـتاءِ، وهَوَّشَـتْ بِهَـا نائِجـاتُ الصَّـيْفِ شَـرْقِيَّةً كُـدْرا

وَفِي حَدِيثِ الإِسراء: «فإِذا بَشَرٌ كثيرٌ يَتَهاوَشُون» التَّهاوُشُ: الاختلاطُ، أَي يَدْخُل بعضُهم فِي بَعْضٍ. وَفِي حَدِيثِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ: «كُنْتُ أُهاوِشُهم فِي الْجَاهِلِيَّةِ».

أَي أُخالِطُهم عَلَى وَجْهِ الإِفْساد، قَالَ عِرَامٌ: اتَّقُوا هَوَشاتِ السُّوق أَي اتَّقَوُا الضَّلَالَ فِيهَا وأَن يُحْتالَ عَلَيْكُمْ فتُسْرَقُوا، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «إِيَّاكُمْ

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح ج١ ص٣٤١ حديث رقم ١٠٨٩.

وهَوَشاتِ الليلِ وهَوَشاتِ الأَسواق» وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ: «وهَيَشاتِ» أَي فِتَنها وهَيْجَها»[1].

وَفِي الحَدِيثِ: «لَيْسَ فِي الهَيْشاتِ قَوَدٌ» عَنى بِهِ القَتِيلَ يُقْتَل فِي الفِتْنة لَا يُدْرى مَنْ قتَله، وهاشَ القومُ يَهِيشُون هَيْشًا إِذا تَحَرَّكُوا وهاجُوا؛ قَالَ الشَّاعِرُ:

هِشْتُم عَلَيْنَا، وَكُنْتُمْ تَكْتَفُون بِمَا نُعْطِيكمُ الحَقَّ مِنَّا غيرَ مَنْقُوصِ»[2]

فالكلمة تعني الاضطراب والاختلاط والفتنة، فجاءت مناسبة في معرض الحديث عن فتنة الأسواق وما يحدث فيها من غش وخداع وغبن وأيمان كاذبة واختلاط وعراك وغيره مما يحصل بالسوق، فأتت لتعبر عن كل هذا كما أشارت المعاجم اللغوية.

قال الطيبي: «(وهيشات الأسواق): هي ما يكون من الجلبة وارتفاع الأصوات. وقيل: هي الاختلاط، أي لا تختلطوا اختلاط أهل السوق، فلا يتميز الذكور من الإناث، ولا الصبيان من البالغين. ويجوز أن يكون المعنى اتقوا أنفسكم من الاشتغال بأمور الأسواق؛ فإنه يمنعكم عن أن تلوني»[3].

صوتية الكلمة جاءت ملائمة لما استخدمت له، حيث حوت ثلاثة أحرف من حروف الهمس الذي هو جريان النفس عند النطق بها، هذا الجريان المتتابع

(١) ابن منظور – لسان العرب ج٦ ص٣٦٦.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج٦ ص٣٦٧.

(٣) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٤ ص١١٤٢.

يوحي بالاضطراب وسرعة الحركة الذي هو معنى الكلمة كما جاءت الشين بصفة التفشي وانتشار الهواء الخارج من الفم لتعطي صوتا مناسبا ومواتيًا لحركة الاضطراب، لذا أدت بنية الكلمة دورها في أداء المعنى خير أداء.

١٧- يفرك

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ» رَوَاهُ مُسلم[١].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (يفرك) والمتتبع لها في المعاجم يجد أنها لا تخرج عن معنيين لا ثالث لهما، الأول: كما قال صاحب اللسان: «الفَرْك: دَلْكُ الشَّيْءِ حَتَّى يَنْقَلِعَ قِشْرُه عَنْ لبِّه كالجَوْز، فَرَكه يَفْرُكه فَرْكًا فانْفَرَك. والفَرِكُ: المُتَفَرِّك قِشْرُهُ. واسْتَفْرَك الحبُّ فِي السُّنْبُلة: سَمِنَ وَاشْتَدَّ. وبُرٌّ فرِيكٌ: وَهُوَ الَّذِي فُرِكَ ونُقِّي. وأَفْرَك الحبُّ: حَانَ لَهُ أَن يُفْرك. والفَرِيك: طَعَامٌ يُفْرك ثُمَّ يُلَتّ بِسَمْنٍ أَو غَيْرِهِ، وفَرَكْتُ الثَّوْبَ وَالسُّنْبُلَ بِيَدِي فَرْكًا. وأَفْرَكَ السنبلُ أَي صَارَ فَرِيكًا، وَهُوَ حِينَ يَصْلُح أَن يُفْرَك فَيُؤْكَل»[٢].

والثاني: «بغْضَةُ الرَّجُلِ لامرأَته أَو بغْضة امرأَته لَهُ، وَقَدْ فَرِكَتْه فِرْكًا أَبغضته. قَالَ رُؤْبَةُ:

فَعفَّ عَنْ إسْرارِها بَعْدَ الغَسَقْ، وَلَمْ يُضِعْها بَيْنَ فِرْكٍ وعَشَقْ

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٢ ص٩٦٧ حديث رقم ٣٢٤٠.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج١٠ ص٤٧٣.

وَقَالَ القطامِيّ:

لَهَا رَوْضَةٌ فِي القَلْبِ لَمْ يَرْعَ مِثْلَها فَرُوكٌ، وَلَا المُسْتَعْبِرات الصَّلائِفُ»[1]

وَرَجُلٌ مُفَرَّك: لَا يَحْظى عِنْدَ النِّسَاءِ، أَوتُبْغِضهُ النِّسَاءُ، وامرأَة مُفَرَّكة: لَا تَحْظَى عِنْدَ الرِّجَالِ، قَالَ أَبو عُبَيْدٍ: وَلَمْ أَسمع هَذَا الْحَرْفَ فِي غَيْرِ الزَّوْجَيْنِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «لَا يَفْرُك مؤمنٌ مُؤْمِنَةً» أَي لَا يُبْغِضها كأَنه حَثَّ عَلَى حُسْنِ الْعِشْرَةِ وَالصُّحْبَةِ؛ وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ يَصِفُ إِبِلًا:

إِذَا الليلُ عَنْ نَشْزٍ تَجَلَّى رَمَيْنَهُ بأَمْثالِ أَبْصارِ النِّساء الفَوارِكِ

يصِفُ إِبِلًا شَبَّهَهَا بِالنِّسَاءِ الْفَوَارِكِ، لأَنهن يَطْمَحْن إِلَى الرِّجَالِ وَلَسْنَ بِقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ عَلَى الأَزواج»[2].

وفلانة فارِكٌ من الفوارك وهي خلاف العروب، وقد فركت زوجها فركًا، نقيض: عشقته عشقًا. وفاركت صاحبي ففارقته. وهم يعيشون بالفريك وهو الحب المفروك. وقد أفرك زرعهم إذا حان له أن يفرك وهو أن يشتدّ شيأ في سنبله[3].

(١) ابن منظور – لسان العرب ج١٠ ص٤٧٤.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج١٠ ص٤٧٤.

(٣) انظر الزمخشري – أساس البلاغة ج٢ ص٢١ + ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث ج٣ ص٤٤٠.

فللكلمة معنيان: دلك الحبوب اليابسة لإزالة قشرتها الرقيقة الخارجية التي حول اللب، والثاني: البغض الذي يحدث بين الزوجين أو من أحدهما الذي يؤدي إلى المفارقة والطلاق، والمتأمل يجد أن المعنى الثاني له صلة وثيقة بالمعنى الأول، لكنها خفية لم يتعرض لها أحد من الشراح، ففرك الحبوب الذي هو إزالة القشرة عن اللب لا يتم إلا بعد جفاف الحبة تماما ومن ثم يسهل إزالة القشرة بعد أن ضعفت الرابطة بين القشرة واللب، فهذا الانفصال لا يحدث إلا بزوال الرطوبة بين القشرة واللب فيستحيل بعدها الاتصال بينهما، كذلك الفرك بين الزوجين لا يحدث إلا بزوال الحب بينهما فيسهل حينها الفرقة والانفصال، فعلاقة الزوجين أشبهت علاقة القشرة بالحبة إذا انمحى الحب وزالت المودة سهل الانفصال، ومن ثم كانت كلمة (الفرك) في مكانها من السياق وموقعها من الكلام الأجدر على أداء المعنى، فالفرك يؤدي معنى لا يؤديه على سبيل المثال البغض، الكره؛ لأنه بغض يتبعه مفارقة وكره يردفه طلاق.

١٨- هنات

عَنْ عَرْفَجَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كانَ» رَوَاهُ مُسلم[1]

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٢ ص١٠٨٨ حديث رقم ٣٦٧٧.

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (هنات) وَهِيَ كِناية عَنِ الشَّيء يُسْتَفْحَش ذِكْرُهُ وَفِي فُلَانٍ هَنَوَاتٌ أَي خَصْلات شَرٍّ، وَلَا يُقَالُ ذَلِكَ فِي الْخَيْرِ. وَفِي الْحَدِيثِ: (سَتَكُونُ هَناتٌ وهَناتٌ) أَي شُرورٌ وفَسادٌ، وَوَاحِدَتُهَا هَنْتٌ، وَقَدْ تُجْمَعُ عَلَى هَنَواتٍ، وَقِيلَ: وَاحِدَتُهَا هَنَةٌ تأْنيث هَنٍ، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ كُلِّ اسْمُ جِنْسٍ. وَفِي حَدِيثِ سَطِيحٍ: (ثُمَّ تَكُونُ هَنَاتٌ وهَنَاتٌ) أَي شَدائدُ وأُمور عِظام[1].

قال الزمخشري: «هناتٌ وهنواتٌ وهنيّاتٌ: خصال سوء، قال لبيد:

أكرمت عرضي أن ينال بنجوة إن البريّ من الهنات سعيد

ويا هني ويا هناة ويا هناه، قال امرؤ القيس:

وقد رابني قولها يا هنا هـ ويحك ألحقت شراً بشر

أي تهمةً بتهمة»[2].

فالكلمة كما ذكرت المعاجم وكتب الشروح كناية عما يستقبح ذكره، فالنبي ﷺ لم يصرح بهذه الفتن ولا بتلك الشرور لتكون أوقع في نفس السامع وأشد وطأة على أذنه وقلبه فالإشارة أبلغ من العبارة وفي التلميح ما يغني عن التصريح، فأتى بهذه الكلمة المبهمة التي تدل على جملة من أنواع الشرور، ولكي يدلل على تتابع

(١) انظر ابن منظور – لسان العرب ج١٥ ص٣٦٦ + الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٨ ص٢٥٦٥ + المناوي – فيض القدير – ج٤ ص٩٩.

(٢) الزمخشري – أساس البلاغة – ج٢ ص٣٨١.

هذه الشرور وتواليها ذكرها معطوفة على نفسها ليس إلا لأنها تعبر عن المعنى أكثر من غيرها.

١٩- الثعاريير – الضغابيس

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّار بالشفاعة كَأَنَّهُمْ الثعاريرِ؟» قَالَ: «إِنَّه الضغابيس» مُتَّفق عَلَيْهِ[١].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (الثعارير والضغابيس) قال صاحب اللسان: «الثُّعْرُور: نَبْتٌ يؤْكل، والثَّعارِيرُ: الثَّآلِيلُ وحَمْلُ الطَّراثيث أَيضًا، وَفِي حَدِيثِ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ، ﷺ، أَنه قَالَ: إِذا مُيِّزَ أَهلُ الْجَنَّةِ مِنَ النَّارِ أُخرجوا قَدِ امْتُحِشُوا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ فَيَخْرُجُونَ بِيضًا مِثْلَ الثَّعارير، وَفِي رِوَايَةٍ: يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الثَّعَارِيرُ، قِيلَ: الثَّعَارِيرُ فِي هذا الحديث رءوس الطَّرَاثِيثِ تَرَاهَا إِذا خَرَجَتْ مِنَ الأَرض بِيضًا شُبِّهُوا فِي الْبَيَاضِ بِهَا. وَقَالَ ابْنُ الأَثير: الثَّعَارِيرُ هِيَ الْقِثَّاءُ الصِّغَارُ شُبِّهُوا بِهَا لأَن الْقِثَّاءَ يَنْمِي سَرِيعًا»[٢].

قال الطيبي: «(الثعارير) بالثاء المثلثة والعين المهملة، هي القثاء الصغار شبهوا بها لأن القثاء تنمو سريعًا، وقيل: هي رءوس الطراثيث تكون بيضًا، شبهوا

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح ج٣ ص١٥٦١ حديث رقم ٥٦١٠.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج١٥ ص٣٦٦.

ببياضها، وواحدها طرثوث وهو نبت يؤكل و(الضغابيس) بالضاد والغين المعجمتين، وهي أيضًا صغار القثاء، واحدها ضغبوس»[1].

فالكلمتان بمعنى واحد وهو نبت أبيض ينمو سريعا، لما كان دخول النار يؤدي إلى تغير الصورة وتحول الهيئة حيث تحرق النار أجسادهم فيخرجون وقد امتحشوا واحترقوا، ثم يخرجون من النار بالشفاعة (والكلام عن المؤمنين دون غيرهم) قيلقون في نهر الحياة فتتغير هيئتهم ويتبدل لونهم سريعا كهذا النبات الأبيض سريع النمو، فلما تحولوا سريعا من حال إلى حال شبههم النبي ﷺ بهذا النبت.

٢٠- استشرف

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ فَإِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ (صَحِيح)[2].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (استشرفها) قال صاحب اللسان: «وتَشَرَّفَ الشيءَ واسْتَشْرَفه: وَضَعَ يَدَهُ عَلَى حاجِبِه كَالَّذِي يَسْتَظِلُّ مِنَ الشَّمْسِ حَتَّى يُبْصِرَه ويَسْتَبِينَه؛ وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ مُطَيْر:

فَيا عَجَبًا للناسِ يَسْتَشْرِفُونَني كأَنْ لَمْ يَرَوا بَعْدي مُحِبًّا وَلَا قبْلي

(١) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج١١ ص٣٥٥١.

(٢) التبريزي – مشكاة المصابيح ج٢ ص٩٣٣ حديث رقم ٣١٠٩.

وَفِي حَدِيثِ أَبي طَلْحَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنه كَانَ حسَنَ الرمْي فَكَانَ إِذَا رَمَى اسْتَشْرَفَه النبي، ﷺ، لِيَنْظُرَ إِلَى مَواقِعِ نَبْله» أَي يُحَقِّقُ نَظَرَهُ ويَطَّلِعُ عَلَيْهِ. وأَصله مِنَ الشَّرَف العُلُوّ كأَنه يَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَوْضِعٍ مُرْتَفِع فَيَكُونُ أَكثر لإِدراكه. وَفِي حَدِيثِ الفِتَن: «مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا اسْتَشْرَفَتْ لَهُ» أَي مَنْ تَطَلَّعَ إِلَيْهَا وتَعَرَّضَ لَهَا واتَتْه فَوَقَعَ فِيهَا. وَقَالَ اللَّيْثُ: «اسْتَشْرَفْتُ الشيءَ إِذَا رَفَعْتَ رأْسَك أَو بصَرك تَنْظُرُ إِلَيْهِ. وتَشَرَّفْتُ المَرْبَأَ وأَشْرَفْتُه أَي عَلَوْتُهُ»[1].

فالاستشراف وضع اليد على الجبهة قائمة كهيئة المستظل من الشمس أو الذي يحجب عنه الشمس شيئا حتى يستطيع رؤية شيء يترقب ظهوره وينتظر مجيئه وما أروع هذا التصوير الذي يدل على حرص الشيطان الدائب في إيقاع بني آدم في الفتنة والغواية الحاصلة من النظر، النظر لتلك المرأة الذي يحدث غواية لها حين تشعر أن الأعين ترمقها وغواية للناظر الذي يشتهي ويتمنى، لذا جاءت صورة الشيطان في الحديث في هذا الموقف كالمتحفز المتربص لخروجها؛ ليوقع المرأة ومن ينظر إليها في الفتنة.

والأصل في الاستشراف رفع البصر للنظر إلى الشيء، وبسط الكف فوق الحاجب. وفي الحديث وجوه: أحدها: أن ينظر إليها ويطمح ببصر نحوها ليغويها أو يغوى بها. وثإنيها: أن أهل الريبة إذا رأوها بارزة من خدرها استشرفوها؛ لما بث الشيطان في نفوسهم من الشر وألقى في قلوبهم من الزيغ، فأضاف الفعل إلى

(١) ابن منظور – لسان العرب ج٩ ص١٧٢.

الشيطان لكونه الباعث على استشرافهم إياها. وثالثها: أنه يود أنها علي شرف الأرض لتكون معرضة له. ورابعها: أنه أراد أن الشيطان يصيبها بعينه فتصير من الخبيثات بعد أن كانت من الطيبات[1] .

قال الطيبي: «والعجب ممن يتصدى لبيان المشكل وتفسير الغريب، ثم يمر على مثل هذا القول غير مكترث به! ولقد فتشت أمهات الكتب التي صنفت في هذا الفن عن بيان هذا الحديث، فلم أصادف أحدا منهم تعرض له بكلمة»[2]. فهو ينوه لأهمية معرفة المعنى الحقيقي للكلمة لإدراك الصلة بينه وبين المعنى المجازي؛ ليصل القارئ إلى الصورة الكاملة التي أراد النبي ﷺ أن يرسمها في حديثه.

٢١- يدعثر

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ سِرًّا فَإِنَّ الْغَيْلَ يُدْرِكُ الْفَارِسَ فيدعثره عَن فرسه» رَوَاهُ أَبُو دَاوُد (حسن)[3] .

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (يدعثر) قال صاحب اللسان: «والدُّعْثُورُ: الْحَوْضُ المهَدَّمُ قَالَ:

---

(١) انظر الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٧ ص٢٢٧٢ + المناوي – فيض القدير شرح الجامع الصغير – ج٦ ص٢٦٦.

(٢) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٧ ص٢٢٧٢.

(٣) التبريزي – مشكاة المصابيح ج٢ ص٩٥٤ حديث رقم٣١٩٦ وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير – ج٢ ص١٢٣٢ حديث رقم ٧٣٩١ .

أَكُـلَّ يَـوْمٍ لَـكِ حَـوْضٌ مَمْـدُورْ؟ إِنَّ حِيـــاضَ النَّهَـــلِ الـــدَّعاثِيرْ

يَقُولُ: أَكلَّ يَوْمٍ تَكْسِرِينَ حَوْضَكِ حَتَّى يُصْلَحَ؟ وَالدَّعَاثِيرُ: مَا تَهَدَّمَ مِنَ الْحِيَاضِ. والدَّعْثَرَةُ: الهَدْمُ. والمُدَعْثَرُ: الْمَهْدُومُ. والدُّعْثُورُ: الْحَوْضُ المُثَلَّمُ وَقَالَ الشَّاعِرُ:

أَجَلْ جَيْرِ إِن كَانَتْ أُبيحَتْ دَعاثِرُهْ وَكَذَلِكَ الْمَنْزِلُ قَالَ الْعَجَّاجُ:«مِنْ مَنْزِلاتٍ أَصْبَحَتْ دَعاثِرَا» أَراد دَعَاثِيرًا فَحَذَفَ لِلضَّرُورَةِ»[1].

وقوله: (إِنه لَيُدْرِكُ الفارسَ فَيُدَعْثِرُهُ) «أَي يَصْرَعُهُ ويُهْلِكُه يَعْنِي إِذا صَارَ رَجُلًا؛ قَالَ: وَالْمُرَادُ النَّهْيُ عَنِ الغِيلَةِ، وَهُوَ أَن يُجَامِعَ الرَّجُلُ المرأَة وَهِيَ مُرْضِعٌ فَرُبَّمَا حَمَلَتْ، وَاسْمُ ذَلِكَ اللَّبَنِ الغَيْلُ، بِالْفَتْحِ، فإِذا حَمَلَتْ فَسَدَ لَبَنُهَا؛ يُرِيدُ أَن مِنْ سُوءِ أَثره فِي بَدَنِ الطِّفْلِ وإِفساد مِزَاجِهِ وإِرخاء قُوَاهُ أَن ذَلِكَ لَا يَزَالُ مَاثِلًا فِيهِ إِلى أَن يَشْتَدَّ وَيَبْلُغَ مَبْلَغَ الرِّجَالِ، فإِذا أَراد مُنَازَلَةَ قِرْنٍ فِي الْحَرْبِ وَهَنَ عَنْهُ وَانْكَسَرَ، وَسَبَبُ وَهْنِهِ وَانْكِسَارِهِ الغَيْلُ»[2].

قال القاسم بن سلام: «فيدعثره: يهدمه ويطحطحه قَالَ ذُو الرمة يصف الْمنَازل أَنَّهَا قد تهدمت وتغيرت فَقَالَ: [الرجز] (آرِيّها والمنتأى المدعَثر) يَعْنِي

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج٤ ص٢٨٧ + الفائق في غريب الحديث – الزمخشري – ج١ ص٤٢٥.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج٤ ص٢٨٧ + الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٧ ص٢٣٠٨ + غريب الحديث – ابن الجوزي – ج١ ص٣٣٨.

بالمنتأى النؤى وَهُوَ الحفير يحْفر حول الخباء للمطر والمدعثر: المهدوم. وَالْعرب تَقول فِي الرجل تمدحه: مَا حَملته أمه وُضعا وَلَا أَرْضَعَتْه غَيلا»[1] .

فالكلمة بمعنى السقوط والوقوع، فلماذا عدل النبي ﷺ عن السقوط والوقوع واختار الفعل «دعثر» الذي لم يستخدمه النبي ﷺ إلا في هذا الحديث فقط؟ لأن دعثر ليست مجرد وقوع وسقوط ولكنه سقوط وهلكة أو هو هلكة بسبب ذلك السقوط، فهو سقوط مخصوص ووقوع مميز بما تبعه من إصابة حدثت لذلك الفارس.

صوتية الكلمة جاءت بدورها لتسهم في أداء المعنى فالانتقال المفاجئ من العين التي تخرج من وسط الحلق إلى الثاء التي تخرج من طرف اللسان وهي حرف لثوي يخرج باحتكاك طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا، هذا الانتقال المفاجئ والمباشر من الحلق إلى طرف اللسان يوحي بالاندفاع والوقوع بعده والحرف اللثوي بما له من هيئة خاصة في خروجه من الفم يشعرنا بالاصطدام الذي تلا ذلك الوقوع، ومن ثم جاءت معبرة ومناسبة عما جاءت لأجله.

٢٢- خَبّب

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا أَوْ عَبْدًا عَلَى سَيِّده» رَوَاهُ أَبُو دَاوُد[2].

(١) القاسم بن سلام – غريب الحديث – ج٢ ص١٠٠.

(٢) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٧ ص٢٣٣٥ حديث رقم٣٢٦٢.

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (خبب) واستعمل الخبب في شيئين الأول: كما قال صاحب اللسان: «الخَبَبُ: ضَرْبٌ مِنَ العَدْوِ وَقِيلَ: هُوَ مِثْلُ الرَّمَلِ وَقِيلَ: هُوَ أَن يَنْقُل الفَرَسُ أَيامِنَه جَمِيعًا، وأَياسِرَه جَمِيعًا؛ وَقِيلَ: هُوَ أَن يُراوِحَ بَيْنَ يديهِ ورجليهِ، وَكَذَلِكَ البعيرُ؛ وَقِيلَ: الخَبَب السُّرْعَة»(١).

والثاني: «الخِدَاعُ والخُبْثُ والغِشُّ، قَالَ الشَّاعِرُ:

وَمَا أَنتَ بالخَبِّ الخَتُورِ وَلَا الَّذِي إِذَا اسْتُودِعَ الأَسْرارَ يوماً أَذاعَها

الخَبّ، بالفتْح: الخَدَّاعُ وَهُو الَّذِي يَسْعَى بينَ الناسِ بالفَساد، والتَّخبِيبُ: إِفْسادُ الرجُل عَبْداً أَو أَمَةً لغيرِهِ؛ يُقَالُ: خَبَّبَها فأَفسَدَها. وخَبَّبَ فلانٌ غُلامي أَي خَدَعَه. وَقَالَ أَبو بَكْرٍ فِي قَوْلِهِمْ، خَبَّبَ فلانٌ عَلَى فلانٍ صَديقَه: مَعْنَاهُ أَفسده عَلَيْهِ؛ وأَنشد:

«أُمَيْمة أَمْ صارتْ لقَوْلِ المُخَبِّبِ» والخِبُّ: الفسادُ. وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ خَبَّبَ امرَأَةً ومَمْلوكاً عَلَى مُسْلِمٍ فلَيس منَّا»(٢).

فالكلمة بمعنى الإفساد والخداع والغش، وأصل الخبب ضرب من العدو والجري، فلماذا عدل رسول الله ﷺ عن الخداع والإفساد وسائر ما يدل على هذا المعنى إلى التخبيب؟ إن أصل الكلمة بمعنى العدو والجري وهي أيضا تستخدم

(١) ابن منظور – لسان العرب ج١ص٣٤١ + ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث – ج٢ ص٣.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج١ص٣٤٢ + أبو الحسن الهروي – مرقاة المفاتيح في شرح مشكاة المصابيح – ج٥ ص٢١٢٨.

للخداع والغش فهو إسراع في شر وسعي حثيث للإفساد، وما أقبح صورته التي تستحضر في الذهن وهو يعدو ويسرع للوقيعة بين زوجين! أراد النبي ﷺ أن ينفر من هذا المسلك فوضعه في هذا القالب المقيت الذي تنفر منه الفطر السليمة.

٢٣- متأثل

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي فَقِيرٌ لَيْسَ لِي شَيْءٌ وَلِي يَتِيمٌ فَقَالَ: «كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلَا مُبَادِرٍ وَلَا مُتَأَثِّلٍ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَه[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ «متأثل» قال صاحب اللسان «أَثْلَةُ كُلِّ شَيْءٍ: أَصله قَالَ الأَعشى:

أَلَسْتَ مُنْتَهِيًا عَنْ نَحْتِ أَثْلَتِنا ولَسْتَ ضائِرَها، مَا أَطَّتِ الإِبِلُ

يُقَالُ: فُلَانٌ يَنْحَتُ يَنْحِتُ أَثْلَتَنا إِذا قَالَ فِي حَسَبه قَبِيحًا. وأَثَّلَ مالَه: أَصَّله. وتَأَثَّلَ مَالًا: اكْتَسَبَهُ وَاتَّخَذَهُ وثَمَّره. والتَّأَثُّلُ: اتِّخَاذُ أَصل مَالٍ. وَفِي حَدِيثِ وَصِيِّ الْيَتِيمِ: إِنه يأْكل مِنْ مَالِهِ غَيْرَ مُتَأَثِّل مَالًا، فَقَوْلُهُ غَيْرَ مُتَأَثِّلٍ أَي غَيْرَ جَامِعٍ كَقَوْلِهِم تديرت الْمَكَان إِذا اتخذته دَارا لَك وتبنيته وتسريتها وتوسدت ساعدي»[2].

---

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح ج٢ ص١٠٠٢ حديث رقم٣٣٥٥ وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير – ج٢ ص١٢٣٢ حديث رقم ٧٣٩١.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج١١ ص٩ + الزمخشري – الفائق في غريب الحديث – ج١ ص٢٢.

«وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ أَصل قَدِيمٌ أَو جُمِعَ حَتَّى يَصِيرَ لَهُ أَصل، فَهُوَ مُؤَثَّل»[1].

قَالَ لَبِيدٌ:

«لِلَّـــهِ نافِلَـــةُ الأَجَـــلِّ الأَفضـــل وَلَـــهُ العُلـــى وأَثِيـــثُ كُـــلِّ مُؤَثَّـــل

وَقَالَ امْرُؤ الْقَيْس:

ولكِنَّمَـــا أَسْـــعَى لِمَجْـــدٍ مُؤَثَّـــل وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤثَّلَ أمثالي»[2]

فأباح لهم الأكل من مال اليتيم بغير إسراف ولا مبادرة قبل أن يبلغ ومن غير أن يأخذ من أصل المال لكن من ثمره ونمائه فجاءت الكلمة معبرة عن نوع جائز من التصرف في مال اليتيم مشروط بقيد عدم التأثل وهو الأخذ من أصل المال لكن مما يتولد عنه.

قال تعالى ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ ...﴾ [النساء: ٦]. قال أبو عبيدة: ««إِسْرافًا» الإسراف: الإفراط. «وَبِداراً» أي مبادرة قبل أن يدرك فيؤنس منه الرّشد فيأخذ منك. «فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ» أي لا يتأثّل مالا، التأثل: اتخاذ أصل مال»[3]. فنهاه عن أصل المال وأباح له فروعه

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج١١ ص٩ + ابن الجوزي – غريب الحديث– ج١ ص١١.

(٢) القاسم بن سلام – غريب الحديث – ج١ ص١٩٢.

(٣) أبو عبيدة معمر بن المثنى – مجاز القرآن – مكتبة الخانجي – القاهرة – ١٣٨١ هـ – ج١ ص١١٧.

واختار متأثل بصيغة اسم الفاعل التي تدل على الأخذ من أصل المال دون غيرها ك (متأصل) مثلا التي لم تستعملها العرب للمال والحسب.

٢٤- عزين

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرَآنَا حلقا فَقَالَ: «مَالِي أَرَاكُمْ عِزِينَ؟» ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟» فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُولَى وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفّ» رَوَاهُ مُسلم[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (عزين) قال صاحب اللسان: «وعَزَا الرجلَ إِلَى أَبِيهِ عَزْواً: نَسَبَهُ، وعَزَا فلانٌ نفسَه إِلَى بَنِي فلانٍ يَعْزُوها عَزْواً وعَزَا واعْتَزَى وتَعَزَّى، كُلُّهُ: انتَسَب وانْتَمى إِلَيْهِمْ، والاسمُ العِزْوَة والاعْتِزَاءُ والعِزَةُ: عُصْبَة مِنَ النَّاسِ،، وأَنشد ابْنُ بَرِّيٍّ لِلْكُمَيْتِ:

ونحــنُ، وجَنْــدَلٌ بــاغٍ، تَرَكْنــا كَتائــبَ جَنْــدَلٍ شَــتىً عِزِينــا

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٧]، و«مَعْنَى عِزِين حِلَقًا حِلَقًا وجَماعةً جَمَاعَةً، وعِزُونَ: جَمْع عِزَةٍ فَكَانُوا عَنْ يَمِينِه وَعَنْ شِماله جماعاتٍ فِي تَفْرِقَة»[2].

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح ج١ ص٣٤١ حديث رقم١٠٩١.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج١٥ ص٥٣.

وَقوله: «(مَا لِي أَراكم عِزِينَ؟) قَالُوا: هِيَ الحَلْقَة المُجْتَمِعَة مِنَ النَّاسِ كأَنَّ كلَّ جماعةٍ اعْتِزَاؤها أَي انْتِسابُها واحِدٌ، وأَصلها عِزْوَة، فَحُذِفَتِ الْوَاوُ وجُمِعَت جمعَ السلامَةِ عَلَى غَيْر قياسٍ»[1].

وفيه إنكار علي رؤيته ﷺ إياهم متفرقين أشتاتـًا، والمقصود الإنكار عليهم كائنين علي تلك الحالة، يعني لا ينبغي لكم أن تتفرقوا ولا تكونوا مجتمعين مع توصيتي إياكم بذلك، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. ولو قال: وما لكم متفرقين؟ لم يفد من المبالغة فائدة[2].

فالكلمة جاءت ملائمة للسياق ومناسبة للموقف من وجهين: الأول: كونها لا تدل على مطلق التفرق بل هم متفرقون في جماعات فهو نوع خاص من التفرق تفرق مع تجمع. الثاني: كون هذه المجموعات تنتسب لقبيلة واحدة أو ثمة رباط يجمعها كأن يكونوا أوسيين أو خزرجيين أو قرشيين، وهو الانتساب العرقي المذموم في الشرع إذا جر من ورائه الفخر بالنسب، فالكلمة دلت على تفرق بهيئة خاصة لا يمكن بحال أن تدل عليه كلمة أخرى فهي تدل على تفرق ذو هيئة فريدة، تفرق للكل مع اجتماع لكل واحد مع من هم من عصبته وقرابته، فما أروعها من

(١) ابن منظور – لسان العرب ج١٥ص٥٣.

(٢) انظر الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٤ ص١١٤٣.

كلمة جاءت فأغنت عن كثير من الكلمات، وهل البلاغة سوى إيجاز الكلام مع مطابقته للحال؟

٢٥- حار

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ أَوْ قَالَ: عَدُوَّ اللهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلاَّ حارَ عليهِ» مُتَّفق عَلَيْهِ(١).

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (حار) قال صاحب اللسان: «(حارَ عَلَيْهِ) أَي رَجَعَ إِليه مَا نُسِبَ إِليه وَكُلُّ شَيْءٍ تَغَيَّرَ مِنْ حَالٍ إِلى حَالٍ، فَقَدْ حارَ يَحُور حَوْراً. قَالَ لَبِيدٌ:

وَمَا المَرْءُ إِلَّا كالشِّهابِ وضَوْئِهِ يَحُورُ رَماداً بَعْدَ إِذْ هُوَ ساطِعُ

والحَوْرُ التَّحَيُّرُ، والحَوْرُ: الرُّجُوعُ. يُقَالُ: حارَ بعد ما كارَ. والحَوْرُ: النُّقْصَانُ بَعْدَ الزِّيَادَةِ لأَنه رُجُوعٌ مِنْ حَالٍ إِلى حَالٍ. وَفِي الْحَدِيثِ: (نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ) مَعْنَاهُ مِنَ النُّقْصَانِ بَعْدَ الزِّيَادَةِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ مِنْ فَسَادِ أُمورنا بَعْدَ صَلَاحِهَا، وأَصله مِنْ نَقْضِ الْعِمَامَةِ بَعْدَ لَفِّهَا، مأْخوذ مِنْ كَوْرِ الْعِمَامَةِ إِذا انْتَقَضَ لَيُّها وَبَعْضُهُ يَقْرُبُ مِنْ بَعْضٍ، وَكَذَلِكَ الحُورُ، بِالضَّمِّ»(٢).

فلماذا عدل الرسول ﷺ عن الأفعال رجع، عاد، آب وغيرها واختار (حار)؟ إن حار ليست لمجرد الرجوع بل هو رجوع يصحبه الخسارة والنقصان فجاءت

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح ج٣ ص١٣٥٧ حديث رقم٤٨١٧.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج٤ ص٢١٧.

مناسبة للسياق التي هي فيه، فهو رجوع على شخص يرمي أخاه بالكفر من غير تثبت ولا ترو، فأي شيء يعود عليه غير الخسارة والنقصان في الدين؟ ودليل ذلك أن النبي ﷺ كان يستعيذ منه كما في حديث عبد الرحمن بن سرجس، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سافر يتعوذ من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، والحور بعد الكور، ودعوة المظلوم، وسوء المنظر في الأهل والمال» رواه مسلم[1]. فقوله الحور بعد الكور يعني النقصان بعد الزيادة.

فحار ليست كعاد ورجع المشهورة الذائعة على الألسن وإنما هو رجوع يتبعه الخسارة والحسرة والخيبة والنقصان، لذا فالكلمة في محلها جاءت لتؤدي معنى لا يتستطيع غيرها من الكلمات أن يؤديه بنفس الدقة.

٢٦- ضئضئ

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخوَيْصِرَة وَهُوَ رجلٌ من بني تَمِيم فَقَالَ يَا رسولَ الله اعْدِلْ فَقَالَ وَيلك وَمن يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِن لم أكن أعدل فَقَالَ عمر لَهُ ائْذَنْ لي أضْرب عُنُقه فَقَالَ دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ إِلَى رُصَافِهِ إِلَى نَضِيِّهِ وَهُوَ قِدْحُهُ إِلَى قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ قَدْ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ

(١) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٦ ص١٨٩٣ حديث رقم٢٤٢١.

أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ وَيخرجُونَ على حِين فِرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ فَأَمَرَ بذلك الرجل فالْتُمِسَ فَأُتِيَ بِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي نَعَتَهُ . وَفِي رِوَايَةٍ: أَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ نَاتِئُ الجبين كَثُّ اللِّحْيَةِ مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ مَحْلُوقُ الرَّأْسِ فَقَالَ يَا مُحَمَّد اتَّقِ الله فَقَالَ: «فَمن يُطِيع اللهَ إِذَا عَصَيْتُهُ فَيَأْمَنُنِي اللهُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمَنُونِي» فَسَأَلَ رَجُلٌ قَتْلَهُ فَمَنَعَهُ فَلَمَّا وَلَّى قَالَ: «إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ من الإسلام مروق السهْم من الرَّمية يقتلُون أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأقتلنهم قتل عَاد». مُتَّفق عَلَيْهِ[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ: (ضئضئ) أي النسل والذرية[2] فلماذا عدل النبي ﷺ عن المعلوم الشائع إلى الغريب؟ لماذا تركت كلمات مثل نسله وذريته وعقبه – على سبيل المثال – واستعملت ضئضئ؟

إن لهذا العدول تفسيرين أولهما: طبيعة السياق الذي قيلت فيه هذه الكلمة سياق الرد على أحد المنافقين وهو يرمي النبي ﷺ بالظلم ومجانبة الحق والعدل وما أعظم هذا الكلام! وما أبشعه! في نفس النبي ﷺ وفي نفوس جميع أصحابه إنه السياق غير العادي الذي يستجلب الكلام الغريب غير العادي ليلائم الموقف

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٣ ص١٦٥٢ حديث رقم٥٨٩٤.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج١ص١١٠.

أضف إليه إخبار النبي ﷺ في هذا الموقف عن الفتن التي تحدث من بعده واختلاف أمته واقتتالهم أليس كل هذا داعيًا إلى الارتقاء بالكلام من النمط التقليدي إلى النمط الاستثنائي الذي يفرضه المقام.

إن هذا العدول يذكرنا بما سبق ذكره في حديث البلاغيين عن كلمة (ضيزى) التي جاءت – مع غرابتها – ملائمة للسياق أكثر من نظيرتيها في المعنى (جائرة) و(ظالمة) فلما كانت قسمتهم غريبة جاء الجواب غريبًا؛ ليكون الجواب من جنس الكلام الذي سيق له.

أليس اتهام النبي ﷺ بالجور ومجانبة الحق يشبه كلام هؤلاء الكفار في زعمهم أن الملائكة بنات الله – تعالى عن ذلك –؟ ومن ثمّ حمل السياق في الحالتين كلاما غريبًا؛ لينمّ عما أحدثه في وجدان السامع.

التفسير الآخر لاستخدام الكلمة: هو معنى الكلمة وفيم كانت تستخدم – غالبًا – عند العرب؟ يقول صاحب اللسان: «والضِّئْضِئُ: كَثْرَةُ النَسْل، وضِئْضِئُ الضَّأْنِ مِنْ ذَلِكَ. وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ، رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: أَعطَيْتُ نَاقَةً فِي سَبِيلِ اللهِ، فأَردتُ أَن أَشتريَ مِنْ ضِئْضِئِها، فسأَلْتُ النبيَّ ﷺ فَقَالَ: دعْها حَتَّى تَجيءَ يومَ الْقِيَامَةِ هِيَ وأَولادُها فِي ميزانِكَ»[1]. إنه نسل بهيمة الأنعام وليس نسلا بشريا لما رمى المنافقُ النبيَّ ﷺ بما ليس فيه ووسمه بالبهتان استحق أن ينزع منه النبي ﷺ

(١) ابن منظور – لسان العرب ج١ص١١٠.

صفة الآدمية ويستعير له صفة البهيمية التى تلائم إدراكه المحدود. قَالَ الرَّاجِزُ: غَيْران مِنْ ضِئْضِئِ أَجْمالٍ غُيُرْ[1].

٢٧- سُلامى

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا من الضُّحَى» رَوَاهُ مُسلم[2].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (سلامى) و(السُّلامى) عظامُ الأَصابع فِي الْيَدِ والقَدَم. وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ، ﷺ، أَنه قَالَ: «عَلَى كلِّ سُلامَى مِنْ أَحدكم صدقةٌ» قَالَ ابْنُ الأَثير: السُّلامَى جَمْعُ سُلامِيَةٍ وَهِيَ الأُنْمُلَةُ مِنَ الأَصابع، وَقِيلَ: وَاحِدُهُ وَجَمْعُهُ سَوَاءٌ، وَتُجْمَعُ عَلَى سُلامَياتٍ، وَهِيَ الَّتِي بَيْنَ كُلِّ مَفْصِلَيْنِ مِنْ أَصابع الإِنسان، وَقِيلَ: السُّلامَى كُلُّ عَظْمٍ مُجَوَّفٍ مِنْ صِغار الْعِظَامِ. وَقَالَ اللَّيْثُ: السُّلامى عِظَامُ الأَصابع والأَكارعِ، وَالْجَمْعُ سُلامَياتٌ»[3].

---

(١) المصدر السابق - ج١ص١١٠.

(٢) التبريزي - مشكاة المصابيح - ج١ ص٤١١ حديث رقم ١٣١١.

(٣) انظر ابن منظور - لسان العرب - ج١٢ ص٢٩٨ + الطيبي - شرح مشكاة المصابيح - ج٤ ص١٢٤٠ + الفائق في غريب الحديث - ابن الأثير - ج٢ ص١٩١.

فالمعنى: على كل عظم من عظام ابن آدم صدقة. في معناه الحديث الآتي: (خلق الإنسان علي ثلثمائة وستين مفصلاً، عليه أن يتصدق علي كل مفصل بصدقة) المعنى أن كل عظم من عظام ابن آدم يصبح سليماً عن الآفات باقياً علي الهيئة التي يتم بها منافعه وأفعاله، فعليه صدقة شكرًا لمن صوره، ووقاه عما يعيره ويؤذيه[1].

فالكلمة تدل على أنامل اليد والقدم، وعدل النبي ﷺ عن ذكر الأنامل والعظام والمفاصل وذكر السلامى تيمنا بالاسم المشتق من السلامة وهي البراءة من العيب والضرر والأمراض فجاءت الكلمة لتؤدي دورها معبرة عما أراده منها السياق من سلامة الأعضاء عندما تؤدي شكر الله ﷻ على نعمه بالمواظبة والمداومة على عبادة الله.

٢٨- يرتع

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الشبهاب استبرأَ لِدِينِهِ وعِرْضِهِ ومَنْ وقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ أَلَا وَإِنَّ فِي

(١) انظر الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج٤ ص١٢٤٠.

الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُله أَلا وَهِي الْقلب» (مُتَّفق عَلَيْهِ)[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (يرتع) قال صاحب اللسان: «الرَّتْعُ: الأَكل وَالشُّرْبُ رَغَداً فِي الرِّيف، يُقَالُ: خَرَجْنَا نَرْتَعُ ونَلْعب أَي نَنْعَم ونَلْهُو. وَفِي حَدِيثِ أُمّ زَرْع: «فِي شِبَعٍ وريٍّ ورَتْعٍ» أَي تَنَعُّمٍ. وَقَوْمٌ مُرْتِعُون: راتِعُون إِذا كَانُوا مَخاصِيبَ، وَالْمَوْضِعُ مَرْتَعٌ، وكلُّ مُخْصِب مُرْتِع. ابْنُ الأَعرابي: الرَّتْع الأَكل بشَرَهٍ. وَقَالَ اللهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِخوة يُوسُفَ: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢]، أَي يَلْهُو ويَنْعَم، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ يَسْعَى وينْبَسِط، وَقِيلَ: مَعْنَى يَرتَع يأْكل؛ واحتج بقوله:

وحَبِيبٌ لِي إِذا لاقَيْتُه ... وإِذا يَخْلو لَهُ لَحْمِي رَتَعْ

وَالَّذِي فِي الْحَدِيثِ: «أَنه مَنْ يَرْتَع حَوْل الحِمى يُوشِك أَن يُخالِطه» أَي يَطُوفُ به ويَدُور حولَه»[2].

قال الطيبي: والرتع كما في قول إخوة يوسف: «يرتع ويلعب» وهو أن يتسع في أكل الفواكه والمستلذات، والخروج إلي التنزه في الأرياف والمياه، كما هو عادة الناس إذا خرجوا إلي الرياض والبساتين[3].

---

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح ج٢ ص٨٤٣ حديث رقم ٢٧٦٢.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج٢ ص٥٢.

(٣) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٣ ص٩٥٠.

فالرتع التوسع في الطعام والشراب وسائر المستلذات، صور النبي ﷺ الذي يقترف المحارم والشبهات غير آبه ولا عابئ بحرمتها بالذي يأكل بلا حساب أو قيد، ولما استعار النبي ﷺ الأرض المحمية لمحارم الله جاءت (يرتع) ترشيحا للاستعارة، فالرتع كما جاء في معناها هو الأكل والشرب في الارض الريفية.

الفصل الثاني

البلاغة في الغريب الاشتقاقي

من خصائص العربية التي عدها العلماء لها ما تمتاز به من اتساع الأبنية، وكثرة الصيغ التي تستوعب المعاني التي يمكن أن تجيش بها النفس، فضلا عن أن الصيغ لا تكلفنا مادة جديدة بل يأتي المعنى الوظيفي للصيغة محمولا على المادة متراكبا مع الدلالة المعجمية أو اللفظية، فإن الصيغة الواحدة قد تشترك بين عدة معان وظيفية تجعل للكلمة الواحدة وجوها متعددة من الدلالة، تعمل على إثراء المعاني الفنية التي يريد المبدع أن يعبر عنها(١).

والغريب الاشتقاقي هو ما كانت غرابته آتية من اختيار صيغة صرفية نادرة الاستعمال دون غيرها من الصيغ لعلة بلاغية، وقد يكون معنى الكلمة معروفا لدى القارئ.

وإلى هذا النوع أشار ابن الأثير في كتابه المثل السائر حيث عقد بابا عن اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها فقال: «وهو من هذه الصناعة بمنزلة عليَّة، ومكانة شريفة، وجلُّ الألفاظ اللفظية منوطة به، ولقد لقيت جماعة من مدَّعي فن الفصاحة، وفاوضتهم وفاوضوني، وسألتهم وسألوني، فما وجدت أحدًا منهم تيقن

(١) انظر د/ عبد الحميد هنداوي – إعجاز الكلمة القرآنية دراسة أسلوبية بلاغية ص ٩٢.

معرفة هذا الموضع كما ينبغي، وقد استخرجت فيه أشياء لم أُسْبَق إليها. أمَّا اختلاف صيغ الألفاظ، فإنها إذا نُقِلَت من هيئة إلى هيئة؛ كنقلها مثلًا من وزنٍ من الأوزان إلى وزن آخر وإن كانت اللفظة واحدة، أو كنقلها من صيغة الاسم إلى صيغة الفعل، أو من الفعل إلى صيغة الاسم، أو كنقلها من الماضي إلى المستقبل أو من المستقبل إلى الماضي، أو من الواحد إلى التثنية، أو إلى الجمع، أو إلى النسب أو إلى غير ذلك؛ انتقل قبحها فصار حسنًا، وحسنها صار قبحًا»[1].

وابن الأثير لم يشر إشارة صريحة إلى الغريب الاشتقاقي وإنما ألمح وألقى ضوءا على ما يمكن أن يقدمه تغيير اللفظ من هيئة إلى أخرى في تحويل اللفظة من كلمة ينبو لها السمع إلى كلمة مستملحة لدى السامع.

إن الغرابة في هذا الفصل ليست ناشئة عن الجهل بمعنى الكلمة،بل أصل الكلمة ومصدر اشتقاقها ذائع على الألسن ولكنها غرابة نابعة من اختيار صيغة صرفية قليلة الورود ونادرة الاستعمال كاختيار صيغة للمبالغة نادرة الاستخدام والعدول عن صيغة مشهورة، أو استخدام مصدر لا يستعمله العرب إلا نادرا أو العدول عن البنية الصحيحة للكلمة من أجل المشاكلة، وقد تعذر الحصول على نماذج كثيرة من هذا النوع، ربما لما درج عليه النبي ﷺ من السير على طريقة من سبقه من العرب واقتفاء أثرهم والسير على هديهم في استعمال اللغة، فإن إيثار الغريب لا يحمد واقتفاؤه لا يطلب إذا لم تكن ثمة حاجة تدعو إليه.

(١) ابن الأثير – المثل السائر – ج١ ص٢٩٣.

١- ودعهم

عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُمَا قَالَا: سَمِعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى أَعْوَادِ مِنْبَرِهِ: «لِيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ» رَوَاهُ مُسلم[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (ودعهم) مصدر الفعل (ودع) بمعنى (ترك) و (وذر) قال صاحب اللسان: «وَقَوْلُهُمْ: دَعْ هَذَا أَي اتْرُكْه، ووَدَعَه يَدَعُه: تَرَكَهُ، وَهِيَ شَاذَّةٌ، وَكَلَامُ الْعَرَبِ: دَعْني وذَرْني ويَدَعُ ويَذَرُ، وَلَا يَقُولُونَ ودَعْتُكَ وَلَا وَذَرْتُكَ، اسْتَغْنَوْا عَنْهُمَا بتَرَكْتُكَ وَالْمَصْدَرُ فِيهِمَا تَرْكًا، وَلَا يُقَالُ ودْعًا وَلَا وَذْراً وَقَدْ جَاءَ فِي بَيْتٍ أَنشده الْفَارِسِيُّ فِي الْبَصْرِيَّاتِ:

فأَيُّهُمـــا مَـــا أَتْـــبَعَنَّ، فـــإِنَّني حَـزِينٌ عَلَـى تَـرْكِ الَّـذِي أَنـا وادِعُ

وَقَدْ جَاءَ وادِعٌ فِي شِعْرِ مَعْنِ بْنِ أَوْسٍ:

عَلَيْـهِ شَـرِيبٌ لَـيِّنٌ وادِعُ العَصـا يُســـاجِلُها حمَّاتـــه وتُســـاجِلُه»[2]

فكلام ابن منظور يثبت أنها موجودة مستعملة في لغة العرب، ولكن على قلة بدليل ما ذكره من نصوص وردت فيها هذه الكلمة. وَفِي التَّنْزِيلِ: «﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى:٣]، أَي لَمْ يَقْطَعِ اللهُ الوحيَ عَنْكَ وَلَا أَبْغَضَكَ، وَذَلِكَ أَنه ﷺ اسْتأَخر الوحْيُ عَنْهُ فَقَالَ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ: إِن مُحَمَّدًا قَدْ وَدَّعَهُ رَبُّهُ وقَلاه، فأَنزل اللهُ

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج١ ص٤٣٣ حديث رقم ١٣٧٠.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج٨ ص٣٨٣.

تَعَالَى: مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى، الْمَعْنَى وَمَا قَلاكَ، وسائر القُرّاء قرؤوه: وَدَّعَكَ، بِالتَّشْدِيدِ، وقرأَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: مَا وَدَعَك رَبُّكَ، بِالتَّخْفِيفِ، وَالْمَعْنَى فِيهِمَا وَاحِدٌ، أَي مَا تَرَكَكَ رَبُّكَ؛ قَالَ:

وَكَانَ مَا قَدَّمُوا لأَنْفُسِهم أَكْثَرَ نَفْعاً مِنَ الَّذِي وَدَعُوا

وأَنشد قولَ أَبي الأَسودِ الدُّؤلي:

لَيْتَ شِعْرِي، عَنْ خَلِيلي، مَا الَّذِي غالَه فِي الحُبِّ حَتَّى وَدَعَهْ»[1]

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَن النَّبِيَّ، ﷺ، قَالَ: لَيَنْتَهِيَنَّ أَقوامٌ عَنْ وَدْعِهم الجُمُعاتِ.....» أَي عَنْ تَرْكهم إِيّاها والتَّخَلُّفِ عَنْهَا مِنْ وَدَعَ الشيءَ يَدَعُه وَدْعاً إِذا تَرَكَهُ، وَزَعَمَتِ النحويةُ أَنّ الْعَرَبَ أَماتُوا مَصْدَرَ يَدَعُ ويَذَرُ واسْتَغْنَوْا عَنْهُ بتَرْكٍ، وَالنَّبِيُّ، ﷺ، أَفصح الْعَرَبِ وَقَدْ رُوِيَتْ عَنْهُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ قَالَ ابْنُ الأَثير: وإِنما يُحْمل قَوْلُهُمْ عَلَى قِلَّةِ اسْتِعْمَالِهِ فَهُوَ شاذٌّ فِي الِاسْتِعْمَالِ صَحِيحٌ فِي الْقِيَاسِ»[2]. قال الطيبي: «ولا عبرة بما قال النحاة، فإن قول النبي ﷺ هو الحجة القاضية علي كل ذي لهجة وفصاحة»[3].

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج٨ ص٣٨٣.

(٢) انظر ابن منظور – لسان العرب – ج٨ ص٣٨٣ + الطيبي – شرح المشكاة – ج٤ ص١٢٧٠ حديث رقم١٣٧٠ + ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث – ج٥ ص١٦٦.

(٣) الطيبي – شرح المشكاة – ج٤ ص١٢٧٠ حديث رقم١٣٧٠.

والمتأمل للكلمات الثلاثة يجد أن لكل منها استخداما مميزا واستعمالا محددا، أو باستطاعتنا أن نقول في الغالب فودع تستخدم في الترك الاختياري الإرادي الذي يترتب عليه شرٌ مثل الحديث الذي بين أيدينا، فلا شك أن ترك الجمعة يترتب عليه شرُ كبير في ضياع هذه الفضيلة الكبيرة، ومثل ذلك قوله تعالى في سورة الضحى ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ٣]، وترك النبي ﷺ وحده في مجابهة الصعاب ومواجهة المشركين ينجم عنه شر كبير، فهو ﷺ لا يستطيع تحمل مشاق الرسالة دون عون الله ﷻ له.

أما «وذر» فهو ترك اختياري إرادي يترتب على حصوله خير قال تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٨٦]، فهو في زعمهم ترك يحفظ حياتهم من الهلاك والموت، وقال تعالى في سورة المعارج: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٢]، أي اتركهم في لهوهم ولعبهم واشتغل أنت بما كلفك به ربك من الدعوة إليه، فلا شك أن هذا خير للنبي ﷺ، لا سيما إذا كان ذلك أمرًا من الله ﷻ، فلا ريب أن في امتثال أمره كل الخير والفلاح.

أما «ترك» فتأتي غالبا لما هو خارج عن إرادة الإنسان أو لما يحدث قهرًا، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١٨٠]، فهو تارك ماله

لا محالة فيأمره الله ﷻ أن يتركه بعد أداء الوصية ، وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٢٤٨]، فما تركه آل موسى وآل هارون تركوه بعد مماتهم فهو ترك قسري لا اختيار لهم فيه، وقال تعالى في سورة النساء: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]، والآية متضمنة لما في الآيتين السابقتين من الترك القسري القهري بسبب الوفاة.

هذا ما نلمسه أيضا في استعمال النبي ﷺ لمادة (ترك)، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَمَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ وَلَمْ يَتْرُكْ وَفَاءً فَعَلَيَّ قَضَاؤُهُ. وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ». وَفِي رِوَايَة: «من ترك دينا أَو ضيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ». وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ وَمَنْ تَرَكَ كَلًّا فَإِلَيْنَا» (مُتَّفق عَلَيْهِ)(١).

إذا كان الامر كذلك فقولنا (ودعهم) هو وحده القادر على أداء المعنى المطلوب دون غيره؛ فإنه يدل على الترك الاختياري الإرادي الذي يمكن أن يتبعه العودة إلى المتروك مرة أخرى، أما (تركهم) كما رأيناه فإنه يستعمل في الترك القهري النهائي الذي لا عودة بعده، وهو لا ريب ليس مناسبا للسياق وأما المصدر

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٢ ص٩١٧.

من الفعل (وذر) فهو كماضيه غير مستخدم ألبتة في لغة العرب بل استعملوه في المضارع والأمر فقط فلا يمكن استعماله بحال.

وقد اختار النبي ﷺ المصدر الصريح وإن كان مصدر الكلمة الصريح هنا غير شائع لما للمصدر من دلالة على التكرار والملازمة والثبوت فودع صلاة الجمعة لم يحدث مرة بل هم ملازمون لهذا الأمر ومن ثم حسن اختيار صيغة المصدر على ما سواها[1].

٢- سبّوح ٣- قدّوس

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رب الْمَلَائِكَة وَالروح» رَوَاهُ مُسلم[2].

الكلمتان موضعا البحث هما (سبوح – قدوس) قال صاحب لسان العرب: «وَمِنْ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: السُّبُّوحُ القُدُّوسُ؛ قَالَ أَبو إِسحاق: السُّبُّوح الَّذِي يُنَزَّه عَنْ كُلِّ سُوء، والقُدُّوسُ: المُبارَك، وَقِيلَ: الطَّاهِرُ؛ وَقَالَ ابْنُ سِيدَهْ: سُبُّوحٌ قُدُّوس مِنْ صِفَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، لأَنه يُسَبَّحُ ويُقَدَّسُ، قَالَ سِيبَوَيْهِ: إِنما قَوْلُهُمْ سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ؛ فَلَيْسَ بِمَنْزِلَةِ سُبْحان لأَن سُبُّوحـًا قُدُّوسـًا صِفَةٌ، كأَنك قُلْتَ ذَكَرْتُ سُبُّوحـًا قُدُّوسـًا فَنَصَبْتَهُ عَلَى إِضمار الْفِعْلِ الْمَتْرُوكِ إِظهاره، فأَما رَفْعُه فَعَلَى

(١) انظر د/ عبد الحميد هنداوي – الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم – المكتبة العصرية – بيروت – ط١ ٢٠٠١ – ص٩٥.

(٢) التبريزي– مشكاة المصابيح – ج٣ ص١٠١٥ حديث رقم ٨٧٢.

إضمار المبتدأ. وَلَيْسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ بناءٌ عَلَى فُعُّول، بِضَمٍّ أَوّله، غَيْرُ هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ الْجَلِيلَيْنِ وَسَائِرُ الأَسماء تَجِيءُ عَلَى فَعُّول – بالفتح – مِثْلَ سَفُّود وقَفُّور وقَبُّور وَمَا أَشبهها»[1].

استخدمت (فُعّول) بضم الفاء مع هذين الاسمين فقط، ووجدت بعض الكلمات القليلة على وزن «فَعُّول» بفتح الفاء، وهذا ليس من شأنه أن يقطع عنهما الانفراد عن غيرهما، بل الكلمتان لا زالا على تميزهما عن باقي الأجناس الصرفية الأخرى.

قال الطيبى: «قوله (سبوح قدوس) من أبنية المبالغة والمراد بها التنزيه ومعناها أنه سبحانه وتعالى طاهر منزه عن أوصاف المخلوقات وهما خبران وتقدير الكلام ركوعى وسجودى لمن هو سبوح قدوس. قال الراغب: التقديس التطهير الإلهى المذكور فى قوله ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، دون التطهير الذى هو إزالة النجاسة المحسوسة»[2].

فالكلمتان مشتركتان في كونهما على نفس الصيغة الصرفية، فهما من أبنية المبالغة على وزن لم يستخدم إلا لهاتين الكلمتين فقط وهو «فُعُّول» وسبوح لتنزيه الله ﷻ عن كل نقص، وقدوس لنعته بكل صفات الكمال، فالصفتان قد استوعبتا نفي كل ما لا ينبغي لله ﷻ، وإثبات كل صفات الكمال والجلال،

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج٢ ص٤٧٢.

(٢) الطيبي – شرح المشكاة – ج٣ ص١٠١٥.

ولأن الله ﷻ ليس له شبيه في صفات كماله جاءت المبالغة من صيغة صرفية فريدة لم تستخدم لما هو من شأن البشر، بل انفردت لتكون مبالغة من نوع آخر، لا يستخدم مع سوى الله ﷻ.

لم تستخدم صيغة المبالغة (فعّول) إلا مع هاتين الكلمتين فقط، ومع ما فيها من معنى المبالغة فإننا نلمح في التركيب الصوتي للكلمتين ما يوحي بجو التسبيح والتنزيه لله تعالى، فالهمس في أول سبوح وآخرها المنبعث من السين والحاء والهمس في آخر قدوس المنبعث أيضا من السين يتناسب تمام المناسبة مع مقام التسبيح الذي يناجي فيه العبد ربه من غير أن يسمع من حوله من الناس.

٤- الجبروت ٥- الملكوت

عَن عَوْف بن مَالك قَالَ: قُمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمَّا رَكَعَ مَكَثَ قَدْرَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَيَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ والملكوت والكبرياء وَالْعَظَمَة». رَوَاهُ النَّسَائِيّ (صَحِيح)[1].

الكلمتان موضعا البحث هما (الجبروت – الملكوت) قال صاحب اللسان: «الجَبَّارُ: اللهُ عَزَّ اسْمُهُ الْقَاهِرُ خَلْقَهُ عَلَى مَا أَراد مِنْ أَمر وَنَهْيٍ. والجُبُرُوتِ والجَبَرُوتِ والجُبُّورَةِ والجَبُّورَة: هُوَ بِمَعْنَى الكِبْرِ وأَنشد الأَحمر لمُغَلِّسِ بْنِ لَقِيطٍ الأَسَدِيّ يُعَاتِبُ رَجُلًا كَانَ وَالِيًا عَلَى أُوضَاخ:

فإنك إِنْ عادَيْتَني غَضِبِ الْحَصَى عَلَيْكَ وذُو الجَبُّورَةِ المُتَغَطْرِفُ

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج١ ص٢٧٨ حديث رقم ٨٨٢.

يَقُولُ: إِن عَادَيْتَنِي غَضِبَ عَلَيْكَ الْخَلِيقَةُ وَمَا هُوَ فِي الْعَدَدِ كَالْحَصَى. وَالْمُتَغَطْرِفُ: الْمُتَكَبِّرُ[1]. وقيل: الجبار هو العالي فوق خلقه[2].

والطيبي يرى أنها صفة لا تنبغي إلا لله وأن من يتسمى بها غيره سبحانه وتعالى، فهو ادعاء بما ليس عنده وصفة ليست لمن هو أهل لها، يقول في شرح قوله ﷺ: «ستة لعنتهم ولعنهم الله وكل نبي يجاب: الزائد في كتاب الله، والمكذب بقدر الله، والمتسلط بالجبروت ليعز من أذله الله ويذل من أعزه الله.....»[3] فيقول الطيبي: «الجبروت» فعلوت، من التجبر، وإنما يطلق ذلك في صفة الإنسان على من يجبر نقيصته بإدعاء منزلة من التعالي لا يستحقها[4].

والملكوت كما قال صاحب اللسان: «ومُلْكُ اللهِ تَعَالَى ومَلَكُوته: سُلْطَانُهُ وَعَظْمَتُهُ. والمَلَكُوت مِنَ المُلْكِ كالرَّهَبُوتِ مِنَ الرَّهْبَةِ، وَهُوَ المُلْكُ والعِزُّ»[5].

فالكلمتان مشتركتان في كونهما على نفس الصيغة الصرفية، والوزن «فعلوت» (وزن الكلمتين) من الأوزان المستخدمة بقلة، فلم يأت إلا في هاتين الكلمتين وكلمتين أخريين هما رحموت ورهبوت كما قيل في المثل: «رَهَبُوتٌ

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج٤ ص١١٣ + الطيبي – شرح المشكاة – ج٤ ص١١٨٧.

(٢) الطيبي – شرح المشكاة – ج٤ ص١١٨٧.

(٣) الطيبي – شرح المشكاة – ج٢ص٥٧٢ حديث رقم١٠٩.

(٤) الطيبي – شرح المشكاة – ج٢ص٥٧٢.

(٥) ابن منظور – لسان العرب – ج١٠ ص٤٩٢ + ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث والأثر – ج٤ ص٣٥٩.

خَيرٌ مِنْ رَحَمُوتٍ» أَي لأَن ترْهَبَ خَيرٌ مِنْ أَنْ تُرْحَمَ[1]، فهو وزن قليل الاستخدام نادر الاستعمال، وجبروت وملكوت اسما مصدر، فقد عدل النبي ﷺ عن المصدر إلى اسم المصدر فترك الجبر والملك واستعمل الجبروت والملكوت؛ لأن الجبر والقهر وإن كانت من صفات البشر إلا أنها فيهم نسبية محدودة، أما في الله ﷻ فهي لا نهائية لا تحدها الحدود، فعدل النبي عن استعمال المصدر الصريح الشائع إلى اسم المصدر النادر لأنه جاء نعتًا لله ﷻ، قال تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: الآية ٢٦]، فحينما أراد نسبة الملك للبشر قال «تؤتي الملك» ولم يقل الملكوت، وفي نسبة الملك له وحده سبحانه قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

٦- لامّة

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يعوذ الْحسن وَالْحسن: «أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ» وَيَقُولُ: «إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يعوذ بهما إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[2].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (لامة) وفعلها (ألمّ) الثلاثي المزيد بحرف وهو الهمزة، فعلى هذا يكون اسم الفاعل منها «ملمّ» الذي مؤنثه ملمة،

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج١ ص٤٣٦.

(٢) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج١ ص٤٨٦ حديث رقم ١٥٣٥.

ولكن النبي ﷺ عدل عن الصيغة الصرفية الصحيحة إلى أخرى اقتضاها الكلام. قال صاحب اللسان: «(وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّة) قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: قَالَ لامَّة وَلَمْ يَقُلْ مُلِمَّة، وَأَصْلُهَا مِنْ أَلْمَمْت بِالشَّيْءِ تأْتيه وتُلِمّ بِهِ ليُزاوِج قَوْلَهُ مِنْ شرِّ كُلِّ سَامَّةٍ، وَقِيلَ: لأَنه لَمْ يُرَد طريقُ الْفِعْلِ، وَلَكِنْ يُراد أَنَّهَا ذاتُ لَمَمٍ فَقِيلَ عَلَى هَذَا لامَّة كَمَا قَالَ النَّابِغَةُ: كِلِيني لِهَمٍّ، يَا أُمَيْمة، ناصِب وَلَوْ أَرَادَ الْفِعْلَ لَقَالَ مُنْصِب»[1].

قال الطيبي: «(عين لامة) أراد ذات لمم؛ ولذلك لم يقل: ملمة. وأصلها من ألمت بالشيء وقيل: (لامة) لازدواج قوله: (هامة). وعن بعضهم: الأصل فيه ملمة؛ لأنها فاعل ألمت، إلا أنه ﷺ قصد المشاكلة في الفواصل»[2].

هي مشابهة الأمر ومشاكلة الموقف، وليست هذه المشابهة أو تلك المشاكلة سوى سنة الله في خلقه يجري عليها الناس، هي ظروف الموقف وطبيعته، أملت ما اضطررت إليه وحملت عليه، واقتضت أن يكون مسلكك ما ليس إياه عادة، وهي مراعاة الموقف أيا ما كان كلاما أم مذهبا أم لفظا وليس هذا بمستنكر ولا بمستقبح عند العرب.

وفي النحو مثلا تجد المجرور بالمجاورة في قولهم: «هذا جحر ضب خربٍ»[1]. والخرب نعت الجحر لا نعت الضب إذ«للجوار حق في كلام العرب»[2]، وعلى هذا قول امرئ القيس:

---

(١) لسان العرب – ابن منظور – ج١٢ ص٥٥٢.

(٢) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٤ ص١٣٣٨.

كـــأن ثبيـــرا في عـــرانين وبلـــه كبيـــر أنـــاس في بجـــاد مزمـــل

فالمزمل نعت للكبير لا نعت البجاد، وحقه الرفع ولكنه خفض للجوار، وكما قال الآخر:

يـــا ليـــت شـــيخك قـــد غـــدا متقلـــــدا ســـــيفا ورمحـــــا

والرمح لا يتقلد وإنما قال ذلك لمجاورته السيف، وكما قالوا: «هو يأتيه بالغدايا والعشايا» ولا يقال الغدايا إذا أفردت عن العشايا لأنها الغدوات[٣].

المشاكلة أوالمحاذاة أو المزاوجة وردت عن النبي ﷺ في غير ما حديث، قال ﷺ: «خذوها يا بني عبد الدار خَالِدَةً تَالِدَةً لا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلا ظَالِمٌ»[٤] يعني مفتاح البيت والأصل تليدة أي قديمة وإنما جاءت تالدة للمشاكلة.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ «كانَ إِذَا أَتى مَرِيضـًا أَوْ أُتِيَ بِهِ قَالَ: أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبِّ النَّاسِ اشْفِ وَأَنْتَ الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما» بغير همز للمؤاخاة وأصله الهمز أي الشدة والعذاب[٥].

(١) انظر الثعالبي – فقه اللغة – ص٢٢٤ – ط١.

(٢) انظر الثعالبي – فقه اللغة – ص٢٢٤.

(٣) انظر الثعالبي – فقه اللغة – ص٢٢٥.

(٤) انظر أبو سليمان الخطابي – غريب الحديث ج٢ ص٢٨.

(٥) انظر المناوي – فيض القدير – ج٥ ص٨٦.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «(ارْجِعْنَ مَأْزُوراتٍ غَيْرَ مَأْجُوراتٍ) (ارجعن) أيها النساء اللاتي جلسن ينتظرن جنازة ليذهبن معها (مأزورات) أي آثمات والقياس موزورات لأنه من الوزر ضد الأجر وإنما قصد الازدواج لقوله (غير مأجورات) والمشاكلة بين الألفاظ من مطلوبهم كما ذكره ابن يعيش والعسكري[1].

هو أمر منه ﷺ يحتاج لمن سمعه أن يعيه ويحفظه، فلجأ النبي ﷺ إلى المشاكلة؛ ليسهل الكلام فيحفظ عنه فالعدول عن الأصل وإن كان فيه خلاف الشائع المعروف إلا أنه قد أتى بثمرته المرجوة، لا سيما إذا كان العرب قد دأبوا على هذا في كلامهم إن احتاجوا إليه.

وروي عنه أيضا: «خير المَال سكَّة مأبورة ومهرة مأمورة» سِكَك هِيَ الطَّرِيقَة المصطفة من النّخل وَمِنْهَا قيل للأزقة: سِكَك لاصطفاف الدّور فِيهَا. والمأبورة: الملقحة وَقيل: المُرَاد سكَّة الحراثة. والمأبورة: الْمصلحَة قَالَ:

فإنْ أَنْتِ لم تَرْضَىْ بسَعْيِي فاتْرُكِي لِـيَ البيـتَ آبُـرْه وكُـوني مَكانِيَـا

أَي أصلحه. الْمَأْمُورَة: الْكَثِيرَة النِّتَاج وَكَانَ يَنْبَغِي أَن يَقُول المؤمرة وَلَكِن زاوج بهَا الْمَأْبُورَة كَمَا قَالَ: مَأْزُورَات غير مَأْجُورَات[2].

ويسميه أبو علي القالي الاتباع، ويراه القالي أنه قسمان: ضرب يكون فيه الثاني بمعنى الأول فيؤتى به تأكيدا لأن لفظه مخالف للفظ الأول، وضرب فيه

(١) انظر المناوي – فيض القدير – ج١ ص٤٧٣.

(٢) الزمخشري – الفائق في غريب الحديث – ج٢ ص١٨٩.

معنى الثاني غير معنى الأول. ومثال الأول: غنيّ مليّ وهو بمعنى غني، ومثال الثاني: هذر مذر فإن الأول كثير للكلام والثاني من مذرت البيضة أي فسدت[1].

٧- مئنة

عَنْ عَمَّارٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ فَأَطِيلُوا الصَّلَاة واقصروا الْخطْبَة وَإِن من الْبَيَان سحرًا» رَوَاهُ مُسلم[2].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ «مئنة» قال صاحب اللسان: «والمَئِنَّةُ: العَلامة، وَيُقَالُ: أَنا أَمأَنُه أَي أُحْسنه، وأَنشد:

إِذَا مَا عَلِمتُ الأَمر أَقرَرْتُ عِلْمَه ... وَلَا أَدَّعي مَا لستُ أَمْأَنُه جَهْلا

كَفَى بامرئٍ يَوْمًا يَقُولُ بعِلْمِه ... وَيَسْكُتُ عَمَّا لَيْسَ يَعْلَمُه، فَضْلا

قَالَ الأَصمعي: سأَلني شُعْبَةُ عَنْ هَذَا فَقُلْتُ مَئِنَّة أَي عَلَامَةٌ لِذَلِكَ وخَلِيقٌ لِذَلِكَ قَالَ الرَّاجِزُ:

إِنَّ اكْتِحالًا بالنَّقِيِّ الأَبْلَجِ ... ونَظَراً فِي الحاجِبِ المُزَجَّجِ

مَئِنَّةٌ مِنَ الفَعالِ الأَعْوَجِ»[3].

---

(١) أبو علي القالي – الأمالي – ج٢ ص٢٠٩ ط٢.

(٢) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج١ ص٤٤٢ حديث رقم١٤٠٦.

(٣) ابن منظور – لسان العرب – ج١٣ ص٣٩٧.

قال ابن الأثير: «(مَئِنّة مِنْ فِقْه الرجُل) أَيْ إِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُعَرف بِهِ فِقْهُ الرَّجُلِ. وَكُلُّ شَيْءٍ دَلّ عَلَى شَيْءٍ فَهُوَ مَئِنّةٌ لَهُ، كالمَخْلَقة والمَجْدَرة. وحقيقتُها أَنَّهَا مَفْعِلة مِنْ مَعْنَى «إِنَّ» الَّتِي لِلتَّحْقِيقِ وَالتَّأْكِيدِ، غَيْرُ مُشْتَقَّة مِنْ لفظِها، لِأَنَّ الْحُرُوفَ لَا يُشْتَق مِنْهَا، وَإِنَّمَا ضُمِّنَت حروفَها، دَلالةً عَلَى أَنَّ مَعْنَاهَا فِيهَا. وَلَوْ قِيلَ: إِنَّهَا اشْتُقَّت مِنْ لفظِها بَعْدَ مَا جُعِلَت اسْمًا لَكَانَ قوْلاً»[1].

وَمِنْ أغْرب مَا قِيلَ فِيهَا: «أَنَّ الْهَمْزَةَ بَدَلٌ مِنْ ظَاءِ المَظِنّة، وَالْمِيمُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ زَائِدَةٌ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا مما يُسْتدلّ به على فِقه الرجل»[2].

فالكلمة اختلِف في اشتقاقها اختلافا كثيرا، فمنهم من يراها مشتقة من حرف التوكيد الناسخ (إنَّ) ليكون معنى الكلام إن من فقه الرجل طول صلاته وقصر خطبته، ومنهم من يراها بمعنى (مظنة) وأن الظاء قلبت همزة وظن تستخدم بمعنى الرجحان فأنت ترجح فقه الرجل إذا رأيت منه النعت المذكور في الحديث، ومنهم من يراها مشتقة من الفعل (مأن) فتكون مئنة على هذا النحو بمعنى العلامة على الشيء، على أنها لم تخرج عما وضعت له من كونها العلامة والدليل على فقه الرجل.

---

(١) ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث والأثر – ج٤ ص٢٩٠ + الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج٤ ص١٢٨٢.

(٢) ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث والأثر – ج٤ ص٢٩٠+ المناوي – فيض القدير شرح الجامع الصغير – ج٢ ص٤٥٧.

قال القاسم بن سلام: «كل شَيْء دلّك على شَيْء فَهُوَ مئنة لَهُ قَالَ الشَّاعِر:

فتهامَسُوا شَيْئا فَقَالُوا عَرَّسُوا من غَير تَمْئِنَةٍ لغير مُعَرَّسِ»[1].

وَأنْشد أبو زيد:

ومَنْزِلٍ مِنْ هَوَى جُمْلٍ نَزَلْتُ بِهِ مَئِنَّة مِنْ مَرَاصِيدِ المنِيَّات

وَيُقَال إِن هَذَا الْمَسْجِد مئنة للفقهاء. وَأَنت عمدتنا ومئنتنا. وحقيقتها أَنَّهَا مفعلة من معنى إِن التأكيدية كَقَوْلِهِم سَأَلتك حَاجَة فَلَا لَيْت فِيهَا. إِذا قَالَ. لَا لَا. وأنعم لى فلَان إِذا قَالَ نعم. وَالْمعْنَى مَكَان قَول الْقَائِل إِنَّه كَذَا. وَلَو قيل اشتُقَّتْ من لَفظهَا بَعْدَمَا جُعلت اسْما كَمَا أعربت لَيْت وَلَو ونونتا فى قَوْله.. إِن لوَّا وإنَّ ليتا عناء كَانَ قولا[2].

قال الخطابي: «مئنة معناه مظنة ومعلم وهذا غلط فاحش وليس هو كذلك وإنما هو تمئنة تفعلة من المأن على وزن الشأن. وهو من الثلاثي المعتل الحشو ومعناه التهيئة تقول العرب: ما مأنت مأنه ولا شأنت شأنه أي ما علمت علمه ولا تهيأت له. ومئنة مفعلة من الأن على وزن العن من باب المضعف فأين يلتقيان»[3].

(١) القاسم بن سلام – غريب الحديث – ج٤ ص٦١.

(٢) الزمخشري – الفائق في غريب الحديث – ج١ ص٦٣.

(٣) أبو سليمان الخطابي – غريب الحديث – ج٢ ص٢٥٩-٢٦٠.

والذي أراه أنها مشتقة من حرف التوكيد (إن) جاءت على وزن اسم المكان (مفعِل) فعلامة فقه الرجل هو موقفه الذي وقف فيه للخطبة وموقفه في الصلاة، فلما استدل النبي ﷺ على فقه الرجل بمكانه من الخطبة ومكانه من الصلاة أتى باسم المكان الدال على ذلك.

أما كون الهمزة منقلبة عن الظاء فهو بعيد لم يفعله أحد من الفصحاء ولا دأب عليه العرب في كلامهم، وحاشا النبي ﷺ أن يسير على غير ما سار عليه أهل زمانه، وهو أفصح العرب قاطبة.

الفصل الثالث

البلاغة في الغريب المجازي

قال عبد القاهر: «وأمّا المجاز فكلُّ كلمة أريد بها غيرُ ماوضعت له في وَضْع واضعها، لملاحظةٍ بين الثاني والأوّل، فهي مجاز وإن شئت قلت: كلُّ كلمة جُزْتَ بها ما وقعتْ به في وَضْع الواضع إلى ما لم توضع له، من غير أن تستأنف فيها وضعـًا، لملاحظةٍ بين ما تُجُوّز بها إليه، وبين أصلها الذي وُضعتْ له فيوضع واضعها، فهي مجاز. ومعنى الملاحظة هو أنها تستند في الجملة إلى غير هذا الذي تريده بها الآن، إلا أنّ هذا الاستنادَ يَقْوَى ويَضْعُف»[1] فقد تقوى العلاقة بين الكلمة وما وضعت له وقد تضعف وهذا بخلاف غرابة الكلمة التي لا يتوصل إلى معناها إلا بردها لباب المجاز ودلالتها في السياق فالمقصود بالغريب المجازي هو ما لا يتوصل إلى فهمه إلا من باب المجاز والاستعارة مع كونه غريبًا في ذاته لقلة تداوله على الألسن . وقد أشار إلى هذا النوع عبد القاهر في دلائل الإعجاز حيث يقول: «وتتأمل ما جَمَعهُ العلماءُ في غَريب القرآن فترى الغريبَ منه إلا في القليلِ،

(١) عبد القاهر الجرجاني – أسرار البلاغة – مطبعة المدني – القاهرة – دار المدني بجدة – ت محمود شاكر – ط١ – ص٣٥١ – ٣٥٢.

إنما كان غريباً من أَجْل استعارةٍ هي فيهِ، كمِثْل ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣]، ومثْل: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾، ومثْلِ ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾»[1].

وكلمات هذا الباب ذات شقين في البحث: الشق الأول: أنها كلمات غريبة من الناحية المعجمية لقلة تداولها على الألسن وعمدتي في عد الكلمة من الغريب هو استخدام النبي ﷺ للكلمة مرة أو مرتين، فإننا إذا نظرنا إلى كلمة مثل (الصلاة) فسنجدها قد تكررت في أحاديث النبي ﷺ مئات المرات، وإذا نظرنا إلى كلمة مثل (يأرز) الموجودة في حديث النبي ﷺ: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تأرز الحيية إِلَى جحرها» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)[2] فسنجدها قد جاءت في هذا الموضع فقط حكاية عن اجتماع الإيمان في المدينة وانضمامه إليها.

إضافة إلى ذلك أن يكون ابن الأثير قد عدها من الغريب في كتابه غريب الحديث فكتابه عمدة في هذا المضمار لأنه قد حوى كل الدراسات السابقة عليه في هذا الميدان.

الشق الثاني: أن تكون هذه الكلمة الغريبة قد وضعت في مكانها مجازًا وليس على الحقيقة، وعملي في الكلمة هو بيان معنى الكلمة في الحقيقة ومحاولة الربط بين الكلمة في معناها الحقيقي ومعناها المجازي في الحديث، وبيان قيمة استخدام النبي ﷺ للكلمة في هذا الموضع على المجاز وإظهار ملاءمة الكلمة للسياق الذي

(١) عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص٣٩٧.

(٢) التبريزي– المشكاة – ج١ ص٥٦ حديث رقم ١٦٠.

قيلت فيه، معولًا في ذلك على شرح الطيبي لمشكاة المصابيح، وفيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي وغيرهما؛ حيث قد عنيا بإبراز النواحي البلاغية في أحاديث رسول الله ﷺ مفتتحا بلسان العرب لابن منظور الذي قد حوى بدوره تعليقات كثيرة على الأحاديث النبوية وتناول شرح الكلمة من ناحية الحقيقة والمجاز.

يقول الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه على ألفية السيوطى مشيرًا إلى هذا النوع من الغريب: «هذا الفن من أهم فنون الحديث واللغة، ويجب على طالب الحديث إتقانه، والخوض فيه صعب، والاحتياط في تفسير الألفاظ النبوية واجب، فلا يقدمن عليه أحد برأيه ... ثم إن من أهم ما يلحق بهذا النوع البحث فى المجازات التى جاءت فى الأحاديث، إذ هى عن أفصح العرب ﷺ، ولا يتحقق فى معناها إلا أئمة البلاغة، ومن خير ما ألف فيها كتاب المجازات النبوية تأليف الإمام العالم الشاعر الشريف الرضي»[1] فهو يدرك أن هناك ألفاظًا في الأحاديث النبوية لم تأت على معناها الحقيقي بل استعملت في باب المجاز، لذا لا يتصدى لتفسيرها إلا من بلغ شأوًا في البلاغة، ورسخت أقدامه في علوم البيان.

(١) ألفية السيوطي، ومعه تعليق الشيخ أحمد شاكر، ص ٢٠١-٢٠٢.

١- التحريش

عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِن الشَّيْطَان قد أيس أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنَّ فِي التحريش بَينهم» رَوَاهُ مُسلم[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ: (التحريش) قال صاحب اللسان: «والتَحْرِيش: إِغراؤُك الإِنسانَ والأَسد لِيَقَعَ بِقِرْنِه. وحَرَّش بَيْنَهُمْ: أَفْسد وأَغْرى بعضَهم ببَعض. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: التَّحْرِيشُ الإِغراء بَيْنَ الْقَوْمِ وَكَذَلِكَ بَيْنَ الْكِلَابِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «أَنه نَهَى عن التحْريش بَيْنَ الْبَهَائِمِ» هُوَ الإِغراء وَتَهْيِيجُ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ كَمَا يُفْعل بَيْنَ الْجِمَالِ والكِباش والدُّيُوك وَغَيْرِهَا. وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: «وَلَكِنْ فِي التَّحريش بَيْنَهُمْ» أَي فِي حَمْلهم عَلَى الفِتَنِ والحُروب»[2].

وتستخدم لصيد الضب والإيقاع به «وحَرَشَ الضبَّ يَحْرِشُه حَرْشًا واحْتَرَشَه وتَحَرَّشَه وتحرَّش بِهِ: أَتى قَفا جُحْرِه فَقَعْقَعَ بِعصاه عَلَيْهِ وأَتْلَج طَرَفها فِي جُحْره، فإِذا سَمِعَ الصوتَ حَسِبَه دَابَّةً تُرِيدُ أَن تَدْخُلَ عَلَيْهِ، فَجَاءَ يَزْحَل عَلَى رِجْليه وعجُزِه مُقاتلًا وَيَضْرِبُ بذنَبه، فناهَزَه الرجُلُ أَي بَادَرَهُ فأَخَذ بذنَبه فضَبَّ عَلَيْهِ أَي شَدَّ القَبْض فَلَمْ يَقْدِرْ أَن يَفِيصَهُ أَي يُفْلِتَ مِنْهُ وأنشد كُثَيِّر:

ومُحْتَرِش ضَبَّ العَدَاوَة مِنْهمُ بِحُلْو الخَلى، حَرْشَ الضِّباب الخَوادِع

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج١ ص٢٧ الحديث رقم ٧٢.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج ٦ ص ٢٧٨ + وانظر إبراهيم الحربي – غريب الحديث – ج١ ص٢٨٥.

يُقَالُ: إنه لَحُلْو الخَلى أَي حُلْو الْكَلَام؛ ووَضَع الحَرْشَ موضعَ الِاحْتِرَاشِ لأَنَّه إِذا احْتَرَشَه فَقَدْ حَرَشَه، وَالِاحْتِرَاشُ فِي الأَصل الجَمْع والكسْب والخِداع»[1].

وقعت هذه الكلمة في سياق يخبر فيه النبي ﷺ أن الجزيرة العربية صارت دارًا للإسلام ولن يتمكن الكفار من بسط نفوذهم مرة أخرى على الجزيرة العربية، ولكن الشيطان بسعيه الدائب الحثيث على إغواء البشر لن يكف عن إضلال الناس والإيقاع بينهم فاستعمل النبي ﷺ لفظة (التحريش) لما يقع بين الناس من عداوات ومفاتن بسبب وسوسة الشيطان وسعايته للوقيعة بين بني آدم وهي استعارة مكنية لأن التحريش هو الإغراء والتهييج بين البهائم، ولما استجاب الناس لغواية الشيطان صاروا كالبهائم التي تتصارع وتتضارب، فالنبي ﷺ شبههم – حين استجابوا لنزغات الشيطان – بالبهائم التي تتصارع دونما سبب.

قال المناوي: (ولكن في التحريش بينهم) أي يسعى في التحريش أي في إغراء بعضهم على بعض وحملهم على الفتن والحروب والشحناء و يخدعهم ويغري بعضهم على بعض[2].

لما ذكر العبادة سماهم المصلين تعظيما لهم، وحيث ذكر الفتنة أخرجه مخرج التحريش – وهو الإغراء بين الكلاب – توهينا وتحقيرا لهم[3].

---

(١) ابن منظور – لسان العرب ج ٦ ص ٢٧٨.

(٢) المناوي – فيض القدير شرح الجامع الصغير ج٢ ص ٣٥٦.

(٣) انظر الطيبي – شرح المشكاة ج٢ ص٥٢٥.

فهي بلا ريب صورة مقيتة تأباها الفطر السليمة تحذر من الوقوع في الفتن والانسياق وراء نزغات الشيطان والاستسلام لوساوسه التي توقع بين الناس وتخرجهم عن إنسانيتهم إلى هيئة كهيئة الحيوان المثار.

٢- تغيض

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَدُ اللهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُذْ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَع» وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «يَمِينُ اللهِ مَلْأَى قَالَ ابْنُ نُمَيْرٍ مَلْآنُ سَحَّاءُ لَا يُغِيضُهَا شَيْءٌ اللَّيْل والنهار» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)(١).

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ: (تغيض) قال صاحب اللسان: «غاضَ الماءُ يَغِيضُ غَيْضاً: نقَص أَو غارَ فذهبَ، وَفِي الصِّحَاحِ: قَلَّ فنضَب. وَفِي حَدِيثِ سَطيح: «وغاضَت بُحَيْرةُ ساوَةَ» أَي غارَ مَاؤُهَا وذهَب. وَفِي حَدِيثِ خُزيمة فِي ذِكْرِ السَّنة: «وغاضَت لَهَا الدِّرّة» أَي نقصَ اللَّبنُ. وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ تَصِف أَباها، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «وأغاضَ نَبْعَ الرِّدَّةِ» أَي أَذْهَب مَا نَبع مِنْهَا وظَهر»(٢).

قال الطيبي: (لا يغيضها) استعارة تبعية للتغيّض؛ لأن الحقيقة تغيض الماء، قال الله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ [هود: ٤٤]، وكذلك (سحاء)؛ لأنه من صفة الماء،

(١) التبريزي – المشكاة – ج١ ص٣٣.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج ٧ ص ٢٠١.

يقال: سح يسح سحا فهو ساح، والمؤنث سحاء[1]. فقوله سحاء بعد الاستعارة في قوله تغيض من باب الترشيح للاستعارة؛ لأنها وصف للماء المنهمر.

والحديث ينعت فيه النبي ﷺ عطاء الله ﷻ وسعة ما في يده من النعم التي لا يحصيها العدد ولا يحدها مكان فلما كان الأمر كذلك أراد النبي ﷺ أن يقرب الصورة في أذهانهم فاستعمل كلمة (تغيض) وهي استعارة لخزائن الله وما فيها من النعم، لما كان أعظم ما يمكن أن يراه العربي في ذلك الوقت هو البحر بمائه الذي لا ينفد استعار النبي ﷺ كلمة (تغيض) التي تدل على ذهاب الماء في الأرض واختفائه ولما كان لا يمكن عقلا مع ماء البحر أو المحيط جعله النبي مثلا لنعم الله التي لا تفنى ولا تنفد.

٣- حواريون

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا من نَبِي بَعثه الله فِي أمة قبلي إِلَّا كَانَ لَهُ من أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ» رَوَاهُ مُسلم[2].

(١) الطيبي – شرح المشكاة ج٢ ص٥٥٢.

(٢) التبريزي – المشكاة – ج١ ص٥٥ حديث رقم ١٥٧.

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ: (حواريون) قال صاحب اللسان: «والتَّحْوِيرُ: التَّبْيِيضُ. والحَوارِيُّونَ: القَصَّارُونَ لِتَبْيِيضِهِمْ لأَنهم كَانُوا قَصَّارِينَ ثُمَّ غَلَبَ حَتَّى صَارَ كُلُّ نَاصِرٍ وَكُلُّ حَمِيمٍ حَوارِيّاً. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الحَوارِيُّونَ صَفْوَةُ الأَنبياء الَّذِينَ قَدْ خَلَصُوا لَهُمْ؛ وَقَالَ الزَّجَّاجُ: الْحَوَارِيُّونَ خُلْصَانُ الأَنبياء، عليهم السلام، وَصَفْوَتُهُمْ. وتأْويل الْحَوَارِيِّينَ فِي اللُّغَةِ الَّذِينَ أُخْلِصُوا ونُقُّوا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ؛ وَكَذَلِكَ الحُوَّارَى مِنَ الدَّقِيقِ سُمِّيَ بِهِ لأَنه يُنَقَّى، قَالَ: وتأْويله فِي النَّاسِ الَّذِي قَدْ رُوجِعَ فِي اختِياره مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ فَوُجِدَ نَقِيّاً مِنَ الْعُيُوبِ»[1].

وَقِيلَ لأَصحاب عِيسَى، عليه السلام: الْحَوَارِيُّونَ، والحَوارِيُّ: البَيَّاضُ، وَهَذَا أَصل قَوْلُهُ ﷺ فِي الزُّبَيْرِ: حَوارِيَّ مِنْ أُمَّتي، وَهَذَا كَانَ بدأَه لأَنهم كَانُوا خُلَصَاءَ عِيسَى وأَنصاره، وأَصله مِنَ التَّحْوِيرِ التَّبْيِيضُ، وإِنما سُمُّوا حَوَارِيِّينَ لأَنهم كَانُوا يَغْسِلُونَ الثِّيَابَ أَي يُحَوِّرُونَها، وَهُوَ التَّبْيِيضُ؛ وَمِنْهُ الخُبْزُ الحُوَّارَى؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: امرأَة حَوارِيَّةٌ إِذا كَانَتْ بَيْضَاءَ. قَالَ: فَلَمَّا كان عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ، عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ السَّلَامُ، نَصَرَهُ هَؤُلَاءِ الْحَوَارِيُّونَ وَكَانُوا أَنصاره دُونَ النَّاسِ قِيلَ لِنَاصِرِ نَبِيِّهِ حَوارِيٌّ إِذا بَالَغَ فِي نُصْرَتِه تَشْبِيهًا بأُولئك[2].

استعمل النبي ﷺ هذه الكلمة لتدل على الفئة التي تنصر نبيها، والطائفة التي تعزز دينها، وهي استعارة تصريحية، شبه فيها النبي ﷺ أصحابه بأصحاب عيسى

(١) ابن منظور – لسان العرب ج٤ ص٢١٩ + وانظر الطيبي – شرح المشكاة ج٢ ص٦٢.

(٢) انظر ابن منظور – لسان العرب ج٤ ص٢١٩.

عليه السلام الذين نصروه وكانوا يعملون حواريين أي يبيضون الثياب فهي مهنة استخدمت لفظتها بعد ذلك لكل ناصر لنبيه ونراه قد حذف المشبه وصرح بالمشبه به إشارة لتماثل الاثنين في ذات الصفة.

فأصل الكلمة استعمل لمن يبيض الثياب والدقيق الأبيض المنخول المصفى من قشرته والمرأة البيضاء والأمر الذي روجع أكثر من مرة ثم استعمل مجازا فيمن ينصر نبيه تشبيها بأنصار عيسى الذين كانوا يعملون بهذه المهنة قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[آل عمران: ٥٢].

٤- يأرز

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تأرز الحيية إِلَى جحرها» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)(١).

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ: (تأرز)، قال صاحب اللسان: «وأَرَزَتِ الحيةُ تأْرِزُ: ثَبَتَتْ فِي مَكَانِهَا، وأَرَزَتْ أَيضاً: لَاذَتْ بِجُحْرِهَا وَرَجَعَتْ إِليه. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِن الإِسلام ليأْرِزُ إِلى الْمَدِينَةِ»، قَالَ الأَصمعي: يأْرِزُ أَي يَنْضَمُّ إِليها وَيَجْتَمِعُ بَعْضُهُ إِلى بَعْضٍ فِيهَا. وَمِنْهُ كَلَامُ عَلِيٍّ، عليه السلام: حَتَّى يأْرِزَ الأَمْرُ إِلى غَيْرِكُمْ. والمَأْرِزُ: المَلْجَأُ. وَقَالَ الضَّرِيرُ: الأَرْزُ أَيضاً أَن تَدْخُلَ الْحَيَّةُ جُحْرَهَا عَلَى ذَنَبِهَا فَآخِرُ مَا يَبْقَى مِنْهَا رأْسها فَيَدْخُلُ بَعْدُ، قَالَ: وَكَذَلِكَ الإِسلام خَرَجَ مِنَ

(١) التبريزي – المشكاة – ج١ ص٥٦ حديث رقم ١٦٠.

الْمَدِينَةِ فَهُوَ يَنْكُصُ إِلَيها حَتَّى يَكُونَ آخِرَهُ نُكُوصًا كَمَا كَانَ أَوّله خُرُوجًا، وإِنما تأْرِزُ الْحَيَّةُ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ إِذا كَانَتْ خَائِفَةً، وإِذا كَانَتْ آمِنَةً فَهِيَ تبدأُ برأْسها فَتَدْخُلُهُ وَهَذَا هُوَ الِانْجِحَارُ»[1].

استعملها النبي ﷺ دلالة على اجتماع الإيمان وانضمامه داخل المدينة في آخر الزمان كما خرج منها في عهده الأول، حيث كانت المدينة أول دولة للمسلمين، وقد استعار النبي ﷺ كلمة (تأرز) التي هي بمعنى اجتماع الحية داخل جحرها للدلالة على ذلك، لما دلت عليه الكلمة في المعجم من سرعة الالتجاء إلى الجحر، كما أن ذلك الجحر هو بيتها الذي ألفته وعرفته فهي لا تشعر بالأمن بعد الخوف الذي أصابها إلا فيه، كذلك المدينة المنورة، فهي مأوى الإسلام الأول، وإليه يعود الإسلام ويجتمع في زمن غربته بسائر المدائن.

قال المناوي: «(كما تأرز...) أي كما تنضم وتلجأ إليه إذا انتشرت في طلب ما تعيش به فراعها شيء فرجعت إلى جحرها فكذلك أهل الإيمان يقال أرزت الحية إذا رجعت إلى ذنبها القهقرى شبه انضمامهم إليها بانضمام الحية إذا رجعت لأن حركتها أشق لمشيها على بطنها والهجرة إليها كانت مشقة كما يشير إليه لفظ يأرز الذي حروفه شديدة دون تنضم. قال القاضي: معناه أن الإيمان أولا وآخرا بهذه الصفة. وفي التشبيه رمز إلى أنهم ينضمون إليها بلا عوج كدخول الحية جحرها فإنه بلا عوج»[2].

---

(١) ابن منظور – لسان العرب ج٥ ص٣٠٥.

(٢) انظر المناوي – فيض القدير شرح الجامع الصغير ج٢ ص ٣٢٤.

شبه الإيمان وفرار الناس من آفات المخالفين والتجاءهم إلى المدينة – بانضمام الحية في حجرها، ولعل هذه الدابة أشد فراراً وانضماماً من غيرها، فشبه بها بمجرد هذا المعنى، فإن المماثلة يكفي في اعتبارها بعض الأوصاف[1].

الانتقال المفاجئ من الهمزة التي تنطق من أقصى الحلق إلى الراء والزاي اللذين ينطقان من طرف اللسان يشعرك بسرعة الحركة التي تحركتها الحية للعودة إلى جحرها، كما نلمس أن صفات الحروف هي الأخرى أدت مهمتها في أداء المعنى فهذه الألف بشدتها وانحباس الصوت عند النطق بها يوحي بهول الصدمة التي تعرضت لها الحية، والراء متوسطة بين الشدة والرخاوة توحي ببدء حركتها لكنها في سرعة غير مكتملة بعد، ثم تأتي الزاي الرخوة التي يجري بها الصوت بلا عائق فتجعلك تشعر بأن الحية قد أخذت بالهرب في أقصى سرعة لها.

٥- غرًا محجلين

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِن أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غرته فَلْيفْعَل» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)[2].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ: (غرا محجلين)، قال صاحب اللسان:«غُرّةُ الفرسِ: البياضُ الَّذِي يَكُونُ فِي وَجْهِهِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «غُرٌّ مُحَجَّلُونَ

(١) انظر الطيبي – شرح المشكاة – ج٢ ص٦٢٧.

(٢) الطيبي – شرح المشكاة ج٣ ص٨٤٧ الحديث رقم ٢٩٠.

مِنْ آثارِ الوُضوء» الغُرُّ: جَمْعُ الأَغَرّ مِنَ الغُرّة بياضِ الْوَجْهِ، يُرِيدُ بياضَ وُجُوهِهِمْ بِنُورِ الوُضوء يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

قَالَ ابْنُ الأَثير في بيان معنى (الخيل المحجل): «هُوَ الَّذِي يَرْتَفِعُ الْبَيَاضُ فِي قَوَائِمِهِ فِي مَوْضِعِ الْقَيْدِ وَيُجَاوِزُ الأَرساغ وَلَا يُجَاوِزُ الرُّكْبَتَيْنِ لأَنها مَوَاضِعُ الأَحجال، وَهِيَ الْخَلَاخِيلُ وَالْقُيُودُ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ أَي بِيض مَوَاضِعِ الْوُضُوءِ مِنَ الأَيدي وَالْوَجْهِ والأَقدام، اسْتَعَارَ أَثر الْوُضُوءِ فِي الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ للإِنسان مِنَ الْبَيَاضِ الَّذِي يَكُونُ فِي وَجْهِ الْفَرَسِ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ»[2].

يخبر النبي ﷺ عن الهيئة التي تأتي عليها أمته يوم القيامة، فيقول إنه يعرف أتباعه يوم القيامة؛ لأن لهم سيمة تميزهم عن باقي الأمم وهي بياض الجبهة وبياض اليدين والرجلين موضع الوضوء، حيث استعار النبي ﷺ كلمة الغر ومفردها الأغر وهي تطلق على الفرس الذي في جبينه بياض، كما أن الفرس المحجل هو الفرس الذي في قوائمه بياض مخالف للونه الأصلي، فهو ﷺ يريد بيان ما لأمته من الفضل يوم القيامة بسبب إسباغ الوضوء، والاستعارة في الحديث نابعة من حياة الجزيرة العربية وما فيها من مظاهر، فجاءت ملائمة لمقتضى الحال، حيث استبعد أصحابه بداهة أن يتعرف رسول الله أمته يوم القيامة وسط هذا الحشد من البشر من لدن آدم إلى قيامة الساعة، فصور النبي ﷺ الناس بخيول

(١) ابن منظور – لسان العرب ج٥ ص١٥.

(٢) ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث ج١ ص٣٤٦ + الطيبي – شرح المشكاة ج٣ ص٨٤٧.

دُهم بُهم وأتباعه بينهم بخيل غر محجلة، ألا يستطيع صاحب الخيل الغر المحجلة أن يعرف خيله؟

قال المناوي: «أصل الغرة لمعة بيضاء بجبهة الفرس ثم استعملت في الجمال والشهرة وطيب الذكر والمراد بها هنا النور الكائن في وجوه هذه الأمة والتحجيل بياض في ثلاث من قوائم الفرس أصله الحجل بكسر الحاء الخلخال والمراد به أيضا هنا النور. وقال الأشرف: غر جمع أغر وهو الأبيض الوجه والمحجل من الدواب ما قوائمه بيض مأخوذ من الحجل وهو القيد كأنه مقيد بالبياض وأصله في الخيل»[1].

ويحتمل أن يكون (غراً) مفعولاً ثانيًا ليدعون، كما يقال: فلان يدعى ليثًا، فالمعنى أنهم يسمون بهذا الاسم لما يرى عليهم من آثار الوضوء. والمعنى هو الأول، يدل عليه قوله ﷺ: (يأتون يوم القيامة غراً محجلين)؛ لأنهما العلامة الفارقة بين هذه الأمة وبين سائر الأمم. ولا تبعد التسمية باعتبار الوصف الظاهر، كما يسمى رجل به حمرة بأحمر؛ للمناسبة بين الاسم والمسمى، وهو أظهر؛ لأن القصد هو الشهرة والتمييز في الأصل المستعار منه، وقد ضرب بهما مثلاً في المعاني، قال مروان بن أبي حفصة:

تشابه يوماه علينا فأشكلا فما نحن ندري أي يوميه أفضل

(١) المناوي – فيض القدير شرح الجامع الصغير – ج٢ ص ١٨٤.

أيـوم نـــداه الغمـر أم يـوم بأسـه ومـــا منهمـــا إلا أغـــر محجـــل[1]

٦- طول العنق

عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أعناقا يَوْم الْقِيَامَة» رَوَاهُ مُسلم[2].

الكلمة موضع البحث هي وصف النبي ﷺ المؤذنين يوم القيامة بطول العنق قال صاحب اللسان: «المؤذِّنون أَطول النَّاسِ أَعْناقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ لَهُ عُنُق فِي الْخَيْرِ أَي سَابِقَةٌ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ أَعمالًا، وَقِيلَ: يُغْفَرُ لَهُمْ مَدَّ صَوْتِهِمْ، وَقِيلَ: يُزَادونَ عَلَى النَّاسِ،َقيل: هُوَ مِنْ طُولِ الأَعْناقِ أَيِ الرِّقَابِ لأَن النَّاسَ يَوْمَئِذٍ فِي الْكَرْبِ، وَهُمْ فِي الرَّوْح والنشاط متطلعون مُشْرَئِبُّونَ لأَنْ يُؤذَنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ قَالَ ابْنُ الأَثير: وَقِيلَ أَراد أَنهم يَكُونُونَ يَوْمَئِذٍ رُؤَسَاءَ سَادَةً، وَالْعَرَبُ تَصِفُ السَّادَةَ بِطُولِ الأَعناق، وَرُوِيَ أَطولُ إِعْناقًا، بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ، أَي أَكثر إِسْرَاعًا وأَعجل إِلَى الْجَنَّةُ، وَفِي الْحَدِيثِ: لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ مُعْنِقًا صَالِحًا مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا أَي مُسْرِعًا فِي طَاعَتِهِ مُنْبَسِطًا فِي عَمَلِهِ»[3].

فـ(أطول الناس) معناه أكثرهم أعمالاً، يقال: لفلان عنق من الخير أي قطعة. وقال غيره: أكثرهم رجاءاً؛ لأن من يرجى شيئًا طال إليه عنقه، فالناس يكونون في

(١) انظر الطيبي – شرح المشكاة ج٣ ص٧٤٩.

(٢) التبريزي – المشكاة – ج١ ص٢٠٧ الحديث رقم٦٥٤.

(٣) ابن منظور – لسان العرب – ج١٠ ص٢٧٣.

الكرب، يشرئبون أن يؤذن لهم في دخول الجنة. وقيل: معناه الدنو من الله. وقيل: أراد أنهم لا يلجمهم العرق، فإن الناس يوم القيامة يكونون في العرق بقدر أعمالهم. وقيل: الأعناق الجماعة، يقال: جاء عنق من الناس، أي جماعة، ومعنى الحديث أن جمع المؤذنين يكون أكثر فإن من أجاب دعوتهم يكون معهم. وروى بعضهم: (إعناقا) بكسر الهمزة، أي إسراعـًا إلى الجنة[1].

اختلف شراح الحديث في معنى طول العنق فمنهم من جعله على الحقيقة فلا يعلم تأويله إلا الله، ومنهم من جعله على المجاز كناية عن التطلع لدخول الجنة، فهم أكثر الناس رجاء وطمعًا في دخول الجنة أو هم صدر الناس في هذا الموقف وسادته، ومنهم من رواها (إعناقًا) بكسر الهمزة أي إسراعا فحين إذن تكون على الحقيقة لا المجاز ولكن الرواية التي بين أيدينا بفتح الهمزة.

وتفسيرها بـ(أكثرهم أعمالاً) نحو قوله: ﷺ: (أسرعكن لحوقـًا بي أطولكن يدا) أي أكثركن عطاء، سمي العمل بالعنق باعتبار ثقله، قال الله (تعالى): ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٨]، فلما سمي العمل بالعنق جيء بقوله: (أطول الناس) كالترشيح لهذا المجاز، وكذلك اليد لما سمي بها العطاء أتبعها بالطول مراعاة للمناسبة[2]. ولما دل العنق على العمل مجازا كان من الملائم وصف العنق بالطول ترشيحا لهذا المجاز.

---

(١) انظر الطيبي – شرح المشكاة – ج٣ ص٩٠٨-٩٠٩.

(٢) انظر الطيبي – شرح المشكاة – ج٣ ص٩٠٨-٩٠٩.

وقوله: (أكثرهم رجاء) كناية رمزية، ولذلك علل بقوله: (لأن من يرجى شيئًا طال إليه عنقه)، وقوله: (الدنو من الله) هذا كناية تلويحية؛ لأن طول العنق يدل علي طول القامة، ولا ارتياب أن طول القامة ليس مطلوبًا بالذات، بل لامتيازهم عن سائر الناس وارتفاع شأنهم، كما وصفوا بالغر المحجلين للامتياز والاشتهار[1].

وقوله: (إنهم لا يلجمهم العرق) من هذه الكناية؛ لأن الوصف بطول القامة إما يكون للامتياز، وهو لرفعة الشأن كما سبق، أو للنجاة من المكروه. وقوله: (يكونون رؤساء) فيه استعارة: شبهوا بالأعناق، كما قيل: هم الرؤوس والنواصي والصدور. وقوله: (الأعناق الجماعة) فعلي هذا الطول مجاز عن الكثرة وقوله: (إعناقًا) أي إسراعًا، فعلي هذا الطول يحتمل الحقيقة، ويجوز أن يقال: إن طول العنق عبارة عن عدم التشوير والخجل، فإن الخجل متنكس الرأس متقلص العنق. قال الله تعالي: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾[السجدة: ١٢][2]. فجاء طول العنق بمعنى كثرة العمل والرجاء والقرب من الله والنجاة من أن يلجمهم العرق والرياسة على جميع الناس.

(١) انظر الطيبي – شرح المشكاة – ج٣ ص٩٠٨-٩٠٩.

(٢) انظر الطيبي – شرح المشكاة – ج٣ ص٩٠٨-٩٠٩.

٧- يخطر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «إذا نُودي للصَّلَاة أدبر الشَّيْطَان وَله ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ حَتَّى إِذَا قَضَى التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ اذْكُرْ كَذَا اذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَظَلَّ الرجل لَا يدْرِي كم صلى»(مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)(١).

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ: (يخطر) قال صاحب اللسان: «وخَطَرَ الشيطانُ بين الإنسان وقلبه أَوصل وَسْواسَهُ إِلى قلبه والخاطِرُ المُتَبَخْتِرُ يقال خَطَرَ يَخْطِرُ إِذا تَبَخْتَرَ عند الصَّوْلَةِ والنَّشَاطِ وهو التَّصَاوُل والوعيد قال الطرماح:

بالُوا مَخافَتَهُمْ على نِيرانِهِمْ واسْتَسْلَمُوا بعد الخَطِيرِ فَأَخْمِدُوا التهذيب

والفحل يَخْطِرُ بذنبه من الخُيَلاءِ وفي حديث مَرْحَبٍ «فخرج يَخْطِرُ بسيفه» أَي يَهُزُّهُ مُعْجبًا بنفسه مُتَعَرِّضًا للمبارزة أَو أَنه كان يَخْطِرُ في مشيه أَي يتمايل ويمشي مِشْيَةَ المُعْجبِ وسيفه في يده ويقال خَطَرَ البعيرُ بذنبه يَخْطِرُ إِذا رفعه وحَطَّهُ وإِنما يفعل ذلك عند الشَّبَعِ والسِّمَنِ»(٢). قال الطيبي: (يخطر الشيطان) المعنى أن الشيطان يدخل ويحجز بينهما بوسوسة القلب، فلا يتمكن من الحضور في الصلاة(٣).

---

(١) التبريزي – المشكاة – ج١ ص٢٠٧ الحديث رقم٦٥٥.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج٤ ص٢٤٩.

(٣) الطيبي – شرح المشكاة ج٣ ص٩١٠.

فيخطر في معاجم اللغة أي يمشي متبخترا متفاخرا مزهوًا بنفسه ثم استعملت في هذا الحديث في وسوسة الشيطان للعبد، فما وجه دلالة السير في كبرياء على إيصال الوسوسة في قلب المصلي الذي يقف بين يدي ربه ﷻ؟ إن الشيطان حين يحول بين العبد وبين صلاته عن طريق الوسوسة تتولد بداخله هذه الحالة من الزهو والإعجاب بالنفس لأنه استطاع أن يصرف العبد عن كامل إدراكه الذي ينبغي أن يكون عليه حينما يكون في صلاته، فنجاح الشيطان في وسوسته للعبد هو سبب زهوه وخيلائه لأنه أدرك ما أراد، من أجل ذلك باستطاعتنا أن نعده مجازا مرسلا علاقته المسببية لأن الزهو الذي أصاب الشيطان مسبب عن إيصال وساوسه لقلب العبد.

٨- همزه

عَن أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ كَبَّرَ ثُمَّ يَقُولُ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ» ثُمَّ يَقُولُ: «اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا» ثُمَّ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ (صحيح)[1].

الكلمتان موضعا البحث هما قول النبي ﷺ: (همزه) وقوله (نفخه). الكلمة الأولى (همزه) قال صاحب اللسان: «هَمَزَ رأْسه يَهْمِزُه هَمْزاً: غَمَزَه، قَالَ رُؤْبَةُ: «وَمَنْ هَمَزْنا رأْسَه تَهَشَّما» وهَمَزَ الدَّابَّةَ يَهْمِزُها هَمْزاً: غَمَزَها. قَالَ الشَّمَّاخُ:

(١) التبريزي – المشكاة ج١ ص٣٨٣ حديث رقم ١٢١٧.

أَقــامَ الثِّقــافُ والطَّرِيــدَةُ دَرْأَهــا كَمَا قَوَّمتْ ضِغْنَ الشَّموسِ المَهامِزُ

قَالَ شَمِرٌ: والمَهامِزُ عِصِيٌّ، وَاحِدَتُهَا مِهْمَزَة، وَهِيَ عَصًا فِي رأْسها حَدِيدَةٌ يُنخس بِهَا الْحِمَارُ قَالَ الأَخطل:

رَهْطُ ابنِ أَفْعَلَ فِي الخُطُوبِ أَذِلَّةٌ دُنْسُ الثِّيابِ قَناتُهُمْ لَمْ تُضْرَسِ

بالهَمْزِ مِنْ طُولِ الثِّقافِ، وجارُهُمْ يُعْطِي الظُّلامَةَ فِي الخُطوبِ الحُوَّسِ

وهَمَزْتُه ولَمَزْتُه ولَهَزْتُه ونَهَزْتُه إِذا دَفَعْتَهُ؛ قَالَ رُؤْبَةُ:

ومَــنْ هَمَزْنــا عِــزَّه تَبَرْكَعــا عَلَــى اسْــتِهِ زَوْبَعَــةً، أَو زَوْبَعــا

تَبَرْكَعَ الرَّجُلُ إِذا صُرِعَ فَوَقَعَ عَلَى اسْتِهِ، وأَنشد لأَبي النَّجْمِ وَذَكَرَ صَائِدًا:

نَحــا شَــمَالًا هَمَــزَى نَصُــوحا وهَتَفَــى مُعْطِيَــةً طَرُوحــا»[1]

وبعد أن أفاض ابن منظور في ذكر شواهد المعنى الأصلي للكلمة انتقل للحديث عن المعنى المجازي فقال: «وهَمَزَ الشيطانُ الإِنسانَ هَمْزاً: هَمَسَ فِي قَلْبِهِ وَسْواسًا. وهَمَزاتُ الشَّيْطَانِ: خَطَراتُه الَّتِي يُخْطِرُها بِقَلْبِ الإِنسان. وَفِي حَدِيثِ النَّبِيِّ، ﷺ: أَنه كَانَ إِذا اسْتَفْتَحَ الصَّلَاةَ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِني أَعوذ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِه ونَفْثِه ونَفْخِه» قَالَ أَبو عُبَيْدٍ: إِنما سَمَّاهُ هَمْزاً لأَنه جَعَلَهُ مِنَ النَّخْسِ وَالْغَمْزِ. وكلُّ شَيْءٍ دَفَعْتَهُ، فَقَدَ هَمَزْتَهُ»[2].

(١) ابن منظور – لسان العرب ج ٥ ص٤٢٥-٤٢٦.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج ٥ ص ٤٢٦.

مما سبق يتبين أن للكلمة معنيين ثابتين أحدهما حقيقي وهو الدفع والضرب والثاني مجازي للوسوسة ووجه نيابة الأول للثاني أن كليهما لهما غرض واحد وهو إلحاق الأذى وإيصال الضرر للشخص الواقع عليه الهمز.

فهي استعارة تصريحية حيث شبه الوسوسة بالهمز وصرح بالهمز واستعمل الهمز للدلالة على الوسوسة لما بينهما من تشابه في إيصال الألم، فالهمز يصدر عنه ألم حسي في بدن من تعرض له، والذي تسلط عليه الشيطان بالوسوسة والإضلال متعرض هو أيضا لألم ولكنه ألم معنوي ناتج عن الصراع بينه وبين الشيطان ودليل ذلك قول الصحابة «إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به! قال ﷺ: (أوقد وجدتموه؟) قالوا: نعم، قال: (ذاك صريح الإيمان) رواه مسلم[1].

٩- نفخه

الكلمة الثانية هي «نفخه» قال صاحب اللسان: «وَالْمُنْتَفِخُ: الْمُمْتَلِئُ كِبراً وَغَضَبًا. وَرَجُلٌ ذُو نَفْخ وَذُو نَفْجٍ، بِالْجِيمِ، أَي صَاحِبُ فَخْرٍ وكِبْر. والنفْخ: الكبْر فِي قَوْلِهِ: أَعوذ بِكَ مِنْ هَمْزِهِ ونَفْثه ونَفْخِهِ، فنَفْثُه الشِّعْرُ، ونَفْخُه الكبْرُ، وهمزُه المُوتَةُ لأَن الْمُتَكَبِّرَ يَتَعَاظَمُ وَيَجْمَعُ نفْسَه ونفَسَه فَيَحْتَاجُ أَنْ ينفُخ. وَفِي حَدِيثِ «عَلِيٍّ: نافخٌ حِضْنَيه» أَي منتَفخ مُسْتَعِدٌّ لأَن يَعْمَلَ عَمَلَهُ مِنَ الشَّرِّ»[2].

(١) الطيبي – شرح المشكاة – ج٢ ص٥١٨.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج ٣ ص٦٤.

فالنفخ هو الكبر والتعاظم وهي في هذا الموضع مجاز مرسل علاقته المسببية لأن الكبر الذي يصيب الشيطان هو من جراء احتياله ووسوسته للإنسان، فإذا قدر الشيطان على أن ينال من الإنسان ويوقعه في حبائله أصابه هذا النفخ وذاك الكبر لأنه حاز ما يبغيه من غواية بني آدم وإضلاله.

٩- فتان

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كَانَ مُعَاذُ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يَأْتِي فَيَؤُمُّ قَوْمَهُ فَصَلَّى لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْعِشَاءَ ثُمَّ أَتَى قَوْمَهُ فَأَمَّهُمْ فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ فَانْحَرَفَ رَجُلٌ فَسَلَّمَ ثُمَّ صَلَّى وَحْدَهُ وَانْصَرَفَ فَقَالُوا لَهُ أَنَافَقْتَ يَا فُلَانُ قَالَ لَا وَاللهِ وَلَآتِيَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فلأخبرنه فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا أَصْحَابُ نَوَاضِحَ نَعْمَلُ بِالنَّهَارِ وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى مَعَكَ الْعِشَاءَ ثُمَّ أَتَى قَوْمَهُ فَافْتَتَحَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ فَأَقْبَلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى مُعَاذٍ فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ؟ أَنْتَ اقْرَأ: (الشَّمْس وَضُحَاهَا) (وَالضُّحَى) (وَاللَّيْل إِذا يغشى) و(سبح اسْم رَبك الْأَعْلَى) (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ: (أفتان)، قال صاحب اللسان: «جِماعُ مَعْنَى الفِتْنة الِابْتِلَاءُ والامْتِحانُ وَالِاخْتِبَارُ، وأَصلها مأْخوذ مِنْ قَوْلِكَ فتَنْتُ الْفِضَّةَ وَالذَّهَبَ إِذا أَذبتهما بِالنَّارِ لِتُمَيِّزَ الرَّدِيءَ مِنَ الجيِّدِ، وَفِي الصِّحَاحِ: إِذا أَدخلته النَّارَ لِتَنْظُرَ مَا جَوْدَتُه، وَدِينَارٌ مَفْتُون. والفَتْنُ: الإِحْراقُ، وَمِنْ هَذَا قَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣]، أَي يُحْرَقون بِالنَّارِ. وَيُسَمَّى الصَّائِغُ الفَتَّان،

(١) التبريزي – المشكاة – ج١ ص٢٦٥ حديث رقم ٨٣٣.

وَمِنْ هَذَا قِيلَ لِلْحِجَارَةِ السُّود الَّتِي كأَنها أُحْرِقَتْ بِالنَّارِ: الفَتِينُ، ووَرِقٌ فَتِينٌ أَي فِضَّة مُحْرَقَة. وفَتَّانٌ مِنْ أَبنية الْمُبَالَغَةِ فِي الفِتْنة»[1].

فهي استعارة فإن أصل الفتنة وضع المعدن في النار ليزول خبثه فاستعملها النبي ﷺ في المشقة التي أصابت الناس جراء إطالة الصلاة. قال الطيبي: «(أفتان؟) استفهام علي سبيل التوبيخ، وتنبيه علي كراهية صنيعه، وهو إطالة الصلاة المؤدية إلي مفارقة الرجل الجماعة فافتتن به. الفتنة هي صرف الناس عن الدين، وحملهم علي الضلالة، قال الله تعالي: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ [الصافات:١٦٢]، أي بمضلين»[2].

استعار النبي ﷺ الفتنة – تحديدا – لتصوير حالة الناس وهم ينتظرون فراغ إمامهم الذي بالغ في الإطالة حيث جعل الانتظار ملهبة لأفئدتهم، وقد اعتورتهم حالة أخرجتهم عن السكون والطمأنينة التي ينبغي أن يكون عليها الذي يقف في صلاته بين يدي الله ﷻ، فأخرج حالهم في صورة حسية يتألم لها كل من سمع الحديث، فصور الصحابي في صورة ذلك الحداد الذي لا يدع الحديد حتى يستحيل في يده سائلا بعد أن يقذفه في تنوره.

١٠- الشاهد

عَن أبي بصرة الْغِفَارِيّ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْمُخَمَّصِ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ صَلَاةٌ عُرِضَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَضَيَّعُوهَا فَمَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا

(١) ابن منظور – لسان العرب ج١٣ ص٣١٧.

(٢) الطيبي – شرح المشكاة – ج٣ ص١٠٠٣.

كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ وَلَا صَلَاةَ بَعْدَهَا حَتَّى يَطْلُعَ الشَّاهِدُ». وَالشَّاهِد النَّجْم. رَوَاهُ مُسلم[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ: (الشاهد) قال صاحب اللسان: «الشَّاهِدُ العالم الذي يُبَيِّنُ ما عَلِمَهُ، شَهِدَ شَهَادَةً؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» وأَصل الشَّهَادَةِ: الإِخْبار بِمَا شاهَدَه. والشاهِدُ والشَّهيد: الْحَاضِرُ، وَالْجَمْعُ شُهَداء وشُهَّدٌ وأَشْهادٌ وشُهودٌ؛ وأَنشد ثَعْلَبٌ:

كـأَني وإِن كانَـتْ شُـهوداً عَشِـيرَتي، إِذا غِبْـتَ عَنّـي يَـا عُثَـيْمُ غَريـبُ

أَي إِذا غِبْتَ عَنِّي فإِني لَا أُكلِّم عَشِيرَتِي وَلَا آنَسُ بِهِمْ حَتَّى كأَني غَرِيبٌ. وفِي حَدِيثِ أَبي أَيوب الأَنصاري: «أَنه ذكَرَ صَلَاةَ الْعَصْرِ ثُمَّ قَالَ: وَلَا صَلاةَ بَعْدَهَا حَتَّى يُرى الشَّاهِدُ قَالَ: قُلْنَا لأَبي أَيوب: مَا الشَّاهِدُ؟ قَالَ: النَّجمُ كأَنه يَشْهَدُ فِي اللَّيْلِ» أَي يحْضُرُ ويَظْهَر. وصلاةُ الشاهِدِ: صلاةُ الْمَغْرِبِ، وَهُوَ اسْمُهَا»[2].

قال الطيبي: «(الشاهد النجم) يسمى شاهداً لأنه يشهد الليل، أي يحضر ويظهر، ومنه قيل لصلاة المغرب: صلاة الشاهد. أقول: ويجوز أن يحمل علي الاستعارة، شبه النجم عند طلوعه دليلاً علي وجود الليل بالشاهد الذي تثبت به الدعاوى»[3].

---

(١) التبريزي – المشكاة – ج١ – ص ٣٣١ حديث رقم ١٠٤٩.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج٣ ص٢٣٨-٢٣٩.

(٣) الطيبي – شرح المشكاة – ج٤ ص١١٢٤.

والكلمة استعارة تصريحية؛ شبه النبي ﷺ النجم بالشاهد الذي يدلي بما علمه من غروب الشمس، فرؤيته في كبد السماء إشارة واضحة ودليل قاطع وبرهان ساطع على غروب الشمس حيث يستحيل ظهور الاثنين معا في السماء في وقت واحد، فظهوره يعني بلا ريب غياب الشمس وانقضاء وقت الكراهة الذي نهى النبي ﷺ عن الصلاة فيه والذي يكون قبيل غروب الشمس بوقت يسير.

١١- مخدعها

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا». رَوَاهُ أَبُو دَاوُد (صَحِيح)[١].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ: (مخدعها) قال صاحب اللسان: «وخَدَعْتُ الشيءَ وأَخْدَعْته: كَتَمْتُهُ وأَخْفَيْته. والخَدْع: إِخفاءُ الشَّيْءِ، وَبِهِ سُمِّيَ المِخْدَعُ، وَهُوَ الْبَيْتُ الصَّغِيرُ الَّذِي يَكُونُ دَاخِلَ الْبَيْتِ الْكَبِيرِ، وَتُضَمُّ مِيمُهُ وَتُفْتَحُ. والمِخدع: الخِزانة وَبَيْتُ الأَخطل:

صَهْباء قَدْ كَلِفَتْ مِنْ طُول مَا حُبِستْ فِي مخْـدَعٍ، بَـيْنَ جَنَّـاتٍ وأَنهـارِ»[٢]

قال المناوي: «ووجه كون صلاتها في الأخفى أفضل تحقق الأمن فيه من الفتنة ويتأكد ذلك بعد وجود ما أحدث النساء من التبرج والزينة»[٣].

(١) التبريزي– المشكاة – ج١ص ٣٣٤ حديث رقم ١٠٦٣.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج٨ص٦٥ + الطيبي – شرح المشكاة ج٤ ص ١١٣١.

(٣) المناوي – فيض القدير شرح الجامع الصغير ج٤ ص ٢٢٢.

فالمخدع هو المكان الذي يتخذ لحفظ نفائس الأشياء فهو لا ريب مكان مكنون مصون عن الأعين، فاستعارها النبي ﷺ لذلك المكان في بيت أحدنا الذي لا تقع عليه عين أجنبي ولا ضيف؛ ليكون هو المكان الذي تصلي فيه المرأة؛ مبالغة في الحفظ ورعاية للستر الذي ينبغي أن تكون عليه المرأة . فالنبي ﷺ في إشارة منه إلى ما ينبغي أن تكون عليه المرأة من الصيانة وعدم التبرج استعار المخدع لمكان صلاتها في بيتها؛ لأنه مكان في البيت لا تعاينه أعين الغرباء.

١٢- استحوذ

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ (حسنٌ)(١).

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ: (استحوذ) قال صاحب اللسان: «حاذَ يَحُوذ حَوْذاً والحَوْذُ والإِحْواذُ: السيرُ الشَّدِيدُ. وَحَاذَ إِبله يَحُوذُهَا حَوْذاً: سَاقَهَا سَوْقًا شَدِيدًا وَرُوِيَ هَذَا الْبَيْتُ: «يَحُوذُهُنَّ وَلَهُ حُوذيُّ» فَسَّرَهُ ثَعْلَبٌ بأَن مَعْنَى قَوْلِهِ حُوذِيٌّ امْتِنَاعٌ فِي نَفْسِهِ. وَفِي حَدِيثِ الصَّلَاةِ: «فَمَنْ فَرَّغَ لَهَا قَلْبَهُ وَحَاذَ عَلَيْهَا، فَهُوَ مُؤْمِنٌ» أَي حَافِظٌ عَلَيْهَا، مِنْ حَاذَ الإِبل يَحُوذُهَا إِذا حَازَهَا وَجَمَعَهَا لِيَسُوقَهَا. عَنْ أَبي عَمْرٍو، وَقَالَ يَصِفُ جَنَاحَيْ قَطَاةٍ:

(١) التبريزي – المشكاة – ج١ ص ٣٣٥ حديث رقم ١٠٦٧.

عَلَى أَحْوَذِيَّينِ اسْتَقَلَّتْ عَلَيْهِمَا، فَمَا هِيَ إِلا لَمْحَة فَتَغيب

وقال آخر:

أَتَتْكَ عَبْسٌ تَحْمِل المَشِيَّا، مَاءً مِنَ الطَّثْرَةِ أَحْوَذِيَّا

يَعْنِي سَرِيعَ الإِسهال، وقَالَ لَبِيدٌ يَصِفُ حِمَارًا وأُتنًا:

إِذا اجْتَمَعَتْ وأَحْوَذَ جانِبَيْها وأَوردَهَا عَلَى عُوجٍ طِوال

قَالَ: يَعْنِي ضَمَّهَا وَلَمْ يَفُتْهُ مِنْهَا شَيْءٌ، وَعَنَى بالعُوج الْقَوَائِمَ»[1].

فالكلمة استعملها العرب بمعنى السير الشديد السريع والقوة والمنعة والمحافظة على الشيء والإحاطة به والأصل فيها سوق الإبل سوقا عنيفا شديدا، وسوق الإبل يتطلب كل هذه الأمور التي استعملت من أجلها الكلمة مجازا من القوة والمنعة والسرعة والإحاطة بها من كل جانب.

واتنقل صاحب اللسان بعد ذلك لبيان المعنى المجازي فقال: واستَحْوذ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ وَاسْتَحَاذَ أَي غَلَبَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ١٤١]، أَي أَلم نَغْلِبْ عَلَى أُموركم وَنَسْتَوْلِ عَلَى مَوَدَّتِكُمْ. وَفِي الْحَدِيثِ: «مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلا وَقَدِ اسْتَحْوَذ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ» أَي اسْتَوْلَى عَلَيْهِمْ وَحَوَاهُمْ إِليه[2].

(١) ابن منظور – لسان العرب ج٣ ص٤٨٦.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج٣ ص٤٨٦.

فهي استعارة مكنية، شبه تمكن الشيطان من العبد حيث لا يعصيه في وساوسه وإغوائه بمن تمكن من بعيره فلا يستطيع إفلاتا منه بل هو في قبضته وتحت سلطانه. ويظهر في الاستعارة أثر البيئة على اختيار اللفظ، فالثلاثة حيث كانت إقامتهم في قرية عامرة أو في بدو ضاربين في الصحراء يشتركون في رؤية هذا المشهد المتكرر المألوف لدى الناظر إذا كان يعيش في هذه البيئة أو تلك، ومن ثم جاءت الاستعارة ملائمة لجو الحديث. وقوله ﷺ بعدها «فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية» ترشيح للاستعارة، لما استعار «استحوذ» التي هي لسوق البهائم سوقًا شديدًا قال بعدها: إن الذئب يأكل من الغنم القاصية أي أن الشيطان لا يستطيع الاستحواذ إلا على الذي شذ عن الجماعة.

١٣- الدلجة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ. أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ (صحيح)[2].

---

(١) التبريزي – المشكاة ج١ ص ٣٩١ حديث رقم ١٢٤٦.

(٢) التبريزي – المشكاة ج٣ ص ١٤٦٩ حديث رقم ٥٣٤٨ + صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير – ج٢ ص١٠٦٩ حديث رقم ٦٢٢٢.

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ: (الدلجة) قال صاحب اللسان: «الدُّلْجَةُ: سَيْرُ السَّحَرِ. والدَّلْجَةُ: سَيْرُ اللَّيْلِ كلِّه. وادَّلَجُوا: سَارُوا اللَّيْلَ كُلَّهُ قَالَ الْحُطَيْئَةُ:

آثَـرْتُ إِدْلاجـي عَلَـى لَيْـلِ حُـرَّةٍ هَضِـيمِ الحَشَـى، حُسَّـانَةِ المُتَجَـرَّدِ

قال ابْنُ السِّكِّيتِ: أَدْلَجَ القومُ إِذا سَارُوا الليلَ كُلَّهُ، فَهُمْ مُدْلِجُونَ. وأَنشد:

إِنَّ لَنَـــا لَسَـــائِقًا خَـــدَلَّجا لَـمْ يُـدْلِجِ اللَّيْلَـةَ فِـيمَنْ أَدْلَجـا

وَفِي الْحَدِيثِ: «عَلَيْكُمْ بالدُّلْجَةِ» قَالَ: هُوَ سَيْرُ اللَّيْلِ، وعقبَه بِقَوْلِهِ: فإِن الأَرض تُطْوَى بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ أَوله وَآخِرِهِ؛ وأَنشدوا لِعَلِيٍّ، عليه السلام:

اصْبِرْ عَلَى السَّيْرِ والإِدْلاجِ فِي السَّحَرِ

وَفِي الرَّواحِ عَلَى الحاجاتِ والبُكَرِ

فَجَعَلَ الإِدلاج فِي السَّحَرِ»[1]

فالدلجة كما أخبر المفسرون هي السير ليلا فاستعار النبي ﷺ السير بالليل لعبادة الليل فكما أن الخائف من عدو يلاحقه يواصل المسير ليل نهار، والذي يطلب شيئا يتابع السير في الغداة والعشي كذلك المسافر إلى ربه يستحث خطواته ولا يركن إلى الراحة ويستعين بالدلجة ليقطع ما يريد قطعه في غفلة الناس.

(١) ابن منظور – لسان العرب ج٢ ص٢٧٢.

والاستعانة بالدلجة تكون بإيقاعها آخر الليل أو والليل كلهاً بدليل تعبيره بالتبعيض وهذه أطيب أوقات المسافر لأن المصطفى ﷺ خاطب مسافراً فنبهه على أوقات نشاطه وحسن هذه الاستعارة أن الدنيا بالحقيقة دار نقلة للآخرة، وهذه الأوقات أروح ما يكون فيها البدن للعبد فالروحة والغدوة والدلجة استعير بها عن الصلاة في هذه الأوقات لأنها سلوك وانتقال من العادة إلى العبادة ومن الطبيعة إلى الشريعة ومن الغيبة إلى الحضور فكأن المصطفى ﷺ يخاطب مسافرا انقطع طريقه إلى مقصده، فنبهه إلى أوقات نشاطه التي ترك فيها عمله؛ لأن هذه أوقات المسافر على الحقيقة، فالدنيا دار نقلة وطريق إلى الآخرة، فنبه الأمة على اغتنام أوقات فراغهم(١).

١٤- طبع

عَنْ أَبِي الْجَعْدِ الضُّمَيْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا بِهَا طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ والدارمي (صَحِيح)(٢).

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ: (طبع على قلبه) قال صاحب اللسان: «وأَما طَبَعُ الْقَلْبِ، بِتَحْرِيكِ الْبَاءِ، فَهُوَ تَلْطِيخُهُ بالأَدْناس، وأَصل الطَبَع الصَّدَأُ يَكْثُرُ عَلَى السَّيْفِ وَغَيْرِهِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ

(١) انظر المناوي – فيض القدير ج٢ ص٣٢٩.

(٢) التبريزي – المشكاة – ج١ ص ٤٣٣ حديث رقم ١٣٧١.

طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ» أَي خَتَمَ عَلَيْهِ وَغَشَّاهُ وَمَنَعَهُ أَلطافه؛ الطَّبْع، بِالسُّكُونِ: الْخَتْمُ، وَبِالتَّحْرِيكِ: الدَّنَسُ، وأَصله مِنَ الوَسَخ والدَّنَس يَغْشَيانِ السَّيْفَ، ثُمَّ اسْتُعِيرَ فِيمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ مِنَ الأَوْزار والآثامِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ المَقابِحِ»[1].

فأصل الطبع هو الصدأ الذي يصيب السيف، وما أروع هذه الاستعارة مع الذنوب التي تغشى القلب وتصيبه وتغطيه حيث أخرجت الذنوب في صورة حسية يلمسها ويعرفها من له أدنى دراية بحياة العرب في البادية حيث لم تكن تفارقهم سيوفهم لا في حلهم ولا ترحالهم.

ووجه نيابة الصدأ الذي هو الطبع عن الذنوب مع القلب أن الصدأ لا يظهر فجأة بل يظهر رويدا رويدا وعندما يظهر يعوق السيف عن عمله الذي هو القطع والبتر فلا يمضي فيما وجه إليه بل يصيبه الثلم كذلك الذنوب فإنها تحجب القلب شيئا فشيئا، فإذا ما حجبته تجده فاترا ضعيفا فيما يطلبه من أمور الآخرة، وكما يمكن معالجة السيوف بالجلاء ليعود لها بريقها يمكن معالجة القلوب بتزكيتها حتى تعود لما كانت عليه من الانشغال بالآخرة.

استعار النبي ﷺ الصدأ للذنوب والأوزار وجعل القلب كالحديد الذي يحتاج إلى معالجة من وقت لآخر فكما أن الحديد سريع الاستحالة من البريق واللمعان إلى الانطفاء لما يغشاه ويغطيه من الصدأ، فإن القلب أشبه شيء به وقد استعمل النبي ﷺ هذه الاستعارة في مواضع أخرى حيث جاء عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ

(١) ابن منظور – لسان العرب ج٨ ص٢٣٢ + الطيبي – شرح المشكاة ج٤ ص١٢٧١.

عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «لِكُلِّ شَيْءٍ صِقَالَةٌ وَصِقَالَةُ الْقُلُوبِ ذِكْرُ اللهِ وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ» قَالُوا: وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنْ يَضْرِبَ بِسَيْفِهِ حَتَّى يَنْقَطِعَ». رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّعَوَاتِ الْكَبِيرِ(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ فَذَلِكُمُ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[المطففين: ١٤]، رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ(٢).

١٥- صنو

عن أبي هريرةَ، قال: بعثَ رسول الله ﷺ عمرَ علي الصَّدَقةِ، فقيل: مَنَع ابنُ جميلٍ، وخالدُ بنُ الوليد، والعبَّاسُ. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: (ما ينقمُ ابنُ جميلٍ إلا أنَّه كانَ فقيراً فأغْناهُ اللهُ ورسولُه، وأما خالدٌ فإنَّكم تظلمونَ خالداً، قدِ احتَبس أدراعَه وأعتُدَه في سبيلِ الله، وأمَّا العبَّاسُ فهي عليَّ ومثلُها معَها). ثمَّ قال: (يا عمرُ! أمَا شعْرتَ أنَّ عم الرَّجلِ صنْوُ أبيه) متفق عليه(٣).

الكلمة موضع البحث هي قوله ﷺ: (صنو) قال صاحب اللسان: «(صِنْوُ أَبيه) قَالَ أَبو عُبَيْدٍ: مَعْنَاهُ أَن أَصلهُما واحدٌ، قَالَ: وأَصل الصِّنْو إِنَّمَا هُوَ فِي النَّخْل.

---

(١) التبريزي – المشكاة – ج٢ ص٧٠٥ حديث رقم ٢٢٨٦.

(٢) التبريزي – المشكاة – ج٢ ص٧٢٤ حديث رقم ٢٣٤٢.

(٣) التبريزي – المشكاة – ج١ ص ٥٥٨ حديث رقم ١٧٧٨.

قَالَ شَمِرٌ: يُقَالُ فُلانٌ صِنْوُ فُلَانٍ أَي أَخوه، وَلَا يسمَّى صِنْواً حَتَّى يَكُونَ مَعَهُ آخَرُ، فَهُمَا حِينَئِذٍ صِنْوانِ، وكلُّ واحدٍ مِنْهُمَا صِنْو صاحِبه. وَأَصْلُهُ أَنْ تَطَّلِعَ نخلتانِ مِنْ عِرْق وَاحِدٍ، يُرِيدُ أَنَّ أَصل العبَّاس وأَصلَ أَبي واحدٌ، وَهُوَ مثلُ أَبي وَقَالَ أَبو حَنِيفَةَ: إِذَا نَبَتَتِ الشَّجَرَتَانِ مِنْ أَصل وَاحِدٍ فَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا صِنْو الأُخرى»[1].

قال المناوي: «(إن عم الرجل صنو أبيه) واستعمال الصنو في العم من قبيل المجاز قال الزمخشري: من المجاز هو شقيقه وصنوه قال:

أتتركني وأنت أخي وصنوي فيا للناس للأمر العجيب»[2]

فالصنو تطلق على النخلتين أو أكثر إذا كان لهما أصل واحد وجذر مشترك، فما أروعها إذا استعيرت لأخوين لهما نفس الأب وحواهما بطن واحد، أراد النبي ﷺ أن يبين لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوة ما بينه وبين العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الصلة حيث ما كان لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يعنفه وهو عم رسول الله ﷺ الذي هو بمنزلة الوالد. وجاءت الصنو أوقع وأدل على المعنى من المثل والشبيه؛ فذلك هو الذي يمكن الجزم به؛ لأنهما شقيقان وليس بالضرورة أن يتشابها في الصفات الخِلقية أو الخُلقية.

١٦- سحت

عَن قبيصَة بن مُخَارق الْهِلَالِي قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا. فَقَالَ: «أَقِمْ حَتَّى تَأْتِينَا الصَّدَقَة فنأمر لَك بهَا». قَالَ ثُمَّ قَالَ: «يَا قَبِيصَةُ إِنَّ

(١) ابن منظور – لسان العرب ج١٤ ص٤٧٠.

(٢) المناوي – فيض القدير ج٢ ص٤٦٠ +وانظر الزمخشري – أساس البلاغة – ج١ ص٥٦١.

الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يقوم ثَلَاثَة من ذَوي الحجى مِنْ قَوْمِهِ. لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ فَمَا سِوَاهُنَّ من الْمَسْأَلَة يَا قبيصَة سحتا يأكلها صَاحبهَا سحتا» رَوَاهُ مُسلم[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ: (سحت) قال صاحب اللسان: «السُّحْتُ: الحرامُ الَّذِي لَا يَحِلُّ كَسْبُه، لأَنه يَسْحَتُ البركةَ أَي يُذْهِبُها، واشتقاقُه مِنَ السَّحْتِ، وَهُوَ الإِهلاكُ والاسْتئصال. وأَسْحَتَتْ تجارتُه: خَبُثَتْ وحَرُمَتْ. وسَحَتَ فِي تِجَارَتِهِ، وأَسْحَتَ: اكْتَسَبَ السُّحْتَ. وسَحَتَ الشيءَ يَسْحَتُه سَحْتًا: قَشَره قَلِيلًا قَلِيلًا. وسَحَتُّ الشَّحْمَ عَنِ اللَّحْمِ: قَشَرْتُه عَنْهُ، والسَحْتُ: العذابُ. وسَحَتْناهم: بَلَغْنا مَجْهُودَهم فِي المَشَقَّة عَلَيْهِمْ. وأَسْحَتْناهم: لُغَةٌ. وأَسْحَتَ الرجلَ: اسْتَأْصَلَ مَا عِنْدَهُ. وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١]. فيَسْحَتكم: يَقْشِركم؛ ويُسْحِتكُمْ: يَسْتَأْصِلكم. وأَسْحَتَ مالَه: اسْتَأْصَلَه وأَفْسَدَه؛ قَالَ الْفَرَزْدَقُ:

وعَضّ زمانٍ، يَا ابنَ مَرْوانَ، لَمْ يَدَعْ... مِنَ المالِ إِلَّا مُسْحَتًا، أَو مُجَلَّفُ

والسَّحِيتَةُ مِنَ السَّحاب: الَّتِي تَجْرُفُ مَا مَرَّتْ بِهِ[2].

---

(١) التبريزي – المشكاة ج١ ص٥٧٦ حديث رقم ١٨٣٧.

(٢) انظر ابن منظور – لسان العرب ج٢ ص٤١ + الطيبي – شرح المشكاة – ج٥ ص١٥١٠ + المناوي – فيض القدير – ج١ ص٢١٢.

فأصل السحت هو العذاب والاستئصال والإهلاك، واستخدام الكلمة بمعنى المال الحرام الذي لا يحل أخذه من قبيل المجاز، فهي مجاز مرسل علاقته المسببية لأن العذاب أو السحت مسبب عن تناول ما لا يحل من الأموال التي حرم الله أخذها بغير حق فجاء المجاز معبرًا عما أراد النبي ﷺ أن يحذر منه أمته وهو الوقوع في التهلكة حينما يجترئ المرء على أخذ ما لا يحل من أموال الغير.

١٧- رجز

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الطَّاعُونُ رِجْزٌ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ: (رجز) قال صاحب اللسان: «الرَّجَزُ: دَاءٌ يُصِيبُ الإِبل فِي أَعجازها. والرَّجَز: أَن تَضْطَرِبَ رِجْلُ الْبَعِيرِ أَو فَخِذَاهُ إِذا أَراد الْقِيَامَ والرَّجَزُ: ارْتعادٌ يُصِيبُ الْبَعِيرَ وَالنَّاقَةَ فِي أَفخاذهما وَمُؤَخَّرِهِمَا عِنْدَ الْقِيَامِ، وَقَدْ رَجِزَ رَجَزاً، وَهُوَ أَرْجَزُ، والأُنثى رَجْزاء، وَقِيلَ: نَاقَةٌ رَجْزاء ضعيفةُ العَجُزِ إِذَا نَهَضَتْ مِنْ مَبْرَكها لَمْ تَسْتَقِلَّ إِلا بَعْدَ نَهْضتين أَو ثَلَاثٍ، قَالَ أَوس بْنُ حَجَر يَهْجُو الحكَم بْنَ مَرْوانَ بْنِ زِنْباع:

هَمَمْتَ بِخَيْرٍ ثُمَّ قَصَّرْتَ دونَه ... كَمَا ناءَتِ الرَّجْزاءُ شُدَّ عِقالُها

مَنَعْتَ قَلِيلًا نَفْعُه، وحَرَمْتَنِي ... قَلِيلًا، فهَبْها بَيْعَةً لَا تُقالُها»(٢)

(١) التبريزي – المشكاة – ج١ ص٤٨٨ حديث رقم ١٥٤٨.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج٥ ص٣٤٩.

وبعد أن تحدث ابن منظور عن أصل استخدام الكلمة أردفه بحديثه عن المعنى المجازي للكلمة فقال: «والرِّجْز: الْعَذَابُ. والرِّجْز والرُّجْز: عِبَادَةُ الأَوثان، وَهُوَ الْعَمَلُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلى الْعَذَابِ، وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، أَي كَشَفْتَ عَنَّا الْعَذَابَ»[1]. فهو العذاب مجازا والعمل الذي يؤدي إلى العذاب حقيقة.

فالرجز - كما ذكره أهل اللغة - اضطراب السير وضعف الحركة عند الدواب، فسائقها يستحثها المسير، وهي تضطرب في الحركة، فيلحقها العذاب؛ بسبب هذا السير، ومن هنا يكون استعمال الرجز بمعنى العذاب من قبيل المجاز المرسل، وعلاقته هي السببية لأن حركة البعير المضطربة هي التي سببت لها العذاب، أو قد يكون العذاب الذي أصابها هو الذي سبب لها اختلال السير واضطراب المشية فحين إذن تكون العلاقة المسببية لأن اختلال السير مسبَب عن العذاب.

وقال الزمخشري: «الرجز والرجس: الْعَذَاب والْأَمر الشَّديد ينزل بِالنَّاسِ وَهُوَ من قَوْلهم: ارتجزت السَّمَاء بالرعد وارتجست ورعد مرتجز مرتجس وَهُوَ حَرَكَة مَعَ جلبة لِأَن الْعَذَاب النَّازِل لَا بُد فِيهِ للمنزول بهم من أَن يضطربوا ويجلبوا»[2].

(١) ابن منظور - لسان العرب - ج٥ ص٣٥٠.

(٢) الزمخشري - الفائق في غريب الحديث - ج٢ ص٤٦.

فأصل الرجز هو الاضطراب؛ اضطراب في سير الإبل، اضطراب السماء بما يحدثه السحاب من رعد وبرق، وهو الحركة السريعة مثل حركة المرتعد، واستعير للقصائد التي تقال على بحر الرجز لخفته وسرعة الانتقال من بيت إلى بيت، واستعير للعذاب الشديد الذي يقلقل صاحبه ويصيبه بالاضطراب.

١٨- يغان

عَنِ الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْم مائَة مرّة» رَوَاهُ مُسلم(١).

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (يغان) قال صاحب اللسان: «الغَيْنُ: الغَيْمُ، وَقِيلَ: الغَيْنُ شَجَرٌ مُلْتَفٌّ، أَراد مَا يَغْشَاهُ مِنَ السَّهْوِ الَّذِي لَا يَخْلُو مِنْهُ الْبَشَرُ، لأَن قَلْبَهُ أَبداً كَانَ مَشْغُولًا بِاللهِ تَعَالَى، فإِن عَرَضَ لَهُ وَقْتًا مَا عَارِضٌ بَشَرِيٌّ يَشْغَلُه مِنْ أُمور الأُمّة والملَّة وَمَصَالِحِهِمَا عَدَّ ذَلِكَ ذَنْبًا وَتَقْصِيرًا، فيَفْزَعُ إِلَى الِاسْتِغْفَارِ؛ قَالَ أَبو عُبَيْدَةَ: يَعْنِي أَنه يتَغَشَّى القلبَ مَا يُلْبِسُه؛ وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ يَغْشَى شَيْئًا حَتَّى يُلْبِسَه فَقَدَ غِينَ عَلَيْهِ»(٢). قال الطيبي: «(إنه ليغان علي قلبي) أي ليطبق إطباق الغين، وهو الغيم، يقال: غيت السماء تغان»(٣).

---

(١) التبريزي – المشكاة ج٢ ص٧١٩ حديث رقم ٢٣٢٤.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج١٣ ص٣١٦ + وانظر ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث – ج ٣ ص ٤٠٣.

(٣) الطيبي – شرح المشكاة ج٦ ص١٨٣٥.

فالغين والغيم بمعنى واحد وهو السحاب الذي يحجب رؤية الشمس ومشاهدة السماء فاستعاره النبي ﷺ لما يعتريه من فتور ويصيبه من ضعف عن الذكر فهو ﷺ كأي بشر يصيبه الكلال والنصب واستعير الغيم لأنه يدل على المعنى أفضل من غيره؛ حيث إن ما يصيبه من الفتور أمر عارض سرعان ما يزول عنه فيعود إلى نشاطه وجدّه في ذكر الله كما أن السحابة التي تحجب نور الشمس سرعان ما تنقشع فيعود ضوء الشمس جليا كما كان فلزوم الذكر أصل عنده والغفلة عارض سرعان ما يزول كما أن بزوغ الشمس للعيان أصل والغين طارئ ينقشع حثيثا.

١٩- يؤدم

عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ خَطَبْتُ امْرَأَةً فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا؟» قُلْتُ: لَا قَالَ: «فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ وَالدَّارِمِيُّ (صَحِيح)[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (يؤدم بينكما) قال صاحب اللسان: «الأُدْمةُ: يُقَالُ: بَيْنَهُمَا أُدْمةٌ ومُلْحة أَي خُلْطةٌ، وَقِيلَ: الأُدْمة الخُلْطة، وَقِيلَ: المُوافَقةُ. والأُدْمُ: الأُلْفَةُ والاتِّفاق؛ وأَدَمَ اللهُ بَيْنَهُمْ يَأْدِمُ أَدْمـًا. وَيُقَالُ: آدَم بَيْنَهُمَا يُؤْدِمُ إِيدامـًا أَيضـًا، وأَنشد: «والبِيضُ لَا يُؤْدِمْنَ إِلَّا مُؤْدَما» أَي لَا يُحْبِبْنَ إِلَّا مُحَبَّبـًا، قَالَتْ غَادِيَةُ الدُّبَيْرِيَّة: «كَانُوا لِمَنْ خالَطَهُمْ إِداما» وَفِي الْحَدِيثِ «يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا» قَالَ

(١) التبريزي – المشكاة ج٢ ص٩٣٢ حديث رقم٣١٠٧.

الْكِسَائِيُّ: يُؤدَم بَيْنكُمَا يَعْنِي أَن تَكُونَ بَيْنَهُمَا المحبَّة والاتِّفاق. قَالَ ابْنُ الأَعرابي: وإِدامُ اسْمُ امرأَة مِنْ ذَلِكَ؛ وأَنشد:

أَلا ظَعَنَتْ لِطِيَّتِها إِدامُ، وكُلُّ وِصالِ غانِيةٍ زِمامُ

والإِدامُ: مَعْرُوفٌ مَا يُؤْتَدَمُ بِهِ مَعَ الْخُبْزِ»[1]. قال الطيبي: (أن يؤدم بينكما) الأدم والإيدام الإصلاح والتوفيق، من أدم الطعام وهو إصلاحه بالإدام وجعله موافقا للطاعم، والمعنى: فإن النظر أولى بالإصلاح وإيقاع الألفة والوفاق بينهما[2].

فأصل الإدام هو إصلاح الطعام وإعداده حتى يكون صالحا للأكل، استعار النبي ﷺ الإدام للعلاقة الحسنة بين الزوجين والوفاق بينهما فأخرجه من صورته المعنوية إلى صورة حسية تستطيع إدراكها بحاسة التذوق، ومناسبة هذه الاستعارة هي أن الطعام لا يحسن في فم طاعمه إلا عند خلطه ومزجه بما يصلحه، كذلك العلاقة بين الزوجين لا تحسن إلا بحسن المعاشرة وجميل المخالطة.

قال إبراهيم الحربي: «قَوْلُهُ: «يُؤْدَمَ بَيْنكُمَا» كَالْأُدْمِ وَالْخُبْزِ وَأَنْشَدَنَا ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ:

سَقْيًا لَعَهْدِ خَلِيلٍ كَانَ يَأْدُمُ لِي زَادِي وَيُذْهِبُ عَنْ زَوْجَاتِيَ الْغَضَبَا

(١) ابن منظور – لسان العرب ج١٢ ص٨ + القاسم بن سلام – غريب الحديث ج١ ص١٤٢.

(٢) الطيبي – شرح المشكاة ج٧ ص٢٢٧١.

أَخْبَرَنَا عَمْرٌو، عَنْ أَبِيهِ، يُقَالُ: جَعَلْتُ فُلَانًا أَدَمَةَ أَهْلِي، أَيْ: أُسْوَتَهُمْ»[1].

شبه النبي ﷺ الوفاق والمعاشرة الحسنة بين الزوجين بطعام قد أحسن طبخه فأخرجه مخرج المحسوس الذي يدرك باللسان، وفي القرآن شيء من ذلك حيث شبه الله ﷻ عذاب الكافرين في النار بالطعام الذي لا يسيغه طاعمه فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[النساء:٥٦]. ففي الأية والحديث إخراج للمعنوي الذي يدرك بالعقل في صورة حسية تدرك بحاسة التذوق.

٢٠- جاثم

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ فَإِذَا ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ وَإِذا غفَلَ وسوس». رَوَاهُ البُخَارِيّ تَعْلِيقا[2].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (جاثم) قال صاحب اللسان: «جثَم الإنسانُ والطائرُ والنَّعامةُ والأَرْنبُ واليَرْبوعُ يَجْثِم ويَجْثُم جَثْماً وجثُوماً، فَهُوَ جاثِم: لَزِم مَكَانَهُ فَلَمْ يَبْرَح أَي تَلَبَّد بالأَرض، وَقِيلَ: هُوَ أَن يَقَعَ عَلَى صَدْرِهِ؛ قَالَ الرَّاجِزُ:

إِذا الكُماةُ جَثَمُوا على الرُّكَبْ ثَبَجْتَ، يا عَمْرو، ثُبُوجَ المُحْتَطِبْ

(١) إبراهيم الحربي – غريب الحديث ج٣ ص ١١٤١.

(٢) التبريزي – المشكاة ج٢ ص٧٠٥ حديث رقم٢٢٨١.

وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ البُرُوك للإبل وجَثَم فُلَانٌ بالأَرضَ يَجْثُم جُثوماً: لصِق بِهَا ولَزِمها قَالَ النَّابِغَةُ يصِف رَكبَ امرأَةٍ:

وإِذا لَمَسْتَ لَمَسْتَ أَجْثَمَ جَاثِمًا مُتَحَيِّراً بِمَكَانِهِ مِلْءَ اليَدِ»[1]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧]، «أَي أَجساداً مُلْقاةً فِي الأَرض أَي أَصابهم البلاءُ فبَركوا فِيهَا، والجاثِمُ: البارِك عَلَى رِجْليه كَمَا يَجْثِمُ الطيرُ، أَيْ أَصابهم العذابُ فَمَاتُوا جاثِمين أَيْ بارِكين»[2].

فالكلمة تقال لمن لزم مكانه فلم يبرحه ولم يتركه، استعار النبي ﷺ صفة الجثوم للشيطان الذي لا يزال موسوسا للإنسان ليله ونهاره لا يتركه، فهو ملازم لقلب الإنسان فشبهه بمن يجلس في بقعة لا يتحول عنها، وسبب اختيارها ما لها من دلالة على شدة تسلط الشيطان على الإنسان وحرصه على ملازمته وإغوائه الإنسان في كل أحواله وجميع أحيانه. لا يترك مكانه ولا يبرحه إلا بذكر الله.

٢١- يتغمدني

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ مِنْهُ بِرَحْمَتِهِ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا واغْدُوا وروحوا وشيءٌ من الدُّلْجَةِ والقَصدَ القصدَ تبلغوا»(مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)[3].

---

(١) ابن منظور – لسان العرب ج١٢ ص٨٢.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج١٢ ص٨٢.

(٣) التبريزي – المشكاة – ج٢ ص٧٣٢ حديث رقم٢٣٧١.

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (يتغمدني) قال صاحب اللسان: «الغِمْدُ: جَفْنُ السَّيْفِ، وَجَمْعُهُ أَغمادٌ وغُمودٌ، غَمَدَ السيفَ يَغْمِدُه غَمْداً وأَغْمَدَه: أَدْخَلَهُ فِي غِمْدِهِ، فَهُوَ مُغْمَدٌ ومَغْمُودٌ، وتَغَمَّدَه اللهُ بِرَحْمَتِه: غَمَده فِيهَا وغَمَرَه بِهَا. وَفِي الْحَدِيثِ: (إِلَّا أَن يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِه) قَالَ أَبو عُبَيْدٍ: قَوْلُهُ يَتَغَمَّدَنِي يُلْبِسَني ويَتَغَشَّاني ويَسْتُرَني بِهَا»(١).

وقَالَ الْعَجَّاجُ: «يُغَمِّدُ الأَعْداءَ جُوْنـًا مِرْدَسا» يَعْنِي أَنه يُلْقِي نَفْسَهُ عَلَيْهِمْ وَيَرْكَبُهُمْ ويُغشِّيهم، وَلَا أَحسب هَذَا مأْخوذاً إِلّا مِنْ غِمْدِ السَّيْفِ وَهُوَ غِلَافُهُ لأَنك إِذا أَغْمَدْتَه فَقَدْ أَلبسته إِياه وغَشَّيْتَه بِهِ»(٢).

قال ابن الأثير والطيبي: (يَتَغَمَّدُنِي) أَيْ يُلْبِسَنِيهَا ويَسْتُرَني بِهَا. مَأْخُوذٌ مِنْ غِمْد السَّيف، وَهُوَ غِلاَفه(٣).

فالغمد هو غطاء السيف، استعار النبي ﷺ الغمد لإحاطة الرحمة به من كل جانب، فلماذا اختار النبي ﷺ الغمد للدلالة على الإحاطة والشمول من كل جانب؟ لأن الغمد يغطي ويستر شيئا مهلكا فالسيف إذا خرج من غمده يجرح ويصيب به صاحبه من طلبه ولو أخرجه من غمده وسار به ربما يجرح نفسه،

(١) ابن منظور – لسان العرب ج٣ ص٣٢٦.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج٣ ص٣٢٦.

(٣) الطيبي – شرح المشكاة ج٦ ص١٨٦٥ حديث رقم ٢٣٧١ + ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث والأثر ج٣ ص٣٨٣.

فالسيف إذا كان خارج الغمد لا يسلم منه أحد غالبا، كذلك النفس البشرية إذا لم تكن محفوفة برحمة الله أضرت غيرها وأهلكت نفسها. فالمتأمل يجد أن الكلمة قد نجحت في تأدية المعنى أيما نجاح؛ لما بين السيف والنفس من تشابه في إمكانية إلحاق الأذى بالغير بل بصاحبها أيضًا.

٢٢- تناجشوا

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا». وَفِي رِوَايَة: «وَلَا تنافسوا» مُتَّفق عَلَيْهِ[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (تناجشوا) قال صاحب اللسان: «نَجَشَ الصيدَ وكلَّ شَيْءٍ مَسْتُورٍ يَنْجُشُه نَجْشـًا: اسْتَثَارَهُ وَاسْتَخْرَجَهُ. والنَّجاشِيّ: المستخرجُ لِلشَّيْءِ، وَقَالَ الأَخفش: النَّجاشِيُّ والناجِشُ الَّذِي يُثِير الصيدَ ليمُرّ عَلَى الصَّيَّادِ. والناجِشُ: الَّذِي يَحُوش الصَّيْدَ. وأَصلُ النَّجْشِ البحثُ وَهُوَ اسْتِخْرَاجُ الشَّيْءِ. والنَّجْشُ: اسْتِثارةُ الشَّيْءِ؛ قَالَ رُؤْبَةُ: «والخُسْرُ قولُ الكَذِب المَنْجُوشِ» قال ابْنُ الأَعرابي: مَنْجُوشٌ مُفْتَعَلٌ مَكْذوب[2].

بعد أن عرض ابن منظور لأصل الكلمة انتقل إلى المعنى على سبيل الاستعارة فقام بتوضيحه وشرحه أيضا فقال: «وَفِي الْحَدِيثِ نَهى رسولُ الله، ﷺ،

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح ج٣ ص١٣٩٩ حديث رقم ٥٠٢٨.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج٦ ص٣٥١.

عَنِ النَّجْش فِي الْبَيْعِ، هُوَ أَن يَزيدَ الرجلُ ثمنَ السِّلعة وَهُوَ لَا يُرِيدُ شَرَاءَهَا، وَلَكِنْ لِيَسْمَعَهُ غيرُه فيَزيد بِزِيَادَتِهِ، ابْنُ شُمَيْلٍ: النَجْشُ أَن تَمْدَحَ سِلعةَ غيرِك لِيَبِيعَهَا أَو تَذُمَّها لِئَلَّا تَنْفُق عَنْهُ، قال الْجَوْهَرِيُّ: النَّجْشُ أَن تُزايدَ فِي الْبَيْعِ لِيَقَعَ غيرُك وَلَيْسَ مِنْ حَاجَتِكِ، والأَصل فِيهِ تَنْفيرُ الْوَحْشِ مِنْ مَكَانٍ إِلى مَكَانٍ»[1].

قال الزمخشري: «النَّجش: أَن يُرِيد الْإِنْسَان أَن يَبِيع بيعه فتساومه بهَا بثمن كثير لينْظر إِلَيْك نَاظر فَيَقَع فِيهَا. وَمِنْه الحَدِيث: إِنَّه نهى عَن النجش وروى: لَا نجش فِي الْإِسْلَام. وَفِي حَدِيث عبد الله بن أبي أوفى: النَّاجش هُوَ آكل رَبًّا خائن. وأصل النَّجش الإثارة يُقَال: نجش الصَّيْد إِذا أثاره»[2].

وقال الزمخشري: «(لا تناجشوا) وهو أن تستام السلعة بأزيد من ثمنها وكذلك في النكاح وغيره. وقال النابغة:

وترخّـــى بـــال مـــن يشـــربها ويفـدّى كرمهـا عنـد الـنّجش»[3]

قال الطيبي: (ولا تناجشوا) النجش الإثارة وأصله الإغراء والتحريض، وإنما نهي عنه لما فيه من التغرير، وإنما ذكر بصيغة التفاعل؛ لأن التجار يتعارضون في ذلك، فيفعل هذا لصاحبه علي أن يكافئه بمثله[4].

---

(١) ابن منظور – لسان العرب ج٦ ص٣٥١.

(٢) الزمخشري – الفائق في غريب الحديث ج٣ ص٤٠٧.

(٣) الزمخشري – أساس البلاغة ج٢ ص٢٥١.

(٤) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج٧ ص٢١٤٣.

فأصل النجش الإثارة، إثارة الصيد ليتحرك ويخرج من مكمنه ومخبئه؛ ليتمكن منه الصائد، واستعار النبي ﷺ هذا اللفظ فيمن يغري ويخدع إنسانا؛ ليشتري سلعة بأكثر من ثمنها حيث يزيد في ثمنها وهو لا يريد شراءها وإنما ليوهم المشتري أنها تستحق ثمنها الذي يبيعها به صاحبها، وقد جاءت الاستعارة معبرة عن المعنى حيث رسمته في صورة بديعة فصورت البائع بصائد يستعين بالناجش وهو الذي يحرك الفريسة أو الصيد على الحركة كما يحرك الناجش المشتري ليدفعه على شراء ما يريد البائع بيعه.

٢٣- دعاميص

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: مَاتَ ابْنٌ لِي فَوَجَدْتُ عَلَيْهِ هَلْ سَمِعْتَ مِنْ خَلِيلِكَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ شَيْئًا يَطَيِّبُ بِأَنْفُسِنَا عَنْ مَوْتَانَا؟ قَالَ: نَعَمْ سَمِعْتُهُ ﷺ قَالَ: «صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ الْجَنَّةِ يلقى أحدهم أَبَاهُ فَيَأْخُذ بِنَاحِيَةِ ثَوْبِهِ فَلَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ» رَوَاهُ مُسلم وَأحمد وَاللَّفْظ لَهُ[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (دعاميص) قال صاحب اللسان: «الدُّعْموصُ: دُوَيْبَّة صَغِيرَةٌ تَكُونُ فِي مُسْتَنْقَع الْمَاءِ، وَقِيلَ: هِيَ دُوَيْبَّة تغُوص فِي الْمَاءِ، وَالْجَمْعُ الدَّعامِيصُ قَالَ الأَعشى:

فَمَا ذَنْبُنا إِن جاشَ بحرُ ابْنُ عمِّكم وبَحْرُك ساجٍ لَا يُوارِي الدَّعامِصَا؟

(١) التبريزي- مشكاة المصابيح - ج١ ص٥٤٩ حديث رقم ١٧٥٢.

وقَالَ الرَّاجِزُ:

يَشْـــرَبْنَ مَـــاءً طَيِّبًـــا قَلِيصُـــه يَـــزِلُّ عَـــنْ مِشْـــفرِها دُعْموصُـــه

والدُّعْمُوصُ: الدَّخَّالُ فِي الأُمور الزوّارُ للمُلوك. وَفِي حَدِيثِ الأَطفال: «هُمْ دَعامِيصُ الجنّةِ» فُسِّرَ بالدُّوَيْبّة الَّتِي تَكُونُ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمَاءِ قَالَ: والدُّعْموصُ الدَّخَّالُ فِي الأُمور أَي أَنهم سَيّاحون فِي الجَنّة دَخَّالُونَ فِي منازِلها لَا يُمنَعون مِنْ مَوْضِعٍ كَمَا أَن الصِّبيان فِي الدُّنْيَا لَا يُمْنَعون مِنَ الدُّخول عَلَى الحُرَم وَلَا يَحْتَجِب مِنْهُمْ أَحدٌ»[1].

فدعاميص الجنة أي صغار أهلها شبه الطفل في الجنة بهذه الدويبة لصغرها وسرعة حركتها وكثرة دخولها وخروجها وقيل هي سمكة صغيرة كثيرة الاضطراب في الماء فاستعيرت هنا للطفل يعني هم سياحون في الجنة دخالون في منازلها لا يمنعون كما لا يمنع صبيان الدنيا الدخول على الحرم وقيل الدعموص اسم للرجل الزوار للملوك الكثير الدخول عليهم والخروج ولا يتوقف على إذن ولا يبالي أين يذهب من ديارهم شبه طفل الجنة به لكثرة ذهابه في الجنة حيث شاء لا يمنع من أي مكان منها[2].

فهي اسم لدويبة تكون بالماء عند ضحالته، وتطلق على الذي يدخل في الأمور بغير استئذان، وتطلق على الذي يدخل على الملوك كثيرا، واستعارها

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج٧ ص٣٦.

(٢) انظر المناوي – فيض القدير شرح الجامع الصغير – ج٤ ص١٩٤.

النبي ﷺ للأطفال الذي يموتون قبل سن التكليف حيث يدخلون الجنة بلا حساب ولا سابقة عذاب، فشبه دخولهم الجنة وانتقالهم فيها حيث يشاءون بهذه الدويبة التي تنتشر في الماء الضحل لسهولة العيش فيه، أو بالذي يدخل في الأمور بلا إذن فهم لا يحاسبون قبل دخول الجنة بل يدخلون كالذي يدخل بلا إذن لسهولة دخولهم وسرعة ولوجهم فيها، أو حال الأطفال مع خالقهم كحال الذي يلج على الملوك بكثرة؛ لأن الله ﷻ لا يحجبهم عن جنته بل يدخلونها وينعمون فيها بلا مشقة أو نصب.

٢٤- أزعب

عَن عَمْرِو بن العاصِ قَالَ: أَرْسَلَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: «أَنِ اجْمَعْ عَلَيْكَ سِلَاحَكَ وَثِيَابَكَ ثُمَّ ائْتِنِي» قَالَ: فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ فَقَالَ: «يَا عَمْرُو إِنِّي أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ لِأَبْعَثَكَ فِي وجْه يُسَلِّمُكَ اللهُ وَيُغَنِّمُكَ وَأَزْعَبَ لَكَ زَعْبَةً مِنَ الْمَالِ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا كَانَتْ هِجْرَتِي لِلْمَالِ وَمَا كَانَتْ إِلَّا لِلَّهِ ولرسولِه قَالَ: «نِعِمَّا بِالْمَالِ الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ» وَرَوَى أَحْمَدُ نَحْوَهُ وَفِي روايتِه: قَالَ: «نِعْمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجُلِ الصالحِ» (صحيح)[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (أزعب) قال صاحب اللسان: «زَعَبَ الإناءَ، يَزْعَبُهُ زَعْبًا: ملأَه. ومَطَرٌ زاعِبٌ: يَزْعَبُ كلَّ شَيْءٍ أَي يَمْلؤُه؛ وأَنشد يَصِفُ سَيْلًا:

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٢ ص١١٠٨ حديث رقم ٣٧٥٦.

مَـا جـازَتِ العُفْـرُ مِـنْ ثُعالـةَ فالرَّوْحـاء مِنْـهُ مَزْعُوبـةُ المُسُـلِ

أَي مَملوءَةٌ. وزَعَبَ السَّيْلُ الواديَ يَزعَبُه زَعْبًا: ملأَه. وزَعَبَ الْوَادِي نفسُه يَزْعَبُ: تَمَّلأَ ودَفَعَ بعضُه بَعْضًا. وجاءَنا سَيْلٌ يَزْعَبُ زَعْبًا أَي يَتدافَعُ فِي الْوَادِي ويجْري، وَقِيلَ: لَا يَكُونُ الزَّعْبُ إِلَّا منْ ضِخَمٍ. وقِرْبةٌ مَزْعُوبةٌ: مملوءَةٌ. وأَنشد: «مِنَ الفُرْنِيِّ يَزْعَبُها الجَميلُ» أَي يَمْلَؤُها. وَفِي حَدِيثِ أَبي الْهَيْثَمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جاءَ بقِرْبَةٍ يَزْعَبُها أَي يَتَدافَعُ بِهَا، ويَحْمِلُها لثِقَلها؛ وزَعَبَ البعيرُ بحملِه يَزْعَبُ بِهِ: مَرَّ بِهِ مُثْقَلًا. وزَعَبَ لَهُ مِنَ المالِ: قَطَع»[1].

وَالْحَدِيثِ: «(أَزْعَبُ لَكَ زَعْبةً) أَي أُعْطِيكَ دُفْعةً مِنَ المالِ؛ والزَّعْبةُ: الدُّفْعةُ مِنَ الْمَالِ. قَالَ: وأَصل الزَّعْبِ الدَّفْعُ والقَسْمُ؛ يُقَالُ: زَعَبْتُ لَهُ زَعْبةً مِنَ الْمَالِ وزُعْبةً: دَفَعْتُ لَهُ قِطْعةً وافِرةً مِن المالِ»[2].

فأصل الزعب اندفاع ماء المطر، واستعاره النبي ﷺ للمال الذي يحوزه عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من مال الغنيمة، ووجه مناسبة الماء المندفع – ليدل على المال الوفير – أن ماء المطر المندفع في الوادي لا يستطيع أحد أن يدفعه ولا يقدر أحد أن يرده عن سبيله الذي يجري به، فدل على عظيم المال الذي سيحوزه عمرو

(١) ابن منظور – لسان العرب ج١ ص٤٤٨ – ٤٤٩ + الزمخشري – الفائق في غريب الحديث ج٢ ص١١٠.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج١ ص٤٤٨ – ٤٤٩ + ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث ج٢ ص٣٠٢.

بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من هذا البعث، كما أنه مشهد مألوف لمن عاش في البادية وسلك دروب الصحراء، فهي استعارة منبثقة عن أجواء الجزيرة العربية.

٢٥- الباءة – وجاء

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ» (مُتَّفق عَلَيْهِ)(١).

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (الباءة) قال صاحب اللسان: «باءَ إِلَى الشَّيْءِ يَبُوءُ بَوْءاً: رَجَعَ. وَالْبَاءُ: النِّكاح. وسُمي النكاحُ باءَةً وَبَاءً مِنَ المَباءَةِ لأَن الرَّجُلَ يَتَبَوَّأُ مَنْ أَهله أَي يَسْتَمْكِنُ مِنْ أَهله، كَمَا يَتَبَوَّأُ مِنْ دارِه، وَفِي حَدِيثِ «مَن اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ» أَراد بِالْبَاءَةِ النكاحَ والتَّزْويج. وَيُقَالُ: فُلَانٌ حَرِيصٌ عَلَى الْبَاءَةِ أَي عَلَى النِّكَاحِ، والأَصلُ فِي الباءةِ المَنْزِل ثُمَّ قِيلَ لِعَقْدِ التَّزْوِيجِ باءةٌ لأَنَّ مَن تزوَّج امرأَةً بَوَّأَها مَنْزِلًا.

قَالَ الشَّاعِرُ:

يَـا أَيُّهَـا الرّاكِـبُ، ذُو الثّبَـاتِ إنْ كُنتَ تَبْغِي صاحِبَ البـاءَاتِ

فاعْمِدْ إِلَى هاتِيكُمُ الأَبْياتِ»(٢)

---

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٢ ص٩٢٧ حديث رقم ٣٠٨٠.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج١ ص٣٥ – ٣٦ + ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث – ج١ ص١٦٠.

قال الطيبي: «واختلفوا في المراد بها في الحديث على وجهين: أرجحهما: أن المراد هو الجماع، والمضاف محذوف، أي أسبابه ومؤنته، فتقديره: من استطاع منكم أسباب الجماع ومؤنته فليتزوج. الثاني: أن المراد بها مؤن النكاح، سميت باسم ما يلازمها»(١).

قال الزمخشري: «ومن المجاز فلان طيب الباءة للعفيف الفرج، جعل طيب الباءة، وهي المباءة والمنزل مجازاً عن ذلك. وهو رحب المباءة: للسخي الواسع المعروف. وقرأ فلان كتاب الباءة إذا كان نكاحاً»(٢).

فهي المنزل الذي يسكنه الإنسان، وأطلقت على تكاليف الزواج ومقوماته، أو على النكاح مجازا، وهو مجاز مرسل علاقته المحلية حيث أطلق المحل وهو مسكن الزوجين وأراد الحال وهو القدرة على الزواج سواء البدنية أو المالية.

٢٦- وِجاء

الكلمة الثانية في الحديث موضع البحث هي قول النبي ﷺ (وجاء) قال صاحب اللسان: «والوَجْءُ: أَن تُرَضَّ أُنْثَيا الفَحْلِ رَضّاً شَدِيدًا يُذْهِبُ شَهْوَة الْجِمَاعِ ويتَنَزَّلُ فِي قَطْعِه مَنْزِلةَ الخَصْي. وَقِيلَ: أَن تُوجَأَ العُروقُ والخُصْيَتان بِحَالِهِمَا. ووَجَأَ التَّيْسَ وَجْأً ووِجَاءً، فَهُوَ مَوْجُوءٌ ووَجِيءٌ، إِذَا دَقَّ عُروقَ خُصْيَتَيْه بَيْنَ حَجَرَيْنِ مِنْ غَيْرِ أَن يُخْرِجَهما. وَقِيلَ: هُوَ أَن تَرُضَّهما حَتَّى تَنْفَضِخَا، فَيَكُونَ شَبِيهاً

(١) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٧ ص٢٢٥٦.

(٢) الزمخشري – أساس البلاغة – ج١ ص٨١.

بالخِصاءِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «فَعَلَيْهِ بالصَّوْمِ فإنه لَهُ وِجَاءٌ» فَإِنْ أَخْرَجَهما مِنْ غَيْرِ أَن يَرُضَّهما، فَهُوَ الخِصاءُ. وَفِي الْحَدِيثِ: «أَنه ضَحَّى بكَبْشَيْن مَوْجُوءَيْن» أَي خَصِيَّيْنِ. فأَراد أَنه يَقْطَعُ النِّكاحَ لأَن المَوْجُوءَ لَا يَضْرِبُ. أَراد أَن الصومَ يَقْطَعُ النِّكاحَ كَمَا يَقْطَعُه الوِجَاءُ»[1].

قال الطيبي: «(فإن الصوم له وجاء)؛ لأنه لا يقال للعاجز هذا، وإنما يستقيم إذا قيل: أيها القادر المتمكن من الشهوة! إن حصلت لك مؤن النكاح فتزوج وإلا فصم، ولهذا خص النداء بـ(الشباب). والوجاء -بكسر الواو- رض الخصيتين، أي الصوم يقطع الشهوة وشر المني، كما يفعل الوجاء»[2].

فالوجاء هو إبطال عمل الخصية بضربها بعصا أو نحوه عند البعير؛ لتسمن، استعار النبي ﷺ الوجاء للدلالة على أثر الصوم في بدن الرجل أو الشاب الذي يريد النكاح ولا يقدر على تكاليفه فأرشده النبي ﷺ إلى الصوم الذي يقطع شهوته كما يقطع الوجاء شهوة البعير، وقوله (وجاء) أقرب من الخصاء لأنه إبطال للشهوة مع وجود سببها أما الخصاء فهو إزالة العضو المسبب للشهوة مطلقا. ويظهر في الاستعارة تأثرها بالبيئة العربية التي تعتمد على الأنعام بكافة أنواعها في حياتها، فهي تعتمد عليها في طعامها وشرابها وانتقالها وحرثها، فهي استعارة قريبة من ذهن كل عربي يعيش في هذه البيئة ويعاين هذه الصورة بشكل يومي.

---

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج١ ص١٩١.

(٢) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج٧ ص٢٢٥٧.

قَالَ بعض أهل الْعلم: «وجأ بِفَتْح الْوَاو مَقْصُور يُرِيد الحفا وَالْأول أَجود فِي الْمَعْنى لِأَن الحفا لَا يكون إِلَّا بعد طول مشي أَو عمل والوجاء الِانْقِطَاع من الْوَصْل»[1].

٢٧- مُمَصمصة

عَن عُتبةَ بن عبدٍ السَّلَميِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْقَتْلَى ثَلَاثَة: مُؤمن جَاهد بنَفسه وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى يُقْتَلَ» قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِ: «فَذَلِكَ الشَّهِيدُ الْمُمْتَحَنُ فِي خَيْمَةِ اللهِ تَحْتَ عَرْشِهِ لَا يَفْضُلُهُ النَّبِيُّونَ إِلَّا بِدَرَجَةِ النُّبُوَّةِ وَمُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى يُقْتَلَ» قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِ: «مُمَصْمِصَةٌ مَحَتْ ذُنُوبَهُ وَخَطَايَاهُ إِنَّ السَّيْفَ مَحَّاءٌ لِلْخَطَايَا وَأُدْخِلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ وَمُنَافِقٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَإِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ قَاتَلَ حَتَّى يُقْتَلَ فَذَاكَ فِي النَّارِ إِنَّ السيفَ لَا يمحُو النِّفاقَ». رَوَاهُ الدارميُّ (صحيح)[2].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ «ممصمصة» قال صاحب اللسان: «مَصْمَصَ الإِناءَ والثوبَ: غَسَلَهما، ومَصْمَصَ فَاهُ ومضْمَضَه بِمَعْنًى وَاحِدٍ، وَقِيلَ: الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَن المَصْمَصَة بطرَفِ اللِّسَانِ والمَضْمَضَةُ بالفمِ كُلِّهِ، وَمَصْمَصَ إِناءه: غسَله كمَضْمَضَه، قال الأَصمعي: يُقَالُ مَصْمَص إِناءه ومَضْمَضَه إِذا جَعَلَ فِيهِ الماءَ

(١) القاسم بن سلام – غريب الحديث – ج٢ ص٧٤.

(٢) التبريزي– مشكاة المصابيح – ج٢ ص١١٣٣ حديث رقم ٣٨٥٩.

وحرّكَهُ لِيَغْسِلَهُ. وَفِي حَدِيثِ مَرْفُوعٍ: «القتْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ مُمَصْمِصةٌ» الْمَعْنَى أَن الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِ اللهِ مُطهِّرة الشَّهِيدِ مِنْ ذُنُوبِهِ ماحِيةٌ خَطَايَاهُ كَمَا يُمَصْمِصُ الإِناءَ الماءُ إِذا رُقْرِقَ الماءُ فِيهِ وحُرِّك حَتَّى يُطَهَّرَ، وأَصله مِنَ المَوْص، وَهُوَ الغَسْلُ»[1]. وقيل: «هي بالصاد غير المعجمة بطرف اللسان وبالضاد بالفم كله. وإنما أنث لأنه في معنى الشهادة، أو أراد خصلة ممصمصة، فأقام الصفة مقام الموصوف»[2].

فالمصمصة هي الغسل بالماء، ولما كان الماء هو المائع المطهر لغيره، والذي يبلغ بالشيء المطهَّر حد الإنقاء فقد استعارها النبي ﷺ فجعل الشهادة في سبيل الله كالماء، والذنوب كالنجاسات التي يطهرها الماء فلا يبقى من أثر النجاسة شيء، لما عرف عن الماء أنه يزيل النجاسة فلا يبقى لها أثر فأخرج المعنوي في صورة حسية.

واستخدام الفعل المضعف «مصمص» المكون من مقطعين متماثلين يوحي بالمبالغة في الإنقاء وتكرار الغسل، بحيث يحصل معه التطهر الكامل من كل الذنوب والأوزار فهذا التكرار في الأفعال المضعفة يوحي بالحركة الدائبة المستمرة.

---

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج٧ ص٩٢ + الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٨ ص٢٦٦٤ + ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث والأثر – ج٤ ص ٣٣٧.

(٢) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٨ ص٢٦٦٤ + ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث والأثر – ج٤ ص ٣٣٧.

٢٨ – يتخوضون

عَن خَوْلةَ الْأَنْصَارِيَّةِ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيّ(١).

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (يتخوضون). قال صاحب اللسان: «خَاضَ الماءَ يَخُوضه خَوْضاً مَشَى فِيهِ؛ أَنشد ابْنُ الأَعرابي:

كأَنــه فِــي الغَــرْضِ، إِذْ تَرَكَّضَــا دُعْمُــوصُ مــاءٍ قَــلَّ مَــا تَخَوَّضَــا

أَي هُوَ مَاءٌ صافٍ، وَالْمَوْضِعُ مَخاضةٌ وَهِيَ مَا جازَ الناسُ فِيهَا مُشاةً ورُكْبانـاً، وَجَمْعُهَا المَخاضُ والمَخاوِضُ»(٢).

وَفِي الْحَدِيثِ: «(رُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِي مَالِ اللهِ تَعَالَى) وأَصْل الخَوْض المشيُ فِي الْمَاءِ وتحريكُه ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي التَّلَبُّسِ بالأَمر وَالتَّصَرُّفِ فِيهِ، أَي رُبَّ مُتَصَرِّفٍ فِي مَالِ اللهِ تَعَالَى بِمَا لَا يَرْضَاهُ اللهُ، وَقِيلَ: هُوَ التَّخْلِيطُ فِي تَحْصِيلِهِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهِ كَيْفَ أَمكن. وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «يَتَخَوَّضُون فِي مَالِ اللهِ تَعَالَى» والخَوْضُ: اللَّبْسُ فِي الأَمر. والخَوْضُ مِنَ الْكَلَامِ: مَا فِيهِ الْكَذِبُ وَالْبَاطِلُ، وَقَدْ خاضَ فِيهِ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأنعام: ٦٨](٣).

(١) التبريزي – المشكاة – ج٢ ص١١٠٦ حديث رقم ٣٧٤٦.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج٧ ص١٤٧.

(٣) ابن منظور – لسان العرب – ج٧ ص١٤٧.

قال الطيبي: «(يتخوضون): الخوض هو الشروع في الماء ويستعار في الأمور وأكثر ما ورد فيما يذم الشروع فيه نحو قوله تعالي: ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]»[1].

فأصل الخوض هو السير في الماء، ولما كان السير في الماء عسير على الماشي كما لا يخفى على أحد استعاره النبي ﷺ لمن يسلك الطرق المحرمة وغير المشروعة في اكتساب رزقه، حيث أراد النبي ﷺ أن يخرجه في صورة حسية ممقوتة يشعر معها السامع بخطورة ما يفعله الخائض في مال الله بغير حق. واستخدم النبي ﷺ صيغة (تفعّل) المزيدة بالتاء والتضعيف مبالغة في إشعار السامع بصعوبة الطريق ووعورته إذا كان يكتسب مالا ليس له فيه حق، وجاءت الخاء والضاد المفخمتان لإضفاء الغلظة المطلوبة للكلمة التي يحتاجها السياق؛ لتوحي بعظم هذا الذي فعله من اعتدى بغير حق على مال الله.

٢٩- الألد

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الْأَلَدُّ الخَصِمُ» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)[2].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (الألد). قال صاحب اللسان: «اللَّديدُ ظَاهِرُ الرَّقَبَةِ؛ وأَنشد أبو عمرو:

---

(١) الطيبي – شرح المشكاة – ج٨ ص٢٦٠٣ + المناوي – فيض القدير – ج٢ ص٤٥٠.

(٢) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٢ ص١١١١ حديث رقم ٣٧٦٢.

كـــلُّ حُســـام مُحْكَـــمِ التَّهْنِيـــدِ يَقْضِـــبُ عِنْـــدَ الهَـــزِّ والتَّحْريـــدِ

سالِفَةَ الهامةِ واللَّديدِ

وتَلَدَّدَ: تَلَفَّتَ يَمِينًا وَشِمَالًا تَحَيُّرًا، مأْخوذ مِنْ لَديدَيِ الْعُنُقِ وَهُمَا صَفْحَتَاهُ. الأَلَدِّ فِي اللُّغَةِ الشديدُ الْخُصُومَةِ، وَاشْتِقَاقُهُ مِن لَديدَيِ الْعُنُقِ وَهُمَا صَفْحَتَاهُ، وتأْويله أَن خَصْمَه أَيّ وَجْهٍ أَخَذ مِنْ وُجُوهِ الْخُصُومَةِ غَلَبَهُ فِي ذَلِكَ. يُقَالُ: رَجُلٌ أَلَدُّ بَيِّنُ اللَّدَد شَدِيدُ الْخُصُومَةِ»[1].

قال الطيبي: «والأصل في الألد الشديد اللديد وهو صفحة العنق. وذلك لما لا يمكن صرفه عما يريده والخصم المختص بالخصومة فالأول منبئ عن الشدة والثاني عن الكثرة. وعليه قوله تعالي: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، أي شديد الجدال»[2]. قال الزركشي: «ومنه ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، وسمي ألد لاستعماله لدديه أي جانبي فمه وعاتقه[3].

فالكلمة مأخوذة من اللديد وهي صفحة العنق، وهي كناية عن صفة وهي شدة الخصومة، لما كان المخاصم يثني عنقه ثنيا شديدا ولا يحوله عن جهته؛ ليدلل بذلك على شدة رفضه لأمر ما، جعله النبي ﷺ كناية عن شدة الرفض والتمادي في الخصام والإعراض عن صاحبه بحيث يظهر الألد وهو يدير رأسه

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج ٣ ص٣٩٠.

(٢) الطيبي – شرح المشكاة – ج٨ ص ٢٦١٢.

(٣) المناوي – فيض القدير شرح الجامع الصغير – ج١ ص٨٠.

عن خصمه لئلا ينظر إليه؛ لأن النظر مع السكوت قد يوحي بأدنى الموافقة أو الرضا وهو لا يريد أن يشعر من أمامه بذلك.

٣٠- مغبون

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (مغبون). قال صاحب اللسان: «الغَبْنُ بِالتَّسْكِينِ فِي الْبَيْعِ، والغَبَنُ بِالتَّحْرِيكِ، فِي الرأْي. والغَبْنُ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ: الوَكْسُ، غَبَنَه يَغْبِنُه غَبْنًا هَذَا الأَكثر أَي خدَعه، وَقَدْ غُبِنَ فَهُوَ مَغْبُونٌ. وغَبِنْتُ فِي الْبَيْعِ غَبْنًا إِذَا غَفَلْتَ عَنْهُ، بَيْعًا كَانَ أَو شِرَاء. وَيُقَالُ: أَرَى هَذَا الأَمر عَلَيْكَ غَبْنًا. وأَنشد:

أَجُولُ فِي الدارِ لَا أَراك، وفي الدّار ... أُنَاسٌ جِوارُهم غَبْنُ[٢]

شبه المكلف بالتاجر والصحة والفراغ برأس المال لكونهما من أسباب الأرباح ومقدمات النجاح فمن عامل الله بامتثال أوامره ربح ومن عامل الشيطان باتباعه ضيع رأس ماله. والفراغ نعمة غبن فيها كثير من الناس. ونبه بكثير على أن الموفق لذلك قليل[٣].

---

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٣ ص١٤٢٧ حديث رقم ٥١٥٥.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج١٣ ص٣٠٩-٣١٠.

(٣) انظر المناوي – فيض القدير شرح الجامع الصغير – ج٦ ص٢٨٨.

وَالْمَعْنَى لَا يَعْرِفُ قَدْرَ هَاتَيْنِ النِّعْمَتَيْنِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ حَيْثُ لَا يَكْسِبُونَ فِيهِمَا مِنَ الْأَعْمَالِ كِفَايَةَ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي مَعَادِهِمْ فَيَنْدَمُونَ عَلَى تَضْيِيعِ أَعْمَارِهِمْ عِنْدَ زَوَالِهَا وَلَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾[التغابن: ٩](١).

فالغبن في اللغة الخسارة في البيع أو الشراء، بأن يبيع الشيء الثمين بثمن بخس فيخسر، أو يشتري ما لا قيمة له بثمن كبير فيخسر ماله أيضا، ولما كان المال هو أنفس ما يمتلكه الناس، فقد استعار النبي ﷺ الغبن الذي هو الوكس والخسارة مع الصحة والفراغ، حيث أراد النبي ﷺ أن يلفت انتباههم إلى الصحة والفراغ وكونهما في نفاسة المال بل أشد؛ فبهما يحصّل الإنسان ما يبغيه من خيري الدنيا والآخرة.

إن رسول الله ﷺ ضرب مثلا للمكلف بالتاجر الذي له رأس مال، وهو يبيع ويشتري ويطلب من تجارته سلامة رأس المال والربح، فالواجب عليه أن يتحرى فيها من يعامله، ويكون صدوقًا غير مخادع لئلا يغبنه في معاملته. فنعمتا الفراغ والصحة رأس مال المكلف، فينبغي له أن يعامل الله تعالى بالإيمان بالله ورسوله، والمجاهدة مع النفس وأعداء الدين؛ لئلا يغبن ويربح في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ [الصف: ١٠-١١]، ويجتنب معاملة الشيطان لئلا يغبن فيضيع رأس ماله مع الربح(٢).

(١) انظر أبو الحسن الهروي – مرقاة المفاتيح – ج٨ – ص٣٢٢٥.

(٢) انظر الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج١٠ ص٣٢٧١.

٣١- ترة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ وَمَنِ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا لَا يذكر الله فِيهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (صَحِيحٌ)[١].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (ترة) قال صاحب اللسان: «والوَتْرُ والوِتْرُ والتِّرَةُ والوَتِيرَةُ: الظُّلْمُ، وكلُّ مَنْ أَدركته بِمَكْرُوهٍ، فَقَدَ وَتَرْتَه. والمَوْتُورُ: الَّذِي قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَلَمْ يُدْرِكْ بِدَمِهِ؛ تَقُولُ مِنْهُ: وَتَرَهُ يَتِرُه وَتْراً وتِرَةً. ووَتَرَهُ حَقَّه وَمَالَهُ: نَقَصَه إِياه. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، لَنْ يَنْقُصَكُمْ مِنْ ثَوَابِكُمْ شَيْئًا»[٢].

وَفِي حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ: «(مِنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فكأَنما وَتَرَ أَهله وَمَالَهُ) أَي نَقَصَ أَهله وَمَالَهُ وَبَقِيَ فَرْدًا وَقِيلَ: هُوَ مِنَ الوَتْرِ الْجِنَايَةُ الَّتِي يَجْنِيهَا الرَّجُلُ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ قَتْلٍ أَو نَهْبٍ أَو سَبْيٍ، فَشَبَّهَ مَا يَلْحَقُ مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ بِمَنْ قُتِلَ حَمِيمُهُ أَو سُلِبَ أَهله وَمَالُهُ. وَفِي الْحَدِيثِ: (مَنْ جَلَسَ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ كَانَ عَلَيْهِ تِرَةً) قيل: أَراد بالتِّرَةِ هاهنا التَّبِعَةَ. قال الْفَرَّاءُ: يُقَالُ وَتَرْتُ الرَّجُلَ إِذا قَتَلْتَ لَهُ قَتِيلًا وأَخذت لَهُ مَالًا»[٣].

---

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٢ ص٧٠٢ حديث رقم ٢٢٧٢.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج٥ ص٢٧٣ + الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج٥ ص١٧٣٥.

(٣) ابن منظور – لسان العرب – ج٥ ص٢٧٣.

قال الزمخشري: «ضربوا الخيل على الأوتار. وقال أبو زبيد:

لا تـــــرةٌ عنـــــدهم فتطلبهـــــا ولا هـــــم نهـــــزة لمخـــــتلس

وفلان موفور، غير موتور ومن المجاز: وترته حقّه»[1].

فأصل الترة الجناية التي تصيب المرء في ذويه من قتل أو سبي ولا يستطيع أن يأخذ حقه ممن ظلمه فتصيبه الحسرة والمعرة، فاستعارها النبي ﷺ هنا لمن يجلس المجلس لا يذكر الله فيه فتصيبه الحسرة يوم القيامة؛ جزاء تفريطه في ذكر الله وانشغاله باللهو واللعب، وانصرافه عما خلق من أجله، ونفوره من خالقه وركونه إلى الحياة الدنيا، فشبه ما يصيبه من الحسرة والتندم بحسرة هذا الذي قتل له قتيل ولا يستطيع لعجزه أن ينال من القاتل بقصاص أو دية.

٣٢- الراشي

عَن عبد الله بن عَمْرو قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهْ (صَحِيح)[2].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (الراشي). قال صاحب اللسان: «الرَّشْوَةُ والرِّشْوَةُ مَعْرُوفَةٌ: الجُعْلُ، وَالْجَمْعُ رُشىً ورِشىً، وتَرَشَّاه: لاَيَنَهُ. ورَاشَاه إِذَا ظاهرهَ. قَالَ أَبو الْعَبَّاسِ: الرُّشْوَةُ مأْخوذة مِنْ رَشَا الفَرْخُ إِذَا مدَّ رأْسَه إِلَى أُمِّه

(١) الزمخشري – أساس البلاغة – ج٢ ص٣١٨.

(٢) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٢ ص١١٠٨ حديث رقم ٣٧٥٣.

لتَزُقَّه. والرِّشَاءُ: رَسَنُ الدَّلوِ. والرَّائِشُ: الَّذِي يُسْدي بَيْنَ الرَّاشِي والمُرْتَشِي»[1].

قال ابن الأثير: «وَأَصْلُهُ مِنَ الرِّشَاءِ الَّذِي يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْمَاءِ. فَالرَّاشِي مَنْ يُعْطِي الَّذِي يُعِينه عَلَى الْبَاطِلِ. والْمُرْتَشِي الآخِذُ. والرَّائِشُ الَّذِي يسْعى بَيْنَهُمَا يَسْتزيد لِهَذَا ويَسْتنقِص لِهَذَا»[2].

قال الزمخشري: الريش بِمَعْنى الاصطناع والإصابة بِالْخَيرِ مستعار من ريش السهْم أَلا ترى إِلَى قَوْله: فرِشْ واصْطَنِع عِنْد الَّذين بهم ترمي.

وَقَوله:

فَرِشْـنِي بِخَيـر طالمـا قـد بَرَيْتَنِـي فخيرُ الموَالِي مَنْ يَريشُ وَلَا يَبْري[3]

فالراشي هو الذي يعطي الرشوة، والمرتشي هو من يطلبها أو يأخذها، والرشوة مال يدفع لمن لا يستحقه من أجل حصول الراشي على نفع لا يستحقه بتسهيل وتيسير وإعانة من المرتشي، هذا المعنى المجازي للكلمة، أما أصل الكلمة فقد تباينت آراء الشراح في تفسيرها فمنهم من يرى أن أصلها (الرشاء) وهو حبل الدلو الذي يربط فيه ليصل الدلو إلى البئر فيد الإنسان لن تحصل على الماء في الدلو إلا بواسطة الحبل الذي يربط به ثم يدلى داخل البئر، فهي مصانعة

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج١٤ ص٣٢٢ + الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج٨ ص٢٦٠٦ + الزمخشري – الفائق في غريب الحديث – ج٢ ص٦٠.

(٢) ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث – ج٢ ص٢٢٦.

(٣) الزمخشري – الفائق في غريب الحديث – ج٢ ص٦٠.

للوصول إلى الماء، ومنهم من يراه من قولهم (رشا الفرخ) إذا مد رأسه إلى أمه لتطعمه في فمه فهي مصانعة للوصول إلى الطعام؛ لعجزه عن الوصول إليه بنفسه فلا يستطيع تحصيله إلا من طريق أمه، ومنهم من يراه من (ريش السهم) إذا وضع في مؤخرته الريش حتى لا ينحرف يمينا وشمالا إذا خرج من القوس فهي مصانعة من أجل الوصول إلى الغرض وإصابة الهدف.

والمتأمل لأصل الكلمة في الأمثلة الثلاثة – الحبل ومد العنق للحصول على الطعام ووضع الريش في أسفل السهم – يجد أن لها قاسمًا مشتركًا هو الحصول على منفعة بوسيلة لا يستطيع بدونها تحصيل ما يريد، وهذا حال الراشي الذي يبغي الحصول على نفع لا يستطيع الحصول عليه إلا من طريق المصانعة مع المرتشي؛ لعجزه عن الوصول إليه بنفسه.

٣٣- القزع

عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَنْهَى عَنِ الْقَزَعِ. قِيلَ لِنَافِعٍ: مَا الْقَزَعُ؟ قَالَ: يُحْلَقُ بعضُ رَأس الصبيِّ وَيتْرك البعضُ. وَأَلْحق بَعضهم التَّفْسِير بِالْحَدِيثِ (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)(١).

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (القزع) قال صاحب اللسان: «القَزَعُ: قِطَعٌ مِنَ السَّحَابِ رِقَاقٌ كأَنها ظِلٌّ إِذا مَرَّتْ مِنْ تَحْتِ السَّحَابَةِ الْكَبِيرَةِ. وَفِي حَدِيثِ الِاسْتِسْقَاءِ: (وَمَا فِي السَّمَاءِ قَزَعةٌ) أَي قِطْعةٌ مِنَ الْغَيْمِ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ:

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٢ ص١٢٦٢ حديث رقم ٤٤٢٦.

مَقانِــبُ بعضُــها يبْــري لــبعضٍ كــأَنَّ زُهاءَهــا قَــزَعُ الظِّــلالِ

وَقِيلَ: القَزَعُ السَّحَابُ الْمُتَفَرِّقُ، وَاحِدَتُهَا قَزَعةٌ. وَمَا فِي السَّمَاءِ قَزَعةٌ وقِزاعٌ أَي لَطْخةُ غَيْمٍ[1].

قال القاسم بن سلام: «كل شَيْء يكون قِطَعا مُتَفَرِّقَة فَهُوَ قَزَع وَمِنْه قيل لِقطع السَّحَاب فِي السَّمَاء: قَزَع. وَأَكْثر مَا يكون ذَلِك فِي زمن الخريف قَالَ ذُو الرمة يذكر مَاء وبلادا مُقْفرة لَيْسَ بهَا أنيس وَلَا شَيْء إِلَّا القطا:

تــرى عُصَــبَ القطــا هَمَــلا عَلَيْــهِ كَــأَن رِعالَــه قــزعُ الجَهــامِ

والجَهام: السَّحَاب الَّذِي لَا مَاء فِيهِ»[2]. قال الزمخشري: «ومن المجاز: نهيَ عن القزع وهي بعض الشعر يترك غير محلوق»[3].

فإن الحلق لبعض الرأس وترك بعضه مُثلة ويسمى القزع وذلك لما فيه من التشويه وتقبيح الصورة والتعليل بذلك كما قال القرطبي: بأنه زي أهل الدعارة والفساد وبأنه زي اليهود، وهذا من كمال محبة المصطفى ﷺ للعدل فإنه أمر به حتى في شأن الإنسان مع نفسه فنهاه عن حلق بعض وترك بعض لأنه ظلم للرأس حيث ترك بعضه كاسيا وبعضه عاريا ونظيره المشي في نعل واحدة[4].

---

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج٨ ص٢٧١ + الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٩ ص٢٩٢٦.

(٢) القاسم بن سلام – غريب الحديث – ج١ ص١٨٥.

(٣) الزمخشري – أساس البلاغة – ج٢ ص٧٥.

(٤) انظر المناوي – فيض القدير – ج١ ص٢٠١.

فهو حلق بعض شعر الرأس وترك بعضه، وأصل القزع هو قطع السحاب المتفرقة حيث تغطي جزءا من السماء وتترك آخر، فاستعارها النبي ﷺ لمن يترك جزءا من شعره ويحلق جزءا، ووجه نيابة القزع عن الشعر أن السحاب المتفرق لا جدوى وراءه، فلا يرجى منه نفع، حيث لا يمطر السحاب إذا كانت هذه هيئته، كذلك إذا حلق الرجل راسه بهيئة القزع لا يرجي خيره ولا يطلب نفعه، خاصة إذا كان هذا شعار أهل الفسق في زمانهم، أو سمة من سمات اليهود، فكيف يرجي خيره وقد خالف سنن الأنبياء وهدي المرسلين وتتبع آثار من لا خلاق له يوم القيامة؟ فهذا سحاب لا مطر فيه، وذاك رجل لا خير فيه.

٣٤- المتفيقهون

وَعَن أبي ثَعلبةَ الخُشنيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مني مساويكم أَخْلَاقًا الثرثارون المتشدقون المتفيقهون» رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي الشُّعب[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (المتفيهقون). وأَصل الفَهْقِ الِامْتِلَاءُ، فَمَعْنَى المُتَفَيْهق الَّذِي يَتَوَسَّعُ فِي كَلَامِهِ ويَفْهَقُ بِهِ فَمُهُ. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِن أَبغضكم إِليَّ الثَّرْثارُون المُتَفَيْهِقُون» وَتَفْسِيرُ الْحَدِيثِ هُمُ الَّذِينَ يَتَوَسَّعُونَ فِي الْكَلَامِ وَيَفْتَحُونَ بِهِ أَفواههم، مَأْخُوذٌ مِنَ الفَهْق وَهُوَ الِامْتِلَاءُ وَالِاتِّسَاعُ. يُقَالُ:

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج ٣ ص١٣٥٢.

أَفْهَقْتُ الإِناء فَفَهِقَ يَفْهَقُ فَهْقًا[1]. قال القاسم بن سلام: «الفَهَق والفَهْقْ قَالَ الْأَعْشَى:

تــروح علــى آل المُحَلَّــق جفنــةٌ كَجَابِيَــةِ الشَّــيْخ الْعِرَاقِــيّ تفهــق

يَعْنِي الامتلاء»[2].

قال الْفَرَّاءُ: «وَأَنْشَدَ يَعْقُوبُ لأَعرابي اخْتَلَعَتْ مِنْهُ امْرَأَتُهُ وَاخْتَارَتْ زَوْجًا غَيْرَهُ فأَضرَّها وَضَيَّقَ عَلَيْهَا فِي الْمَعِيشَةِ، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ فَقَالَ يَهْجُوهَا وَيَعِيبُهَا بِمَا صَارَتْ إِلَيْهِ مِنَ الشَّقَاءِ:

لَمْ تَخْشَ عِنْدِي قَطُّ مَا إِلَّا السَّنَتْ فالرِّسْــلُ دَرٌّ، والإِنــاءُ مُنْفَهِــقْ

أَراد لَمْ تَخْشَ عِنْدِي قَطُّ إِلَّا السَّنَةَ وَهُوَ شِبْهُ البَشَم يَعْتَرِي مِنْ كَثْرَةِ شُرْبِ اللَّبَنِ، وَإِنَّمَا عيَّرها بِمَا صَارَتْ إِلَيْهِ بَعْدَهُ»[3].

وأصل الفهق امتلاء الإناء بالماء واستعاره النبي ﷺ للذي يتوسع في كلامه ويملأ فاه به تكبراً على عامة الناس، فصور فاه بالوعاء الذي يمتلئ بالكلام، وقد استعير الإناء للدلالة على الفم وما يخرج منه من كلام أو على الإنسان وما يصدر

(١) ابن منظور – لسان العرب ج ١٠ص٣١٣ + الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج١٠ ص٣١٠٦ + الزمخشري – الفائق في غريب الحديث – ج٤ ص٦٨ + ابن الأثير – الفائق في غريب الحديث ج٣ ص٤٨٢.

(٢) القاسم بن سلام – غريب الحديث ج١ ص١٠٦ + ابن منظور – لسان العرب ج ١٠ص٣١٣.

(٣) ابن منظور – لسان العرب – ج ١٠ص٣١٤.

منه من أفعال واستعير الإناء للفم أيضا في قولهم: «كلّ إناء ينضح بما فيه»[1] و«كلُّ إنَاءٍ يَرْشَحُ بما فِيه»[2].

٣٥- المتنطعون

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ». قَالَهَا ثَلَاثًا. رَوَاهُ مُسْلِمٌ[3].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (المتنطعون) قال صاحب اللسان: «والنِّطَعُ: مَا ظهرَ مِنْ غارِ الفَمِ الأَعلى، وَهِيَ الجِلْدةُ المُلْتَزِقةُ بِعَظْمِ الخُلَيْقاءِ فِيهَا آثَارٌ كالتَّحْزِيزِ، وَهُنَاكَ مَوقِعُ اللِّسَانِ فِي الحَنَكِ، وَالْجَمْعُ نُطُوعٌ لَا غَيْرَ، والتَّنَطُّعُ فِي الْكَلَامِ: التَّعَمُّقُ فِيهِ مأْخوذ مِنْهُ»[4].

وَفِي الْحَدِيثِ: «(هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ) هُمُ الْمُتَعَمِّقُونَ الْمُغالُونَ فِي الكلامِ الَّذِينَ يتكلمون بأَقْصَى حُلُوقِهم تَكَبُّراً كَمَا فِي حَدِيثِ عُمَرَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: « لَنْ تَزالوا بخَيْرٍ مَا عَجَّلْتُم الفِطْرَ وَلَمْ تَنَطَّعُوا تَنَطُّعَ أَهْلِ العِراقِ أَي تَتَكَلَّفُوا الْقَوْلَ وَالْعَمَلَ»[5].

---

(١) الهاشمي – الأمثال – ج١ ص١٨٦ – ط١.

(٢) أبو الفضل النيسابوري – مجمع الأمثال – ج٢ ص١٦١ – ط١.

(٣) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٣ ص١٣٥٠.

(٤) ابن منظور – لسان العرب ج ٨ص٣٥٧ + ابن الأثير – الفائق في غريب الحديث ج٣ ص٤٨٢.

(٥) ابن منظور – لسان العرب ج ٨ص٣٥٧.

فهم المتشدقون في حديثهم الذين يتكلفون الحديث ويخرجون به عن حد الاعتدال إلى المغالاة، وأصل النطع هو الحنك الأعلى أو تجويف الفم الأعلى، حيث إن إطباق اللسان في الحنك الأعلى يخرج الحرف مفخمًا ضخما فالكلمة جاءت كناية عن صفة التكلف والتقعر الذموم في الحديث الذي نهى الله عنه في كتابه حيث يقول: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]. فجاء النهي عنه لأنه ليس من شيم المرسلين وأتباعهم.

٣٦- وعثاء

عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى السَّفَرِ كَبَّرَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا وَاطْوِ لَنَا بُعْدَهُ اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ والأهلِ». وإذا رجعَ قالَهنَّ وزادَ فيهِنَّ: «آيِبُونَ تائِبُونَ عابِدُونَ لربِّنا حامدون». رَوَاهُ مُسلم[1].

الكلمة موضع البحث هي قول النبي ﷺ (وعثاء السفر). قال صاحب اللسان: «الوَعْثُ: الْمَكَانُ السَّهْلُ الْكَثِيرُ الدَّهِسُ، تَغِيبُ فِيهِ الأَقدام. قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: الوَعْثُ مِنَ الرَّمْلِ مَا غَابَتْ فِيهِ الأَرجل والأَخفاف وَقِيلَ: الوَعْثُ مِنَ الرَّمْلِ مَا لَيْسَ

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح ج٢ص٧٤٩ حديث رقم ٢٤٢٠.

بِكَثِيرٍ جَدًا وقيل: هو الْمَكَانُ اللَّيِّنُ، وَحَكَى الأَزهري: الوَعْثاءُ مَا غَابَتْ فِيهِ الحوافِرُ والأَخفافُ مِنَ الرَّمْلِ الرَّقِيقِ والدَّهاسِ مِنَ الْحَصَى الصِّغَارِ وَشِبْهِهِ»[1]. قال الزمخشري: «يُقَال: رمل أوعث ورملة وعثاء لما يشْتَد فِيهِ السّير للينه ثمَّ قيل للشدة وَالْمَشَقَّة: وعثاء على التَّمْثِيل[2] ومن المجاز: «أعوذ بالله من وعثاء السفر»: من شدّته. وركب فلان الوعثاء إذا أذنب. قال الكميت:

وأيــن ابنهــا مــنكم ومنّــا وبعلهــا خزيمة والأرحام وعثاء حوبها»[3]

قَالَ رؤْبة: «(لَيْسَ طريقُ خَيْره بالأَوْعَثِ) وَقَالُوا: (عَلَى مَا خَيَّلَتْ وَعْثُ القَصِيم) إِذا أَمرته بِرُكُوبِ الأَمر عَلَى مَا فِيهِ، وَهُوَ مَثَلٌ. ووَعْثاءُ السَّفَرِ: مَشَقَّتُهُ وَشِدَّتُهُ»[4].

فأصل الوعث هو المكان اللين الذي تسوخ فيه الأقدام، واستعمل هنا لشدة السفر مجازا، والمجاز هنا مرسل علاقته الجزئية حيث عبر عن بعض المشاق التي يتعرض لها المسافر في البادية وأراد الكل، حيث إن المسافر في الصحراء يواجه الكثير من الصعاب – كما لا يخفى – من وعورة الأرض وندرة الماء ونفاد الزاد

(١) ابن منظور – لسان العرب ج٢ ص٢٠٢.

(٢) الزمخشري – الفائق في غريب الحديث – ج٤ ص٧١ + الطيبي – شرح مشكاة المصابيح ج٦ ص١٨٩٣.

(٣) الزمخشري – أساس البلاغة – ج٢ ص٣٤٣.

(٤) ابن منظور – لسان العرب ج٢ ص٢٠٢.

وقلة العمران وغير ذلك، فعبر النبي ﷺ عن البعض وهو صعوبة السير على الأرض للينها وعدم إمكانية تتابع السير عليها بصورة مستقيمة عن باقي الصعاب. كما يمكن أن تكون العلاقة في المجاز المرسل هنا السببية حيث ذكر السبب وهو لين الأرض تحت أقدامهم وأراد المسبب وهو المشقة الحاصلة من السير على هذه الأرض.

الفصل الرابع

البلاغة في الغريب التركيبي

ويقصد بالغريب المركب هو ما كانت غرابته بسبب التركيب مع غيره سواء كان تركيبا إسناديا كالتركيب بين المبتدأ والخبر، أو الفعل والفاعل، أوتركيبا إضافيا بين المضاف والمضاف إليه، أو تركيبا وصفيا بين النعت والمنعوت، أو غير ذلك مما في معناه.

وإلى هذا النوع أشار ابن الأثير في قوله: «وأعجب ما في ذلك أن تكون الألفاظ المفردة التي تركبت منها المركبة واضحة كلها وإذا نظر إليها مع التركيب احتاجت إلى استنباط وتفسير وهذا لا يختص به القرآن وحده بل في الأخبار النبوية والأشعار والخطب والمكاتبات كثير من ذلك»[1].

وابن الأثير هو أول من أشار إلى هذا النوع الغرابة الناشئة عن تركب الألفاظ مع بعضها في إشارته تلك، حيث كان الحديث قبل ذلك منصبا على غرابة اللفظة المفردة.

ولم أجد من أشار إليها بعده - فيما أعلم - سوى الرافعي في كتابه «تاريخ آداب العرب» حيث أسهب الرافعي وأطال النفس في حديثه عن الغرابة الناشئة عن

(١) ابن الأثير - المثل السائر - ج١ ص٨٣.

تركيب الألفاظ في القرآن – خصوصا – فنراه يقول: «وهنا أمر دقيق لا بد لنا من طلب وجهه؛ لأنه شطر الإعجاز في القرآن الكريم، وذلك أنك حين تنظر في تركيبه لا ترى كيفما أخذت عينك منه إلا وضعًا غريبًا في تأليف الكلمات، وفي مساق العبارة، وبحيث تبادرك غرابته من نفسها وطابعها بما تقطع أن هذا الوضع وهذا التركيب ليس في طبع الإنسان ولا يمكن أن يتهيأ له ابتداء واختراعًا دون تقديره على وضع يشبهه، أو احتذاء لبعض أمثلة تقابله، لا تحتاج في ذلك إلى اعتبار ولا مقايسة، وليس إلا أن تنظر فتعلم»[1].

فالرافعي يرى أن أحد أسباب إعجاز القرأن راجع إلى غرابة تركيبه وحسن سبكه الذي لا يضارعه في ذلك أدب الشعراء والكتاب وسائر من يشتغلون بهذا الفن قاطبة من لدن العصر الجاهلي إلى عصرنا هذا، ليس إلا لأنه من عند الله ﷻ.

فلا عجب إذن أن نرى إحدى المدارس النقدية وهي المدرسة (الشكلية) ترى أن التغريب أو نزع الألفة هو أحد أهم الفروق بين اللغة الأدبية واللغة العادية في استعمالها اليومي وبذا تتمايز لغة الأدب عما سواها[2].

ويرى الرافعي أنه لا يجد مع تلك الغرابة في أوضاع القرآن، إلا ألفاظًا مؤتلفة متمكنة، التأم سردها وتناصف وجوهها، لا ينازع لفظ واحد منها إلى غير موضعه، ولا يطلب غير جهته من الكلام. كما يرى أن اتفاق هذا الإحكام العجيب

(١) الرافعي – تاريخ آداب العرب – ج٢ ص١٦٤.

(٢) انظر د/ شفيع السيد – نظرية الأدب – مكتبة الآداب – القاهرة – ط٣ – ص١٨٥.

مع غرابة الوضع، لهو أغرب منها في مذهب البلاغة، وأدخل في باب العجب، ولولا أن الأمر إلهي، ولا عجب من قدرة الله[1].

إن كلام الرافعي عن القرآن وغرابة تركيبه وروعة تأليفه ينسحب على سنة النبي ﷺ وإن كان بدرجة أقل؛ لأن معاني السنة الشريفة هي أيضا من عند الله ﷻ ولكن السنة ألفاظها من عند النبي وهو الذي قد حاز قصب السبق في مضمار البلاغة وساحة الفصاحة قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ - ٤]،فكلامه ﷺ وحي وإن كانت الألفاظ له.

قبل الشروع في مادة هذا الفصل نورد الأمثلة التي ذكرها ابن الأثير في كتابه (المثل السائر) التي أراد أن يقوي بها فكرته ويدعم بها رأيه الذي رأى ومذهبه الذي ذهب من وجود غرابة ناشئة من تركيب الكلمات مع بعضها برغم أنها وهي مفردة لا تدخل في باب الغرابة بل هي ألفاظ متداولة كثيرة الاستعمال.

يقول ابن الأثير: «قد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «صومكم يوم تصومون، وفطركم يوم تفطرون، وأضحاكم يوم تضحّون» وهذا الكلام مفهومة مفردات ألفاظه؛ لأن الصوم والفطر والأضحى مفهوم كله، وإذا سمع هذا الخبر من غير فكرة قيل: علمنا أن صومنا يوم نصوم، وفطرنا يوم نفطر، وأضحانا يوم نضحّي، فما الذي أعلمنا به مما لم نعلمه؟ وإذا أمعن الناظر نظره فيه علم أن معناه يحتاج

(١) انظر الرافعي – تاريخ آداب العرب – ج٢ ص١٦٤.

إلى استنباط، والمراد به أن إذا اجتمع الناس على أن أول شهر رمضان يوم كذا، ولم يكن ذلك اليوم أوله، فإن الصوم صحيح، وأوله هو ذلك اليوم الذي اجتمع الناس إليه، وكذا يقال في يوم الفطر، ويوم الأضحى. ولهذا الخبر المشار إليه أشباه كثيرة تفهم معاني ألفاظها المفردة، وإذا تركبت تحتاج في فهمها إلى استنباط»[1].

ويضرب ابن الأثير مثالا آخر من شعر أبي تمام:

ولهت فأظلم كلّ شيء دونها وأضاء منها كلّ شيء مظلم

فإن الوله والظلمة والإضاءة كل ذلك مفهوم المعنى، لكن البيت بجملته يحتاج في فهمه إلى استنباط، والمراد به أنها ولهت فأظلم ما بيني وبينها، لما نالني من الجزع لولهها؛ كما يقول الجازع: أظلمت الأرض عليّ: أي أني صرت كالأعمى الذي لا يبصر، وأما قوله: «وأضاء منها كل شيء مظلم» أي وضح لي منها ما كان مستترا عني من حبها إياي[2].

ويختم كلامه بشأن هذا الموضوع بمثال من شعر البحتري حيث يقول:

إذا سار سهبا عاد ظهرا عدوّه وكان الصّديق بكرة ذلك السّهب

فإن السّير والسّهب والظهر والعدو والصّديق كل ذلك مفهوم المعنى، لكن البيت بمجموعه يحتاج معناه إلى استنباط، والمراد أن هذا المنهزم يرى ما بين يديه محبوبا إليه، وما خلفه مكروها عنده؛ لأنه يطلب النجاة فيؤثر البعد مما خلفه

(١) ابن الأثير – المثل السائر – ج١ ص٨٣.

(٢) انظر ابن الأثير – المثل السائر – ج١ ص٨٣.

والقرب مما أمامه، فإذا قطع سهبا وخلّفه وراءه صار عنده كالعدو، وقبل أن يقطعه كان له صديقا: أي يطلب لقاءه ويحبّ الدنو منه[1].

فالغريب التركيبي نوع من الغريب يميز الألوان الأدبية حيث لا تستعمل الألفاظ بالطريقة التي تستعمل بها في لغة الحياة اليومية وإنما ترتقي ليظهر لنظمها شكلا جديدًا غير مألوف للسامع ومن ثم يستشعر القارئ أو السامع لها بشيء من الغرابة لما لها من نظم ابتكاري فني مخالف للنظم المألوف في الكلام اليومي، وقد تتبعتها في أحاديث المشكاة وهي كالتالي.

١- تكفرن العشير

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَضْحًى أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ، فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن، قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟ قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عقلهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تَصِلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟ قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا. (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)[2].

---

(١) انظر المصدر السابق - ج١ ص٨٤.

(٢) التبريزي - مشكاة المصابيح -ج١ ص١٣ حديث رقم١٩.

التركيب الذي هو موضع البحث في هذا الحديث هو قوله ﷺ (تكفرن العشير) الذي خرج منه ﷺ في معرض الوعظ للنساء، حيث استعمله ﷺ زجرًا لهؤلاء النساء اللاتي يقابلن إحسان أزواجهن بالجحود والنكران.

قال صاحب اللسان: «والعَشِيرُ المُعَاشِرُ، والعَشِيرُ: الْقَرِيبُ وَالصَّدِيقُ، وَالْجَمْعُ عُشَراء، وعَشِيرُ المرأَة: زوجُها لأَنه يُعاشِرها وتُعاشِرُه كَالصَّدِيقِ والمُصَادِق؛ قَالَ سَاعِدَةُ بْنُ جُؤَيَّةَ:

رأَتْه عَلَى يَأْسٍ، وَقَدْ شابَ رَأْسُها وحِينَ تَصَدَّى لِلْهَوَانِ عَشِيرُها

أَراد لإِهانَتِها وَهِيَ عَشِيرته»[1].

«ويَكْفُرْنَ العَشِيرَ أَي يَجْحَدْنَ إِحسان أَزواجهن، وأَصل الْكُفْرِ تَغْطِيَةُ الشَّيْءِ تَغْطِيَةً تَسْتَهْلِكُهُ. وَقَالَ اللَّيْثُ: يُقَالُ إِنما سُمِّيَ الْكَافِرُ كَافِرًا لأَن الْكُفْرَ غَطَّى قَلْبَهُ كُلَّهُ»[2].

قال الطيبي: «والخطاب عام غلبت فيه الحاضرات على الغيب، كما في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، واللام للاستغراق»[3].

وقوله: «(تكفرن) الكُفْرُ في اللّغة: ستر الشيء، ووصف الليل بِالْكَافِرِ لستره الأشخاص، والزّرّاع لستره البذر في الأرض، وليس ذلك باسم لهما وكُفْرُ

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج٤ ص٥٧٤.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج٥ ص١٤٥.

(٣) الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج ٢ ص ٤٦٤.

النّعمة وكُفْرَانُهَا: سترها بترك أداء شكرها، قال تعالى: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٩٤]. وأعظم الكُفْرِ: جحود الوحدانيّة أو الشريعة أو النّبوّة، والكُفْرَانُ في جحود النّعمة أكثر استعمالا، والكُفْرُ في الدّين أكثر، والكُفُورُ فيهما جميعا قال تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٩٩][1].

استعمل النبي ﷺ كلمة الكفر في جحود إحسان الزوج ليدلل على عظم هذا الأمر فلا شيء أقبح وأبشع من الكفر على مسامع هذه الطائفة من المؤمنين والمؤمنات، وسمى الزوج بالعشير التي تطلق على القريب أو الصديق؛ ليذكرهن بالصلة القوية التي تجمعهن بهم، فلأن الموقف موقف بيان لحق الزوج عدل عن الكلمات الأخرى التي من شأنها أن تقوم بالمعنى فاختار الكفر وعدل عن الجحود والنكران والبطر، واختار العشير وعدل عن الزوج والبعل؛ ليكون كلامه أوقع في نفس السامع، وليكون كلامه مؤيدا بالدليل والحجة على ما يتمتع به الزوج من حق لا يمكن بخسه. وقد استعمل النبي ﷺ الفعل المضارع؛ ليكون كلامه لهؤلاء اللاتي من دأبهن وعادتهن أن يفعلن ذلك لما يعطيه المضارع من التجدد والاستمرار للحدث.

(١) انظر الراغب الأصفهاني – المفردات في غريب القرآن – ص٧١٤ ط١ + الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج ٢ ص٤٦٤ + أبو الحسن المباركفوري – مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح – ج١ ص٨١ ط٣.

٢- الشاة العائرة

عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مثل الْمُنَافِق كَمثل الشَّاة الْعَائِرَة بَيْنَ الْغُنْمَيْنِ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِه مرّة». رَوَاهُ مُسلم[1].

التركيب الذي هو موضع البحث هنا هو قوله ﷺ في تشبيه المنافقين حال ترددهم بين الطائفة المؤمنة وطائفة المنافقين بالشاة العائرة وهي التي تتردد بين طائفتين من الغنم لا تنتمي إلى هذه ولا إلى هذه.

قال صاحب اللسان: «وعارَ الفرسُ والكلبُ يَعِير عِياراً: ذَهَبَ كأَنه مُنْفَلت مِنْ صَاحِبِهِ يَتَرَدَّدُ وَمِنْ أَمثالهم: كَلْبٌ عائرٌ خيرٌ مِن كَلْبٍ رابِضٍ؛ فالعائرُ الْمُتَرَدِّدُ، وَبِهِ سُمِّيَ العَيْرُ لأَنه يَعِير فَيَتَرَدَّدُ فِي الْفَلَاةِ. وفرسٌ عَيّارٌ وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ نَافِرًا ذَاهِبًا فِي الأَرض»[2].

وَفِي الْحَدِيثِ: «أَنه كَانَ يمُرّ بِالتَّمْرَةِ العائِرةِ فَمَا يَمْنعُه مِنْ أَخذها إِلَّا مَخافةُ أَن تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ؛ الْعَائِرَةُ: السَّاقِطَةُ لَا يُعْرَف لَهَا مَالِكٌ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: «مَثَلُ المُنافِق مَثَلُ الشاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ غَنَمَيْنِ» أَي الْمُتَرَدِّدَةُ بَيْنَ قَطِيعين لَا تَدْري أَيّهما تَتْبَع. وَرَجُلٌ عَيّار: كَثِيرُ الْمَجِيءِ وَالذَّهَابِ فِي الأَرض، وَرُبَّمَا سُمِّيَ الأَسد بِذَلِكَ لِتَرَدُّدِهِ وَمَجِيئِهِ وَذَهَابِهِ فِي طَلَبِ الصَّيْدِ: قَالَ أَوس بْنُ حَجَرٍ:

لَيْثٌ عَلَيْهِ مِنَ البَرْدِيّ هِبْرِية ... كالمَرزباني، عَيَّارٌ بأَوْصالِ

(١) التبريزي – المشكاة – ج ١ ص٢٤ حديث رقم ٥٧.

(٢) ابن منظور – لسان العرب ج٤ ص ٦٢٢.

أَي يَذْهَبُ بِهَا وَيَجِيءُ»[1].

ضرب النبي ﷺ هذا المثل الشنيع للمنافقين حيث صور المنافق وهو مع المؤمنين ببدنه ومع المشركين بفؤاده بالشاة التي تتردد بين ثلتين من الغنم؛ طلبا للضراب فسلب عنهم رجولتهم لما نقضوا العهد مع النبي ﷺ فكفروا بعد إيمانهم وبعد أن استبان لهم الحق.

والعائرة أكثر ما يستعمل في الناقة، وهي التي تخرج من الإبل إلى أخرى؛ ليضربها الفحل، وأراد بـ (الغنمين) الثلتين، فإن الغنم اسم جنس يقع على الواحد والجمع. ضرب النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ للمنافق مثل السوء، فشبه تردده بين الطائفتين من المؤمنين والمشركين تبعا لهواه، وقصدا لغرضه الفاسد، وميلا إلى ما يبتغيه من شهواته – بتردد الشاة العائرة، وهي تطلب الفحل فتتردد بين الثلتين، فلا تستقر على حال، ولا تثبت مع إحدى الطائفتين، وبذلك وصفهم الله في كتابه فقال عز من قائل: ﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ ﴾ [النساء: ١٤٣]. وخص الشاة العائرة بالذكر إدماجا، بمعنى سلب الرجولية عن المنافقين، من طلب الفحل للضراب[2].

(١) ابن منظور – لسان العرب ج٤ ص ٦٢٢.

(٢) انظر الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج٢ ص٥١٠.

٣- النذير العريان

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنِي وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالنَّجَاءَ النَّجَاءَ فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ وَمثل من عَصَانِي وَكذب بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

التركيب موضع البحث هنا قوله ﷺ (النذير العريان) قال صاحب اللسان: «(النَّذِيرُ العُرْيان) هُوَ الزُّبَيْرُ بْنُ عَمْرٍو الخثْعَمي، وَكَانَ ناكِحًا فِي بَنِي زُبَيْد، فأَرادت بَنُو زُبَيْدٍ أَن يُغِيروا عَلَى خَثْعَمَ فَخَافُوا أَن يُنْذِر قومَه فأَلقَوْا عليه بَراذِعَ وأَهْداماً واحتَفَظوا بِهِ فَصَادَفَ غِرّة فحاضَرَهم وَكَانَ لَا يُجارَى شَدًّا، فأَتى قومَه فَقَالَ:

أَنــا المُنْــذِرُ العُرْيــان يَنْبِــذ ثَوبَــه إِذا الصَّدْقُ لَا يَنْبِذْ لَكَ الثَّوبَ كاذِبُ

قال الأَزهري: مِنْ أَمثال الْعَرَبِ فِي الإِنذار: أَنا النَّذِيرُ العُرْيان؛ قَالَ أَبو طَالِبٍ: إِنما قَالُوا أَنا النذِيرُ الْعُرْيَانُ لأَنّ الرجُل إِذا رأَى الْغَارَةَ قَدْ فَجِئَتْهُم وأَراد إِنذار قَوْمِهِ تَجَرَّدَ مِنْ ثِيَابِهِ وأَشار بِهَا ليُعلم أَن قَدْ فَجِئَتْهُم الْغَارَةُ، ثُمَّ صَارَ مَثَلًا لِكُلِّ شَيْءٍ تَخَافُ مُفاجأَته؛ وَمِنْهُ قَوْلُ خُفاف يَصِفُ فَرَسًا:

(١) التبريزي – المشكاة – ج١ ص٥٣ حديث رقم ١٤٨.

ثَمِــلٌ إِذا صَــفَرَ اللِّجــامُ كأَنــه رجُـل يُلـوِّحُ باليـدَيْن، سَـلِيبُ»[1]

«وخَصَّ العُرْيان لأَنه أَبْيَنُ لِلْعَيْنِ وأَغرب وأَشنع عِنْدَ المُبْصِر، وَذَلِكَ أَن رَبيئة الْقَوْمَ وعَيْنَهم يَكُونُ عَلَى مَكَانٍ عالٍ، فَإِذَا رَأَى العَدُوَّ وَقَدْ أَقبل نَزَع ثَوْبَهُ وأَلاحَ بِهِ لِيُنْذِرَ قومَه ويَبْقى عُرْيانـًا»[2].

فقوله ﷺ النذير العريان استعارة تمثيلية؛ استعارها النبي ﷺ من هذه القصة التي صارت مثلا وهي لرجل خلع ملابسه ولوح بها حينما شعر بتعرض قومه لخطر فصارت مثلا لكل أحد ينصح قومه أشد النصح، ولم لا؟ وحاله يدل على ما عاينه من الهول الشديد، فلا يمكن لمن هذا حاله أن يكون كاذبًا.

فالنذير العريان مثل سائر يضرب لشدة الأمر، ودنو المحذور، وبراءة المحذر عن التهمة، وأصله - كما ذكر - أن الرجل إذا رأى العدو قد هجم على قومه وأراد أن يفاجئهم وكان يخشى لحقوهم عند لحوقه تجرد عن ثوبه وجعله على رأس خشبة وصاح، ليأخذوا حذرهم، ويستعدوا قبل لحوقهم.

ويمكن أن يكون معنى (النذير العريان) النذير الذي يحذر قومه ولا يبتغي بذلك منهم عرضًا من أعراض الدنيا، فليس له في نفسه أي غرض إلا التحذير والنصيحة قبل أن يدهمهم ما يخافون وينالهم ما يحذرون، فهو رجل متجرد من الأطماع يسعى لذلك ليس حبا في الظهور وطلبا للرياسة وإنما يفعله بدافع الخوف

(١) ابن منظور - لسان العرب - ج٢ ص٥١٠.

(٢) ابن منظور - لسان العرب ج٥ص٤٨.

على قومه من أن يصيبهم مكروه ويصدق ذلك قول الله ﷻ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وقوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

٤- ربقة الإسلام

عَن الحارِثِ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ: بِالْجَمَاعَةِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يُرَاجِعَ وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَى جَهَنَّمَ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ». رَوَاهُ أَحْمد وَالتِّرْمِذِيّ (صحيح)[1].

التركيب موضع البحث هنا هو قوله ﷺ (ربقة الإسلام). قال صاحب اللسان: «الرِّبقة فِي الأَصل: عُروة فِي حَبْل تُجعل فِي عُنق الْبَهِيمَةِ أَو يَدِهَا تُمسكها، فَاسْتَعَارَهَا للإِسلام، يَعْنِي مَا يَشدّ الْمُسْلِمُ بِهِ نفسَه مِنْ عُرى الإِسلام أَي حُدُودِهِ وأَحكامه وأَوامره وَنَوَاهِيهِ، وَمَعْنَى مُفارقة الْجَمَاعَةِ تَركُ السُّنة واتِّباع البِدْعة. وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ تَصِفُ أَباها، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «واضطَرَب حَبْل الدِّينِ فأَخذ بطَرَفَيْه ورَبَّق لَكُمْ أَثناءه» تُرِيدُ لمَّا اضْطَرَبَ الأَمر يَوْمَ الرِّدة أَحاطَ بِهِ مِنْ جَوَانِبِهِ وضَمَّه فَلَمْ يَشِذّ مِنْهُمْ أَحد وَلَمْ يَخْرُجْ عمَّا جَمَعَهُمْ عَلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ تَرْبيق البَهم شدِّه

(١) التبريزي - المشكاة - ج٢ ص١٠٩١ حديث رقم٣٦٩٤.

فِي الرِّباق»[1]. قال الطيبي: «استعارها لانقياد الرجل واستسلامه لأحكام الشرع وخلعها لارتداده وخروجه عن طاعة الله ومتابعة رسوله»[2].

فهي استعارة تصريحية حيث شبه النبي ﷺ انقياد المسلم لأحكام الشرع بهذا الحبل الذي يوضع في عنق البعير، وهذا التشبيه ليس فيه تحقير لأمر المسلم المنقاد للشرع؛ فليس من الضروري في التشبيه أن يشبه المشبه المشبه به في كل أحواله وإنما يمكن أن يشبهه في حالة واحدة من حالاته أو في صفة بعينها دون غيرها من الصفات ولما كان البعير أطوع ما يكون إذا كان مربوطا بحبل فقد استعير لاستسلام المؤمن لأوامر الله.

٥- يميتون الصلاة

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيْفَ أَنْتَ إِذَا كَانَتْ عَلَيْكَ أُمَرَاءُ يُمِيتُونَ الصَّلَاةَ أَوْ قَالَ: يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا؟ قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا فَإِنْ أَدْرَكْتَهَا مَعَهُمْ فَصَلِّ فَإِنَّهَا لَك نَافِلَة» رَوَاهُ مُسلم[3].

التركيب موضع البحث هو قول النبي ﷺ «يميتون الصلاة» قال الطيبي: «يميتون الصلاة» مجاز، فإن إحياء الصلاة أداؤها في أول وقتها، حتى تكون طرية ريًا، وإماتتها إخراجها عن وقت الاختيار، حتى تكون ذابلة يابسة»[1].

---

(١) ابن منظور - لسان العرب - ج١٠ ص١١٣.

(٢) الطيبي - شرح المشكاة - ج٢ ص ٦٥.

(٣) التبريزي - المشكاة - ج ١ ص ١٩٠ حديث رقم ٦٠٠.

فهو استعارة حيث استعار النبي ﷺ الموت للدلالة على أداء الصلاة في آخر الوقت، شبه الصلاة بالنبات الأخضر الذي سرعان ما يستحيل من صورة النضارة والخضرة إلى الذبول والاصفرار.

استعمل النبي ﷺ القتل أيضا مجازا في قوله «إياكمْ وهاتَيْنِ البَقْلَتَيْنِ المُنْتِنَتَيْنِ أنْ تَأكُلُوهُنَّ وتَدخُلُوا مساجدنا فإن كنتم لا بد آكِلِيهِما فاقْتُلُوهما بالنارِ قَتْلاً» حيث استعار القتل للطبخ والإنضاج[٢]. قال المناوي: «(إياكم وهاتين البقلتين المنتنتين) الثوم والبصل (أن تأكلوهما وتدخلوا مساجدنا) فإن الملائكة تتأذى بريحهما (فإن كنتم لا بد آكليهما فاقتلوهما بالنار قتلا) هذا مجاز من باب قوله يميتون الصلاة لكنه عكسه فإن إحياء الصلاة أداؤها لوقتها وإماتتها إخراجها عنه فحياة البقلتين عبارة عن قوة ريحهما عند طراوتهما وموتهما إزالة تلك الريح الكريهة بالنضج»[٣].

٦- دف نعليك

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِبِلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ: «يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عمل عملته فِي الْإِسْلَام فَإِنِّي سَمِعت دق نعليك بَين يَدي في الْجَنَّةِ». قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي أَنِّي لم أتطهر طهُورا مِنْ سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ

(١) الطيبي – شرح المشكاة – ج ٣ ص ٩٥٣.

(٢) المناوي – فيض القدير – ج٣ ص١٣٢.

(٣) المناوي – فيض القدير – ج٣ ص١٣٢.

وَلَا نَهَارٍ إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

التركيب موضع البحث هو قوله ﷺ (دف نعليك) قال صاحب اللسان: «ودَفَّ الطائرُ يَدُفُّ دَفّاً ودَفِيفاً وأَدَفَّ: ضَرَب جَنْبَيْه بِجَنَاحَيْهِ، وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي إِذَا حَرَّكَ جَنَاحَيْهِ وَرِجْلَاهُ فِي الأَرض. وعُقابٌ دَفُوفٌ: لِلَّذِي يَدْنُو مِنَ الأَرض فِي طَيَرَانِهِ إِذَا انْقَضَّ قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ يَصِفُ فَرَسًا وَيُشَبِّهُهَا بالعُقاب:

كـأَني بفَتْخـاء الجَنـاحَيْن لَقْـوَةٍ دَفُوفٍ مِنَ العِقْبانِ طأْطأْتُ شِمْلالي

وأَنشد ابْنُ سِيدَهْ لأَبي ذُؤَيْبٍ:

فَبَيْنـا يَمْشِـيان جَـرَتْ عُقـابٌ مِـنَ العِقْبـانِ، خائِتـة دَفُـوفُ[2]

قال الطيبي: «(دف نعليك) أي حسيسهما عند المشي فيهما، وأراه أخذ من دفيف الطائر إذا أراد النهوض قبل أن يستقل، وأصله ضربة بجناحيه ودفتيه، أي بجنبتيه، فيسمع لهما حسيس»[3].

فهو استعارة مكنية حيث شبه النبي ﷺ حركة بلال الحثيثة في خدمة النبي ﷺ بحركة الطائر الذي يحرك جناحيه، فاستعار كلمة الدف لسير بلال الدؤوب غير المتواني، حيث إن الطائر لا يستطيع الطيران إلا إذا كانت حركته حركة دائبة مستمرة لا يعتريها الكلل حتى يواصل الطيران، فهي أجود وأروع ما يستعار لحركة

(١) التبريزي – المشكاة – ج١ ص٤١٥ حديث رقم ١٣٢٢.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج٩ ص ١٠٤.

(٣) الطيبي – شرح المشكاة – ج ٤ ص ١٢٤٤.

رجل لا يملّ من الحركة في خدمة سيده.

وإذا كان الدف هو حركة جناحي الطائر الدائبة المستمرة، فإن صوتية الكلمة أيضا قد ساهمت هي الأخرى في أداء المعنى، وجعله جليا واضحا، فإن هذا الانتقال السريع الخفيف بين الدال وهو حرف من حروف الشدة والجهر والشدة هي انحباس الصوت والجهر هو انحباس النفس مما يعطينا الإحساس بوضع السكون ثم الانتقال المباشر إلى الفاء المشددة وهو حرف مهموس رخو والهمس هو جريان النفس والرخاوة هي جريان الصوت، أضف إلى هذا الجريان المنبعث من صفات الحرف والمتمثل في الهمس والرخاوة أضف إليه التشديد الصادر عن معجمية الكلمة فإن أصل مادتها (دفف) كل ذلك ساهم بقوة في أداء المعنى خير أداء وألقى في أذهاننا صورة بلال وهو يتحرك حركته السريعة الخفيفة بين يدي النبي ﷺ.

٧- أثنوا عليه شرا

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: مَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَجَبَتْ» ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا. فَقَالَ: «وَجَبَتْ» فَقَالَ عُمَرُ: مَا وَجَبَتْ؟ فَقَالَ: «هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ أَنْتُم شُهَدَاء اللهِ فِي الأَرْض». وَفِي رِوَايَةٍ: «الْمُؤْمِنُونَ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ» مُتَّفق عَلَيْهِ[1].

(١) التبريزي – المشكاة – ج١ ص٥٢٤ حديث رقم١٦٦٢.

التركيب موضع البحث هنا هو قوله ﷺ (أثنيتم عليه شرا)، قال الطيبي: «(فأثنوا عليها شراً) الثناء إنما يستعمل في الخير واستعماله ها هنا في الشر إما مشاكلة لقوله: «فأثنوا عليها خيراً» أو تهكم، كاستعمال البشارة في النذارة. فإن قيل: كيف مكنوا من الثناء بالشر مع الحديث الصحيح في البخاري في النهي عن سب الأموات؟ قلت: إن النهي عن سب الأموات إنما هو في حق غير المنافق والكافر، وفي حق غير المتظاهر فسقه وبدعته، وأما هؤلاء فلا يحرم سبهم للتحذير من طريقهم، ومن الاقتداء بآثارهم، والتخلق بأخلاقهم»[1].

فلما كان الثناء يستعمل في مدح الشخص بما فيه من خصال الخير، وقد استعمله النبي ﷺ هنا في مدح الرجل بما فيه من خير وللآخر بما فيه من شر، وهو ما يعرف بالمشاكلة فمعلوم أن الإنسان لا يمدح على ما يرتكب من الشر، أو هو من النبي ﷺ قد خرج على سبيل التهكم والسخرية من رجل لم يستحي أن يجهر بأفعاله المرذولة أمام الناس فقوبل بما هو أهله.

٨- حبل جوارك

عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّ فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ فِي ذِمَّتِكَ وَحَبْلِ جِوَارِكَ فَقِهِ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ النَّارِ وَأَنْتَ أَهْلُ الْوَفَاءِ وَالْحَقِّ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْن مَاجَه (صَحِيح)[2].

(١) الطيبي – شرح المشكاة – ج ٤ ص ١٣٩٦.

(٢) التبريزي – المشكاة – ج١ ص٥٢٨ حديث رقم ١٦٧٧.

التركيب موضع البحث هنا هو قول النبي ﷺ (حبل جوارك)، قال صاحب اللسان: «وأَصل الحَبْل فِي كَلَامِ الْعَرَبِ يَنْصَرِفُ عَلَى وُجُوهٍ مِنْهَا الْعَهْدُ وَهُوَ الأَمان. وَفِي حَدِيثِ الْجِنَازَةِ: اللَّهُمَّ إِن فلانَ بْنَ فلانٍ فِي ذِمَّتِكَ وحَبْل جِوارك، كَانَ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ أَن يُخِيف بَعْضُهَا بَعْضًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَانَ الرَّجُلُ إِذا أَراد سَفَرًا أَخذ عَهْدًا مِنْ سَيِّدِ كُلِّ قَبِيلَةٍ فيأْمن بِهِ مَا دَامَ فِي تِلْكَ الْقَبِيلَةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلى الأُخرى فيأْخذ مِثْلَ ذَلِكَ أَيضًا، يُرِيدُ بِهِ الأَمان، فَهَذَا حَبْل الجِوار أَي مَا دَامَ مُجَاوِرًا أَرضه أَو هُوَ مِنَ الإِجارة الأَمان وَالنُّصْرَةِ؛ قَالَ: فَمَعْنَى قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ عَلَيْكُمْ بحَبْل اللهِ أَي عَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَتَرْكِ الفُرْقة، فإِنه أَمان لَكُمْ وَعَهْدٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَعِقَابِهِ»[1].

وَفِي الْحَدِيثِ: «بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ حِبال» أَي عُهُودٌ وَمَوَاثِيقُ. وَفِي حَدِيثِ ذِي المِشْعار: «أَتَوْك عَلَى قُلُصٍ نَواجٍ مُتَّصِلَةٍ بحَبَائِل الإِسلام» أَي عُهُودِهِ وأَسبابه، عَلَى أَنها جَمْعُ الْجَمْعِ. قَالَ: والحَبْل فِي غَيْرِ هَذَا المُواصَلة. قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

إِني بحَبْلِك واصِلٌ حَبْلِي ... وبِرِيش نَبْلِك رَائِشٌ نَبْلِي»[2]

استعار النبي ﷺ الحبل للعهد والأمان والذمة لما بينهما من تشابه، فالأول يستخدم في إحكام وربط المحسوس، والآخر يستخدم لإحكام الكلام، وجماله ينبع من إبراز المعنوي في صورة حسية. وهي استعارة درج العرب على استعمالها

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج١١ ص ١٣٥.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج١١ ص ١٣٥.

بشكل متكرر حتي كاد يتحول المعنى المجازي إلى حقيقي لولا شيوع الكلمة أيضًا في الغرض الحقيقي لها.

فقوله (حبل جوارك) بيان لقوله: (ذمتك) نحو أعجبتني زيد وكرمه. وقوله: (في ذمتك) أي أن فلانـًا في عهد جوارك. والأصل في عهدك، فنسب إلى العهد ما كان منسوبـًا إلي الله تعالي، فجعل للجوار عهداً مبالغة في كمال حمايته ونصرته، فالحبل مستعار للعهد لما فيه من التوثقة، وعقد القول بالأيمان المؤكدة. ومن ثم قيل فيمن خان العهد: فلان نقض عهده ونكث فإن النقض والنكث من صفات الحبل ولوازمه، وقوله: (أنت أهل الوفاء) تجريد لاستعارة الحبل للعهد؛ لأن الوفاء صفة ملائمة للعهد المستعار له، لا للحبل المستعار. ولو أريد الترشيح لقيل: أنت أهل الإبرام[1].

٩- نجعلك في نحورهم

عَنْ أَبِي مُوسَى: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَافَ قَوْمًا قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ وَنَعُوذُ بِكَ من شرورهم». رَوَاهُ أَحْمد وَأَبُو دَاوُد (صحيح)[2].

التركيب موضع البحث هو قول النبي ﷺ «نجعلك في نحورهم» قال المناوي: (اللهم إنا نجعلك في نحورهم) أي في إزاء صدورهم؛ لتدفع عنا

(١) انظر الطيبي – شرح المشكاة – ج ٤ ص ١٤٠١.

(٢) التبريزي – المشكاة – ج٦ ص ١٩٠٤ حديث رقم ٢٤٤١ وصححه الألباني – صحيح الجامع الصغير – ج٢ ص٨٥٩ حديث رقم ٤٧٠٦.

صدورهم وتحول بيننا وبينهم تقول جعلت فلانا في نحر العدو إذا جعلته قبالته وترسًا يقاتل عنك ويحول بينه وبينك خص النحر لأنه أسرع وأقوى في الدفع والتمكن من المدفوع، والعدو إنما يستقبل بنحره عن المناهضة للقتال أو للتفاؤل بنحرهم أو قتلهم والمراد نسألك أن تصد صدورهم وتدفع شرورهم وتكفينا أمورهم وتحول بيننا وبينهم»[1].

فهو مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث ذكر النحر وأراد كل البدن، ولما كان النحر موضع القتل غالبا ذكره النبي ﷺ تيمنا وتفاؤلاً بالقضاء على أعدائه، ويجوز أن يكون مجازًا مرسلًا علاقته السببية لأن الطعن بالنحر سبب للقتل وإزهاق الروح.

١٠- اقترض عرض مسلم

عَن أُسامةَ بنِ شرِيكٍ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَاجًّا فَكَانَ النَّاسُ يَأْتُونَهُ فَمِنْ قَائِلٍ: يَا رَسُولَ اللهِ سَعَيْتُ قَبْلَ أَنْ أَطُوفَ أَوْ أَخَّرْتُ شَيْئًا أَوْ قَدَّمْتُ شَيْئًا فَكَانَ يَقُولُ: «لَا حَرَجَ إِلَّا عَلَى رَجُلٍ اقْتَرَضَ عِرْضَ مُسْلِمٍ وَهُوَ ظَالِمٌ فَذَلِكَ الَّذِي حَرِجَ وهَلِك». رَوَاهُ أَبُو دَاوُد[2].

---

(١) المناوي – فيض القدير – ج ٥ ص١٢١ +وانظر الطيبي – شرح المشكاة – ج٦ ص ١٩٠٤ + وانظر ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث – ج٢ ص١٠٩.

(٢) التبريزي – المشكاة – ج٢ ص٨١٥ حديث رقم ٢٦٥٨ صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير بلفظ «يا عباد الله! وضع الله الحرج إلا من اقترض عرض امرئ مسلم ظلما فذلك الذي حرج وهلك».ج٢ ص١٣١٣ حديث رقم ٣٠٢٩.

التركيب موضع البحث هنا هو قول النبي ﷺ (اقترض عرض مسلم) قال صاحب اللسان: «وأَصل القَرْضِ فِي اللُّغَةِ القَطْعُ، والمِقْراضُ مِنْ هَذَا أُخِذ. والمُقارَضةُ: تَكُونُ فِي العَمَلِ السَّيِء والقَوْلِ السَّيِء يَقْصِدُ الإِنسان بِهِ صاحِبَه. وَفِي حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ: «اقْتَرَضَ عِرْضَ مُسْلِمٍ» أَراد بِقَوْلِهِ اقْتَرَضَ امْرَأً مُسْلِمـًا أَي قطَعَه بالغِيبة والطّعْنِ عليه ونالَ مِنْهُ، وأَصله مِنَ القَرْض الْقَطْعُ»(١).

قال الطيبي: «ففيه تشديد أمر الغيبة واختصاصه في هذا المقام دون سائر الآثام. وتقييده بقوله: (وهو ظالم) إشارة إلي ما أبيح فيه من الذنب بالجرح، عما روى من الأحاديث ومن الشهادات في القضايا وغير ذلك»(٢).

استعار النبي ﷺ القرض الذي هو القطع والتمزيق للخوض في عرض المسلم، وذكره بما يسوؤه ويشين صورته في أعين الناس، فهما سواء في إتلاف الصورة وتشويه الهيئة، القطع بالمقراض والحديث في أعراض الناس، فقد أخرج النبي ﷺ العِرض في صورة حسية حينما استعار القرض في الإساءة إلى الإنسان.

١١- تأكل القرى

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى. يَقُولُونَ: يَثْرِبَ وَهِيَ الْمَدِينَةُ تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣).

---

(١) لسان العرب ج٧ ص ٢١٧.

(٢) شرح الطيبي على المشكاة ج٦ ص٢٠١٣.

(٣) التبريزي – المشكاة – ج٢ ص٨٣٧ حديث رقم ٢٧٣٧.

التركيب موضع البحث هو قول النبي ﷺ (قرية تأكل القرى) قال الطيبي: «(تأكل القرى) أي تغلبها وتظهر عليها، بمعنى أن أهلها تغلب أهل سائر البلاد فتفتح منها، يقال: أكلنا بني فلان أي غلبناهم وظهرنا عليهم؛ فإن الغالب المستولي علي الشيء كالمفني له إفناء الأكل إياه»(١).

قال المناوي: «(أمرت بقرية) أي أمرني الله بالهجرة إليها «تأكل القرى» أي تغلبها في الفضل حتى يكون فضل غيرها بالنسبة إليها كالعدم؛ لاضمحلالها في جنب عظيم فضلها كأنها تستقري القرى تجمعها إليها أو الحرب بأن يظهر أهلها على غيرهم من القرى فيفنون ما فيها فيأكلونه تسلطا عليها وافتتاحها بأيدي أهلها فاستعير الأكل لافتتاح البلاد وسلب الأموال وجلبها إليه»(٢).

استعار ﷺ الأكل للنصر والفتح الذي يحققه ﷺ بعدما يسكن المدينة، ولكن لم استعار النبي ﷺ الأكل للفتح والنصر؟ إن الأكل عملية فطرية يقوم بها كل الناس دون جهد أو عناء، كذلك فإن فتوحات النبي ﷺ في الجزيرة العربية لم تستغرق سوى بضع سنوات لا تساوي شيئا في عمر التاريخ، وهي الأرض التي عسر على غيره تطويعها كاملة عبر مئات السنين فكان الأكل هو التعبير الأنسب؛ ليدلل على الهزيمة السريعة التي لاقتها هذه القرى أمام مدينة رسول الله ﷺ.

---

(١) الطيبي – شرح المشكاة – ج٦ ص ٢٠٥٨.

(٢) المناوي – فيض القدير – ج ٢ ص ١٩٢.

١٢- الحمو الموت

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ الْحَمْوَ؟ قَالَ: «الْحَمْوُ الْمَوْتُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[١].

التركيب موضع البحث هنا هو قول النبي ﷺ «الحمو الموت»، قال صاحب اللسان في شرحه لحديث: (لَا يَخْلُوَنَّ رجلٌ بمُغِيبة وَإِنْ قِيلَ حَمُوها أَلا حَمُوها الموتُ) قَوْلُهُ «أَلا حَمُوها الْمَوْتُ، يَقُولُ فَلْيَمُتْ وَلَا يَفْعَلُ ذَلِكَ، فَمَعْنَى قَوْلِهِ الحَمُو الموتُ أَن خَلْوَةَ الحَمِ مَعَهَا أَشد مِنْ خَلْوَةِ غَيْرِهِ مِنَ الْغُرَبَاءِ، لأَنه رُبَّمَا حسَّن لَهَا أَشياء وَحَمَلَهَا عَلَى أُمور تَثْقُلُ عَلَى الزَّوْجِ مِنَ الْتِمَاسٍ مَا لَيْسَ فِي وَسْعِهِ أَو سُوءِ عِشْرَةٍ أَو غَيْرِ ذَلِكَ، ولأَن الزَّوْجَ لَا يُؤْثِرُ أَن يَطَّلِعَ الحَمُو عَلَى بَاطِنِ حَالِهِ بِدُخُولِ بَيْتِهِ كأَنه ذَهَبَ إِلَى أَن الْفَسَادَ الَّذِي يَجْرِي بَيْنَ المرأَة وأَحمائها أَشد مِنْ فَسَادٍ يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْغَرِيبِ وَلِذَلِكَ جَعَلَهُ كَالْمَوْتِ»[٢].

قال المناوي: «الحمو الموت أي دخوله على زوجة أخيه يشبه الموت في الاستقباح والمفسدة فهو محرم شديد التحريم وإنما بالغ في الزجر بتشبيهه الموت لتسامح الناس في ذلك حتى كأنه غير أجنبي من المرأة وكذا دخول الحمو عليها يفضي إلى موت الدين أو إلى موتها بطلاقها عند غيرة الزوج أو برجمها إن زنت

(١) التبريزي – المشكاة – ج٢ ص٩٣٢ حديث رقم ٣١٠٢.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج١٤ ص١٩٨.

معه»[1]. وقال الطيبي: «(الحمو الموت) معناه فليمت ولا يفعل ذلك، وقال ابن الأعرابي: هذه كلمة تقولها العرب للتشبيه في الشدة والفظاعة، فيقال: الأسد الموت، يعني لقاؤه مثل الموت، والسلطان النار أي قربه مثل قرب النار»[2].

فالحمو الذي هو قريب الزوج كأخيه وابن عمه، لما كان من عادتهم التساهل في أمره والتهوين من وجوده في البيت في غير حضرة الزوج، أراد النبي ﷺ أن يزجرهم أشد الزجر على هذا التهاون فأتى بهذا التشبيه البليغ (الحمو الموت) فكما تخشى وتحاذر من أي شيء يوردك مورد الهلكة، فاعلم أن وجود الحمو في البيت في غير حضور الزوج مما يخشى ويحذر.

١٣- من خلع يدا من طاعة

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُول: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا حُجَّةَ لَهُ. وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً». رَوَاهُ مُسلم[3].

التركيب موضع البحث هو قول النبي ﷺ: (خلع يدًا من طاعة). قال صاحب اللسان: «خَلَعَ الشيءَ يَخْلَعُه خَلْعًا واختَلَعه: كنَزَعه إلا أَنَّ فِي الخَلْعِ مُهْلة، وسَوَّى بَعْضُهُمْ بَيْنَ الخَلْع والنَّزْعِ. وخلَعَ النعلَ والثوبَ والرِّداءَ يَخْلَعُه خَلْعًا: جَرَّده.

(١) المناوي - فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ٣ ص ١٢٤.

(٢) الطيبي - شرح المشكاة - ج٧ ص٢٢٦٩.

(٣) التبريزي - المشكاة - ج٢ ص١٠٨٨ حديث رقم ٣٦٧٤.

وخلَع قائدَه خَلْعًا: أَزالَه. وخلَع الرِّبقةَ عَنْ عُنُقه: نقَض عَهْدَه. وتَخالَع القومُ: نقَضُوا الحِلْفَ والعَهْدَ بَيْنَهُمْ. وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ» أَي مَنْ خَرَجَ مِنْ طاعةِ سُلْطانِه وعَدا عَلَيْهِ بِالشَّرِّ؛ قَالَ ابْنُ الأَثير: هُوَ مِنْ خَلَعْتُ الثَّوْبَ إِذا أَلْقَيْتَه عَنْكَ، شبَّه الطَّاعَةَ واشتمالَها عَلَى الإِنسان بِهِ وَخَصَّ الْيَدَ لأَن المُعاهَدة والمُعاقَدةَ بِهَا»[1]. «يُرِيدُ أَخْرَجَ نَفْسَهُ مِنْ طَاعَةِ سُلْطَانِهِ، وَالرَّجُلُ الْخَلِيعُ الَّذِي يَبْرَأُ قَوْمُهُ مِنْ جِنَايَتِهِ، وَالْجَمِع الْخُلَعَاءُ، وَالصَّائِدُ يُسَمَّى خَلِيعًا، قَالَ:

وَوَادٍ كَجَـوْفِ الْعَيْـرِ قَفْـرٍ قَطَعْتُـهُ ... بِهِ الذِّئْبُ يَعْوِي كَالْخَلِيعِ الْمُعَيِّلِ»[2]

وقال الطيبي: «لما كان وضع اليد كناية عن العهد وإنشاء البيعة لجري العادة على وضع اليد علي اليد حال العاهدة، كنى عن النقض بخلع اليد ونزعها، يريد من نقض العهد وخلع نفسه عن بيعة الإمام، لقي الله تعالي آثمـًا لا عذر له»[3]

استعار النبي ﷺ خلع اليد لتدل على عصيان الإمام، لما كانت اليد تستخدم كناية لإبرام العهود والمواثيق، واستخدم الفعل (خلع) الذي يستعمل حقيقة مع نزع الثياب، شبه طاعة الإمام بالثوب الذي يغطي كل أفراد الأمة، وعصيانه كالتجرد من الثياب لما يوحي به هذا التعبير من التعري وانكشاف السوأة وظهور العورة وهو شيء غير محمود في فطرة الناس كلهم.

---

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج٨ ص ١٧٦.

(٢) إبراهيم الحربي – غريب الحديث – ج٣ ص١٠٥٢.

(٣) الطيبي شرح المشكاة – ج٨ ص ٢٥٦٤.

١٤- شر الرعاء الحطمة

عَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ شرَّ الرعاءِ الحُطَمَة» رَوَاهُ مُسلم[١].

التركيب موضع البحث هو قول النبي ﷺ (إِنَّ شرَّ الرعاءِ الحُطَمَة). قال صاحب اللسان: «وَرَجُلٌ حُطَمٌ وحُطَمَةٌ إِذا كَانَ قَلِيلَ الرَّحْمَةِ لِلْمَاشِيَةِ يَهْشِمُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ. قال ابْنُ الأَثير: هُوَ العنيفُ بِرِعَايَةِ الإِبل فِي السَّوْق والإِيراد والإِصْدارِ، ضَرَبَهُ مَثَلًا لِوالي السُّوءِ، وَمِنْهُ حَدِيثِ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَتْ قُرَيْشٌ إِذا رأَتْهُ فِي حَرْب قَالَتْ: احْذَرُوا الحُطَمَ، احْذَرُوا القُطَمَ» والحُطَمَةُ: مِنْ أَبنية الْمُبَالَغَةِ وَهُوَ الَّذِي يَكْثُرُ مِنْهُ الحَطْمُ، وَمِنْهُ سُمِّيَتِ النَّارُ الحُطَمَةَ لأَنها تَحْطِمُ كُلَّ شَيْءٍ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: (رأَيت جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا)»[٢].

قال الأَزهري: «الحُطَمَةُ هُوَ الرَّاعِي الَّذِي لَا يُمَكِّنُ رَعِيَّتَهُ مِنَ الْمَرَاتِعِ الخَصيبة وَيَقْبِضُهَا وَلَا يَدَعُها تَنْتَشِرُ فِي المَرْعى، وَيُرْوَى لأَبي زُغْبَة الخَزْرَجيّ يَوْمَ أُحُدٍ؛ وَفِيهَا:

أَنــا أَبــو زُغْبَــةَ أَعْــدو بــالهَزَمْ لَــنْ تُمْنَــعَ المَخْــزاةُ إِلَّا بــالأَلَمْ

يَحْمِي الذِّمار خَزْرَجِيٌّ مِنْ جُشَمْ... قَدْ لَفَّها الليلُ بسَوَّاقٍ حُطَمْ»[٣].

---

(١) التبريزي – المشكاة – ج٢ ص١٠٩٠ حديث رقم ٣٦٨٨.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج ١٢ ص ١٣٩.

(٣) ابن منظور – لسان العرب – ج ١٢ ص ١٣٩.

ضربه مثلا لوالي السوء، لما استعار للوالي والسلطان لفظ الراعي أتبعه بما يلائم المستعار منه من صفة الحطم، فالحطمة فالمراد بالحطمة الفظ القاسي الذي يظلم الرعية ولا يرحمهم. وقيل: الأكول الحريص الذي يأكل ما يرى ويقضمه فإن من هذا دأبه يكون دنيء النفس ظالماً بالطبع شديد الطمع فيما في أيدي الناس[1].

فالحديث بأكمله استعارة تصريحية حيث شبه الحاكم أو من يتولى أمر الناس بالراعي الذي يرعى الإبل والغنم، ووجه الشبه بينهما هو ما يحتاجه كل منهما إلى الصبر وحسن السياسة والرعاية والتعهد، فإن الراعي مسؤول أمام صاحب الإبل والغنم أحفظ أم ضيع، والحاكم مسؤول أمام خالقه أيضا عن تصرفه مع رعيته، وإكمالا للصورة البيانية فإن النبي ﷺ وصف هذا الراعي المذموم فعله بالحطمة وهي من صفات الراعي الذي يسوق الإبل سوقا عنيفا ويحملها على ركوب ما لا تطيق من الطرق الوعرة فجاء هذا الوصف ترشيحا للاستعارة.

١٥- الراكب شيطان

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ وَالثَّلَاثَةُ رَكبٌ». رَوَاهُ مالكٌ وَالتِّرْمِذِيّ وَأَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ. (صحيح)[2].

(١) انظر الطيبي – شرح المشكاة – ج٨ ص٢٥٧٠ + المناوي – فيض القدير – ج٢ ص ٤٥٤.

(٢) التبريزي – المشكاة – ج٢ ص ١١٤٤ حديث رقم ٣٩١٠.

التركيب موضع البحث هو قول النبي ﷺ (الراكب شيطان). قال الطيبي: «(الراكب شيطان) يعني مشي الواحد منفردًا منهي، وكذلك مشي الاثنين. ومن ارتكب منهيًا فقد أطاع الشيطان، ومن أطاعه فكأنه هو؛ فلهذا أطلق ﷺ اسمه عليه. ومعنى الحديث ما روي مرسلاً: «الشيطان يهم بالواحد وبالاثنين فإذا كانوا ثلاثة لم يهم بهم». روى عن عمر رضي الله عنه أنه قال في رجل سافر وحده: «أرأيتم إن مات من أسأل عنه؟»[1].

قال المناوي: «الشيطان يطمع في الواحد كما يطمع فيه اللص والسبع فإذا خرج وحده فقد تعرض للشيطان والسبع واللص فكأنه شيطان ثم قال: «والراكبان شيطانان» لأن كلا منهما متعرض لذلك وقال المنذري: قوله شيطان أي عاص كقوله شياطين الإنس والجن فإن معناه عصاتهم»[2].

قال القاضي: «سمى الواحد والاثنين شيطانًا؛ لمخالفة النهي عن التوحد في السفر والتعرض للآفات التي لا تندفع إلا بالكثرة؛ ولأن المتوحد بالسفر تفوت عنه الجماعة ويعسر عليه التعيش ولعل الموت يدركه فلا يجد من يوصي إليه بإيفاء ديون الناس وأماناتهم وسائر ما يجب ولم يكن ثم من يقوم بتجهيزه ودفنه»[3].

---

(١) الطيبي – شرح المشكاة ج٨ ص ٢٦٨٤.

(٢) المناوي – فيض القدير ج٤ ص٤٣.

(٣) المناوي – فيض القدير ج٤ ص٤٣.

شبه النبي ﷺ الشخص الذي يسافر وحده بالشيطان لأنه خالف نهي النبي ﷺ عن سفر الرجل وحده فأشبه الشيطان في تعمد المخالفة، ونظير ذلك قول الله ﷻ ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الإسراء: ٢٧]؛ لأن الله ﷻ رزقه نعمة فلم يؤد شكرها فأشبه الشيطان.

قال ابن الأثير: «(الراكِبُ شَيْطانٌ والراكِبَان شَيْطَانَان) أي أن التَّفَرُّدَ والذَّهَابَ في الأرضِ منفَرِداً من فِعْل الشَّيطان، أو شيءٌ يَحمِله عليه الشَّيطَان. فقِيلَ على هذا: إن فاعِلَه شَيْطان»(١).

فهذا التشبيه البليغ يوحي بمدى الاتفاق بينهما؛ ليكون في هذه الصورة أشد الزجر وأعظم النهي في الذي يسافر وحده، والمتأمل يجد أن الذي سيقع عليه الضرر هو المسافر وحده فقط، فضرره ليس متعديا إلى غيره، وذلك يدلل على حرص النبي ﷺ على أمته أشد الحرص من أن يصل إلى أحدهم مكروه دون أن يكون قد حذر هو من هذا المكروه، سواء صغر أم عظم.

١٦- يدخلون الجنة في السلاسل

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «عَجِبَ اللهُ مِنْ قَوْمٍ يُدْخَلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ». وَفِي رِوَايَةٍ: «يُقَادُونَ إِلى الجنَّةِ بالسلاسل». رَوَاهُ الْبُخَارِيّ(٢).

---

(١) ابن الأثير – النهاية في غريب الحديث والأثر – ج٢ ص٤٧٥ + محمد عمر الأصبهاني – المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث – ج٢ ص١٩٩ ط ١.

(٢) التبريزي – المشكاة – ج٢ ص١١٥٨ حديث رقم ٣٩٦٠.

التركيب موضع البحث هو قول النبي ﷺ «يدخلون الجنة في السلاسل». قال الطيبي: «(في السلاسل) الْمَعْنَى عَظَّمَ اللهُ شَأْنَ قَوْمٍ يُؤْخَذُونَ عَنْوَةً فِي السَّلَاسِلِ، فَيَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ فَيَصِيرُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَرَضِيَ عَنْهُمْ، وَأَحَلَّهُمْ مَحَلَّ مَا يَتَعَجَّبُ مِنْهُ»(١). وَقِيلَ: أَرَادَ بِالسَّلَاسِلِ مَا يَرِدُونَ بِهِ مِنْ قَتْلِ الْأَنْفُسِ وَسَبْيِ دُخُولِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَوْلَادِ، وَتَخْرِيبِ الدِّيَارِ وَسَائِرِ مَا يُلْجِئُهُمْ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ الَّذِي سَبَّبَ دُخُولَ الْجَنَّةِ، فَأَقَامَ الْمُسَبَّبَ مَقَامَ السَّبَبِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا جَذَبَاتِ الْحَقِّ الَّتِي يَجْذِبُ بِهَا خَاصَّةَ عِبَادِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ إِلَى الْهُدَى، وَمِنَ الْهُبُوطِ فِي مَهَاوِي الطَّبِيعَةِ إِلَى الْعُرُوجِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى إِلَى جَنَّةِ الْمَأْوَى»(٢).

تباين كلام الشراح في قوله ﷺ: «يدخلون الجنة في السلاسل» والذي أراه أنهم قد استوعبوا معنى الحديث من كل وجه ممكن، فـ(يدخلون الجنة) مجاز مرسل علاقته المسببية، والمعنى يدخلون الإسلام ودخول الجنة مسبب عن الدخول في الإسلام فذكر المسبب وأراد السبب، وقوله «في السلاسل» مجاز مرسل علاقته السببية، فوقوعهم في الأسر سبب دخولهم الإسلام والإسلام هو الذي أفضى بهم إلى الجنة.

---

(١) الطيبي – شرح المشكاة – ج٩ ص ٢٧٣٧ + علي الهروي – مرقاة المفاتيح – ج٦ ص٢٥٤٦.

(٢) الطيبي – شرح المشكاة – ج٩ ص ٢٧٣٧ + المناوي – فيض القدير – ج٤ ص٣٠٢ + أبو الحسن الهروي – مرقاة المفاتيح – ج٦ ص٢٥٤٦.

١٧- الرؤيا على رجل طائر

عَن أبي رزين العقيليِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ وَهِيَ عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ يُحَدِّثْ بِهَا فَإِذَا حَدَّثَ بِهَا وَقَعَتْ». وَأَحْسِبُهُ قَالَ: «لَا تُحَدِّثْ إِلَّا حَبِيبًا أَوْ لَبِيبًا». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَفِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ قَالَ: «الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعْبَرْ فَإِذَا عُبِرَتْ وَقَعَتْ». وَأَحْسِبُهُ قَالَ: «وَلَا تَقُصَّهَا إِلَّا عَلَى وَادٍّ أَوْ ذِي رأيٍ» (صحيح)(١).

التركيب موضع البحث هو قول النبي ﷺ (الرؤيا على رجل طائر). قال الطيبي: «(على رجل طائر) كل ذي حركة من كلمة أو جار فهو طائر مجازاً، أراد على رجل قدر جار وقضاء ماض من خير أو شر. ومعناه: لا يستقر تأويلها حتى تعبر، يريد أنها سريعة السقوط إذا عبرت، كما أن الطير لا يستقر في أكثر أحواله فكيف ما يكون على رجله»(٢). فشبه النبي ﷺ الرؤيا بشيء خفيف علق على رجل طائر يقع لأدنى سبب، وأقل عارض، كذلك الرؤيا تقع على ما تفسر عليه من خير أو شر.

قال صاحب اللسان: وَفِي الْحَدِيثِ: «الرُّؤْيا لأَوَّلِ عابِرٍ وَهِيَ عَلَى رِجْلِ طائِرٍ» أَي أَنها إِذا احْتَمَلَتْ تأْوِيلَين أَو أَكثر فَعَبَّرَهَا مَنْ يَعْرِفُ عَباراتها، وقَعَتْ عَلَى

(١) التبريزي- المشكاة – ج٢ ص١٣٠١ حديث رقم ٤٦٢٢ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ج١ ص٦٥٠ حديث رقم ٣٤٥٨.

(٢) الطيبي – شرح المشكاة – ج٩ ص٣٠١١.

مَا أَوّلَها وانْتَفَى عَنْهَا غيرُه مِنَ التأْويل؛ وَفِي رِوَايَةٍ أُخرى: «الرُّؤْيا عَلَى رِجْل طائرٍ مَا لَمْ تُعَبَّرْ» أَي لَا يستقِرُّ تأْوِيلُها حَتَّى تُعَبَّر، يُرِيد أَنها سَرِيعةُ السقُوط إِذا عُبِّرت كَمَا أَن الطيرَ لَا يستَقِرُّ فِي أَكثر أَحوالِه، فَكَيْفَ مَا يَكُونُ عَلَى رِجْلِه؟[1].

والتركيب من باب التشبيه التمثيلي، شبه الرؤيا بالطائر السريع طيرانه، وقد علق على رجله شيء يسقط بأدنى حركة، فينبغي أن يتوهم للمشبه حالات متعددة مناسبة لهذه الحالات، وهي أن الرؤيا مستقرة على ما يسوقه التقدير إليه من التعبير. فإذا كانت في حكم الواقع قيض وألهم من يتكلم بتأويلها على ما قدره فيقع سريعـًا، وإن لم يكن في حكمه لم يقدر لها من يعبرها.

١٨- يأكلون بألسنتهم

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ كَمَا تَأْكُلُ الْبَقَرَةُ بألسنتها» رَوَاهُ أَحْمد (حسن)[2].

التركيب موضع البحث هو قول النبي ﷺ (يأكلون بألسنتهم). قال المناوي: «(سيكون قوم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر من الأرض) أي يتخذون ألسنتهم ذريعة إلى مأكلهم كما تأخذ البقر بألسنتها ووجه الشبه بينهما لأنهم لا يهتدون من المأكل كما أن البقرة لا تتمكن من الاحتشاش إلا بلسانها والآخر أنهم لا يميزون

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج٤ ص ٥٠٩.

(٢) التبريزي – المشكاة – ج٣ ص١٣٥٣ حديث رقم ٤٧٩٩.

بين الحق والباطل والحلال والحرام كما لا تميز البقرة في رعيها بين رطب ويابس وحلو ومر بل تلف الكل»[1].

شبه النبي ﷺ الذي يتكسب بلسانه ولا يبالي بما يقول من حق أو باطل تكسبًا للمال بالبقرة التي تجمع طعامها في فمها بلسانها دون النظر إلى ما بالطعام من شوك أو نحوه فهى لا تفرق بين رطب ولا يابس أو حلو ومر وهو لا يفرق في مطعمه بين ما يحل وما يحرم.

ضرب للمعنى مثلا يشاهده الراءون من حال البقر؛ ليكون أثبت في الضمائر، وذلك أن سائر الدواب تأخذ من نبات الأرض بأسنانها، والبقر بلسانها، فضرب بها المثل لمعنيين: أحدهما: أنهم لا يهتدون من المأكل إلا هكذا، كما أن البقرة لا تتمكن من الاحتشاش إلا بلسانها. والآخر: أنهم في مغزاهم ذلك كالبقرة التي لا تستطيع أن تميز في رعيها بين الرطب والشوكة، وبين الحلو والمر، بل تلف الكل بلسانها لفا، فكذلك هؤلاء الذين يتخذون ألسنتهم ذريعة إلى مأكلهم لا يميزون بين الحق والباطل ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢][2].

(١) المناوي – فيض القدير – ج٤ ص ١٣١.

(٢) انظر الطيبي – شرح المشكاة – ج١٠ ص٣١٠٦.

١٩- تكفر اللسان

عَن أبي سعيدٍ رَفَعَهُ قَالَ: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا فَإِنَّا نَحْنُ بِكَ فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعوَججْنا» رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ[١].

التركيب موضع البحث هو قول النبي ﷺ (تكفر اللسان). قال صاحب اللسان: «تُكَفِّرُ لِلِّسَانِ أَي تَذِلّ وتُقِرّ بِالطَّاعَةِ لَهُ وَتَخْضَعُ لأَمره. والتَّكْفِير: هُوَ أَن يَنْحَنِيَ الإِنسان ويطأْطئ رأْسه قَرِيبًا مِنَ الرُّكُوعِ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يُرِيدُ تَعْظِيمَ صَاحِبِهِ. وَالتَّكْفِيرُ: تَتْوِيجُ الْمَلِكِ بِتَاجٍ إِذا رُؤِيَ كُفِّرَ لَهُ. وَفِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ أُمية وَالنَّجَاشِيِّ: رأَى الْحَبَشَةَ يَدْخُلُونَ مِنْ خَوْخَةٍ مُكَفِّرين فوَلَّاه ظَهْرَهُ وَدَخَلَ»[٢].

قال عمرو بن كلثوم:

نكفـــر باليـــدين إذا التقينـــا ونلقـــى مـــن مخافتنـــا عصـــاكا[٣]

فهي استعارة مكنية؛ حيث شبه النبي ﷺ الجوارح بأشخاص يخضعون وينكسرون ذلًا لسيدهم الذي بيده أمرهم وهو اللسان فيطلبون منه الاستقامة فلا يزل في الحديث؛ لأن خطأه وشططه فيه الهلاك لباقي الجسد.

---

(١) التبريزي – المشكاة – ج٣ ص١٣٦٠ حديث رقم ٤٨٣٨.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج ٥ ص١٥٠ + الطيبي – شرح المشكاة – ج١٠ ص ٣١٢٤ + المناوي – فيض القدير – ج ١ ص ٢٨٦.

(٣) الطيبي – شرح المشكاة – ج١٠ ص ٣١٢٤.

٢٠- رحم أبلها ببلالها

عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ آل فُلَانٍ لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا» مُتَّفق عَلَيْهِ(١).

التركيب موضع البحث هو قول النبي ﷺ (رحم أبلها ببلالها). قال الطيبي: «(أبلها ببلالها) أي أنديها بما يجب أن يندى. والعرب تقول للقطيعة: اليبس، قال الشاعر:

فلا تيبسوا بيني وبينكم الثرى فإن الذي بيني وبينكم مثرى

شبه قطيعة الرحم بالحرارة تطفأ بالماء ويندى بالصلة، ويقال للوصل: بلل يقتضى الالتصاق والاتصال، والهجر يبس يفضي إلى التفتت والانفصال»(٢).

فاستعار النبي ﷺ البل بالماء ليقوي الصلة بينه وبين رحمه، شبه الرحم بأرض يحييها الماء فتنبت وتخرج خيراتها، وتقفر وتجدب إذا انقطع عنها الماء الذي هو سبب حياتها.

قال الهروي: «(أَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا) أَيْ بِصِلَتِهَا وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهَا، وَالْأَصْلُ فِي مَعْنَاهُ أَنْ يُقَالَ: أُنَدِّيهَا بِمَا يَجِبُ أَنْ تُنَدَّى لِئَلَّا تَنْقَطِعَ، وَأَصِلُهَا بِمَا يَنْبَغِي أَنْ تُوصَلَ بِهِ، يُقَالُ: الْوَصْلُ بَلٌّ يُوجِبُ الِالْتِصَاقَ وَالِاتِّصَالَ، وَالْهَجْرُ يُبْسٌ يُفْضِي إِلَى التَّعَنُّتِ

(١) التبريزي- مشكاة المصابيح - ج١٠ ص٣١٥٦ حديث رقم ٤٩١٤.

(٢) الطيبي - شرح مشكاة المصابيح - ج١٠ ص٣١٥٦.

وَالِانْفِصَالِ، فَالْبِلَالُ بِالْكَسْرِ مَا يُبَلُّ بِهِ الْحَلْقُ مِنَ الْمَاءِ وَاللَّبَنِ، وَالْمُرَادُ بِهِ هَهُنَا مَا يُوصَلُ بِهِ الرَّحِمُ مِنَ الْإِحْسَانِ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّرَّاحِ: يُرْوَى بِفَتْحِ الْبَاءِ عَلَى الْمَصْدَرِ وَبِكَسْرِهَا جَمْعُ بَلَلٍ مِثْلُ جَمَلٍ وَجِمَالٍ، وَقِيلَ الْكَسْرُ أَوْجَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ «بُلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ» أَيْ: صِلُوهَا وَنَدُّوهَا»[1].

وقوله: (ببلاها) فيه مبالغة كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة : ١]، أي زلزالها الذي يستوجبه في مشيئة الله سبحانه وتعالى، وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده. فالمعنى أبلها بما عرف واشتهر عند الله وعند الناس ما هو، فلا أترك من ذلك شيئًا. شبه الرحم بأرض إذا بلت بالماء حق بلالها، أثمرت ويرى في ثمرتها أثر النضارة. وإذا تركت يبست وأجدبت، فلم تثمر إلا العداوة والقطيعة[2].

يظهر في هذه الاستعارة أثر البيئة في الجزيرة العربية، حيث يوجد الماء في مكان وينعدم في آخر، فيظهر أثر وجوده بخروج الزرع والكلأ الذي يصلح حياة الناس ومعاشهم، وينعدم الماء من مكان أو ينفد فيستحيل خرابا يبابا لا تصلح معه حياة ولا يستقيم معه معاش، فأحرص إنسان على الماء هو من يعاين وجوده تارة ويفقده تارة أخرى ومن ثم حسن استعمال الماء وماله من حسن الأثر على الحياة بقوة العلاقة بين ذوي الأرحام.

---

(١) أبو الحسن الهروي – مرقاة المفاتيح – ج٧ ص ٣٠٨١.

(٢) انظر الطيبي – شرح مشكاة المصابيح – ج١٠ ص٣١٥٧.

٢١- أنتق أرحامًا

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَالِمِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ عُوَيْمِ بْنِ سَاعِدَةَ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالْأَبْكَارِ فَإِنَّهُنَّ أَعْذَبُ أَفْوَاهًا وَأَنْتَقُ أَرْحَامًا وَأَرْضَى بِالْيَسِيرِ». رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه مُرْسلا (حسن)(١).

التركيب موضع البحث هو قول النبي ﷺ: (أنتق أرحامًا). قال صاحب اللسان: «النَّتْقُ: الزَّعْزَعَةُ وَالْهَزُّ والجَذْب والنَّفْض. ونَتَقَ الشيءَ يَنْتِقُه ويَنْتُقُه، بِالضَّمِّ، نَتْقًا: جَذَبَهُ وَاقْتَلَعَهُ. وَفِي التَّنْزِيل: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾[الأعراف: ١٧١]، أَيْ زَعْزَعْناه وَرَفَعْنَاهُ، قَالَ الشَّاعِرُ:

قَدْ جَرَّبوا أَخلاقَنا الجَلائِلا ونَتَقُوا أَحلامنا الأَثاقلا

فَلَمْ يَرَ الناسُ لَنَا مُعادِلا

ونَتَقْتُ الغَرْبَ مِنَ الْبِئْرِ أَي جَذَبْتُهُ. ونَتَقَ السِّقاءَ والجِراب وَغَيْرَهُمَا مِنَ الأَوعية نَتْقًا إِذَا نَفَضَهُ لِيَقْتَلِعَ مِنْهُ زُبْدَتَهُ، وَقِيلَ: نَفَضَهُ حَتَّى يَسْتَخْرِجَ مَا فِيهِ»(٢).

فهذا هو المعنى الحقيقي للنتق أما المعنى المجازي في الحديث فيقول عنه ابن منظور: «ونَتَقَت الْمَرْأَةُ وَالنَّاقَةُ تَنْتُقُ نُتوقًا وَهِيَ ناتِق ومِنْتاق: كَثُرَ وَلَدُهَا.

---

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٢ص٩٢٩ حديث رقم ٣٠٩٢ وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير بلفظ «تزوجوا الأبكار فإنهن أعذب أفواها وأنتق أرحاما وأرضى باليسير».ج١ ص٥٦٦ حديث رقم ٢٩٣٩.

(٢) ابن منظور – لسان العرب – ج١٠ ص٣٥١.

وَفِي الْحَدِيثِ: «عَلَيْكُمْ بالأَبكار فَإِنَّهُنَّ أَنْتَقُ أَرْحامـًا.... » معناه أَنهن أَكثر أَولاداً، والناتِقُ: الْكَثِيرَةُ الأَولاد. وَيُقَالُ للمرأَة ناتِقٌ لأَنها تَرْمِي بالأَولاد رَمْيًا»[1].

فهو بذا مجاز مرسل علاقته المحلية حيث ذكر محل الولد وأراد الولد نفسه. وقوله ﷺ أنتق استعارة من قولهم: (نَتَق السقاء) إذا نفضه ليخرج ما فيه، شبه الرحم بوعاء يخرج ما فيه من الأولاد.

وَقَالَ النَّابِغَة يصف جَيْشًا [من الْكَامِل]:

لـم يحرمـوا حسـن الْغـذَاء وأمهـم دحقـت عَلَيْـك بنـاتق مـذكار

يُرِيد أَنهم غذوا غذَاء حسنا فنموا وكثروا وَقَوله دحقت عَلَيْك بناتق أَي هِيَ نَفسهَا ناتق[2]. قال أبو الحسن الهروي: «وَإِطْلَاقُ الْأَرْحَامِ عَلَى الْأَوْلَادِ لِمُلَابَسَةٍ بَيْنَهُمَا، وَالْمَعْنَى أَرْحَامُهُنَّ أَكْثَرُ قَبُولًا لِلنُّطْفَةِ لِقُوَّةِ حَرَارَةِ أَرْحَامِهِنَّ»[3].

(١) ابن منظور – لسان العرب – ج١٠ ص٣٥٢.

(٢) ابن قتيبة – غريب الحديث – ج١ ص١٥٨.

(٣) أبو الحسن الهروي – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح – ج٥ ص٢٠٤٨.

خاتمة البحث

وبعد لأي فها هو ذا البحث خرج على هذه الصورة في مقدمة وبابين:

وكانت المقدمة حديثا عن عناية القرآن والسنة باللفظ وتوخي الدقة في اختياره مناسبًا للسياق ومراعيًا لمقتضى الحال وأيدنا الحديث بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾[البقرة: ١٠٤]، وقول النبي ﷺ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: خَبُثَتْ نَفْسِي وَلَكِنْ لِيَقُلْ: لَقِسَتْ نَفْسِي» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١). فرأينا كيف أمر الله بالعدول عن كلمة إلى أخرى ليستقيم المعنى دون لبس وكيف نهى النبي ﷺ عن النطق بكلمة وأمر بأخرى – وإن كانت غريبة – لقدرة الثانية على النهوض بما لم تقم به الأولى.

وبينت في المقدمة سبب اختياري لهذا الكتاب موضع الدراسة وهو «مشكاة المصابيح» للخطيب التبريزي هذا السفر الضخم الذي حوى كثيرًا من أحاديث الرسول ﷺ وكيف لا؟ وقد اضطلع بشرحه عالم فذ من علماء البلاغة هو الطيبي رحمه الله فكانت له رؤية ثاقبة وعناية بالغة بمفردات الحديث وبيان النواحي البلاغية في اختيار الكلمات في كل حديث.

---

(١) التبريزي – مشكاة المصابيح – ج٣ ص١٣٤٦.

وكان الباب الأول: الغريب بين البلاغة والأسلوبية: وأردنا فيه إلي بيان ماهية الغريب وتباين الآراء حول جدوى استعماله في النصوص ووقع في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في تعريف الغريب وأهمية معرفته بكونه قد صار علمًا مستقلا لا سيما عند علماء الحديث الذين أطلقوا عليه علم غريب الحديث هذه العناية التي انسحبت لعلماء البلاغة والتي حدت بهم إلى تصنيف المؤلفات حول الغريب من أمثال الزمخشري.

الفصل الثاني: الغريب في دراسة البلاغيين وانقسم الحديث فيه إلى ثلاثة أقسام قسم خاص بنظرة البلاغيين القدماء للغريب واختلافهم في ماهيته وتباين وجهتم حول جدوى استعماله فعرضنا لرأي الجاحظ وابن سنان الخفاجي والباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وابن الأثير صاحب المثل السائر والقلقشندي.

وقسم خاص خاص بنظرة البلاغيين المعاصرين للغريب والتي جاءت نظرتهم متوافقة لما نسعى لإثباته من ضرورة الأخذ في الاعتبار قبل أي شيء إلى السياق وما للكلمة من دور في خدمة هذا السياق فلا توصف كلمة بالفصاحة وأخرى بضدها بل نعوّل على السياق الذي تحسن فيه كلمة قد تقبح هي ذاتها في سياق آخر ورأينا من خلال بضعة نماذج كيف كانت عناية البلاغيين باللفظ الغريب وبيان الأوجه الجمالية له وإظهار ما له من رونق في النص الذي اندرج فيه.

والقسم الثالث كان عن الغريب في دراسة الأسلوبيين حيث جاءت نظرتهم للفظ عامة – شائعه وغريبه – فنراهم قد ركزوا دراستهم حول اللفظ من جوانبه المعجمية والصرفية والصوتية والنحوية وشرعوا يظهرون ما له من إيجابيات من خلال جوانبه كاملة فاتسمت نظرتهم بالعمق والتحليل الدقيق لمفردات النص الأدبي.

وكان الباب الثاني: البلاغة في غريب الحديث النبوي: وقمنا فيه بدراسة ثلة كبيرة من غريب الحديث وألقينا الضوء على مدى ملاءمة هذه الكلمات للسياق الذي انتظمت فيه وأحسب أني لم أقف موقف المدافع عن الغريب في الحديث النبوي بل وقفت موقف من أراد أن يميط اللثام عن جماليات هذا الغريب؛ ليرى الناس روعة هذه الألفاظ وكيف قد جاءت لترفع النصوص من مستوى الكلام العادي إلى مستوى أدبي رفيع بما لها من دلالات معجمية وصور خيالية جاءت مناسبة للسياق مستوحاة من البيئة العربية الأصيلة.

ووقع الباب في أربعة فصول: كل فصل قد عني بنوع من الغريب حسب تقسيمنا له **الفصل الأول**: البلاغة في الغريب المعجمي وهو ما اتصف بالغرابة لقلة دورانه على الألسن ورأينا فيه كيف عدل الرسول ﷺ عن لفظ واختار آخر لما للآخر من دلالات خاصة ينفرد بها عن بقية البدائل المعجمية حيث إن لكل لفظة خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض المعاني وإن كانا قد يشتركان في بعضها.

الفصل الثاني: البلاغة في الغريب الاشتقاقي: وغرابة هذا النوع مستمدة من انتقاء صيغة صرفية نادرة الاستعمال والعدول عن أخرى شائعة لما للغريبة من إشارات دلالية أو بلاغية غير موجودة في الشائعة. حيث امتازت العربية باتساع الأبنية وكثرة المعاني التي يمكن أن تجيش بها النفس فإن للمادة الواحدة صيغًا متعددة المعاني تعمل على إثراء المعاني الفنية التي يريد المتحدث أن يعبر عنها.

الفصل الثالث: البلاغة في الغريب المجازي: وآثرت هنا أن يكون للكلمة الغريبة شقان الأول: غرابة اللفظة من الناحية الدلالية والثاني: أن تكون الكلمة قد وضعت مكانها من جهة المجاز والاستعارة لا على جهة الحقيقة وكان دوري هنا هو محاولة الربط بين المعنى الحقيقي الذي وضعت من أجله الكلمة والمعنى المجازي الذي تطلبه السياق وبينا مناسبة الأول للثاني.

الفصل الرابع: البلاغة في الغريب التركيبي: فالغرابة هنا منشؤها التركيب بين الكلمات المفردة وإن كانت الكلمات المفردة ليست منتمية إلى الغريب ولكن الغرابة حصلت من ضم المفردات إلى بعضها وقد أشار لهذا النوع ابن الأثير في قوله: «وأعجب ما في ذلك أن تكون الألفاظ المفردة التي تركبت منها المركبة واضحة كلها وإذا نظر إليها مع التركيب احتاجت إلى استنباط وتفسير وهذا لا يختص به القرآن وحده بل في الأخبار النبوية والأشعار والخطب والمكاتبات كثير من ذلك»[1].

(١) ابن الأثير – المثل السائر – ج١ ص٨٣.

وأخيرا فإني لا أجد ما أسوّغ به ما بي من تقصير وضعف إلا قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فما كان من توفيق فمن الله وما كان زلل أو نسيان فمني ومن الشيطان والله ورسوله منه براء.

والحمد لله رب العالمين

ثبت المصادر والمراجع

ثبت المصادر والمراجع

الآمدي أبو القاسم الحسن بن بشر (ت ٣٧٠ هـ)

١- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري

المجلد الأول والثاني: تحقيق/ السيد أحمد صقر

الناشر: دار المعارف - الطبعة الرابعة [سلسلة ذخائر العرب (٢٥)]

المجلد الثالث: تحقيق / د. عبد الله المحارب

الناشر: مكتبة الخانجي - الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م

ابن أبي الإصبع عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (المتوفى: ٦٥٤هـ).

٢- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن.

تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف - الناشر: الجمهورية العربية المتحدة-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي.

ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (المتوفى: ٦٠٦هـ).

٣- النهاية في غريب الحديث والأثر.

الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي.

ابن الأثير نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، (المتوفى: ٦٣٧هـ) وهو أخو السابق.

٤- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر.

المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد.

الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت - عام النشر: ١٤٢٠ هـ.

ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ).

٥- غريب الحديث.

المحقق: الدكتور عبد المعطي أمين القلعجي.

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٥.

ابن حجر أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ).

٦- نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر (مطبوع ملحقا بكتاب سبل السلام).

المحقق: عصام الصبابطي - عماد السيد.

الناشر: دار الحديث - القاهرة - الطبعة: الخامسة ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

ابن عبد ربه أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ).

٧- العقد الفريد.

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ.

ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ).

٨- غريب الحديث.

المحقق: د. عبد الله الجبوري - الناشر: مطبعة العاني - بغداد

الطبعة: الأولى، ١٣٩٧.

٩- أدب الكاتب.

المحقق: محمد الدالي - الناشر: مؤسسة الرسال - الطبعة: بدون.

ابن القيم محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ).

١٠- التبيان في أقسام القرآن.

المحقق: محمد حامد الفقي - يالناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان.

ابن منظور محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ).

١١- لسان العرب.

الناشر: دار صادر - بيروت - الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي [١٩٨ - ٢٨٥].

١٢- غريب الحديث.

المحقق: د. سليمان إبراهيم محمد العايد.

الناشر: جامعة أم القرى - مكة المكرمة - الطبعة: الأولى، ١٤٠٥.

أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، الحُصري القيرواني (المتوفى: ٤٥٣هـ)

١٣- زهر الآداب وثمر الألباب

الناشر: دار الجيل، بيروت - الطبعة: الأولى

أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ).

١٤- غريب الحديث.

المحقق: د. محمد عبد المعيد خان.

الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن.

الطبعة: الأولى، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.

أبو موسى محمد بن عمر بن أحمد بن عمر بن محمد الأصبهاني المديني، (المتوفى: ٥٨١هـ).

١٥- المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث.

المحقق: عبد الكريم العزباوي.

الناشر: جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - مكة المكرمة.

• دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية

الطبعة: الأولى. جـ ١(١٤٠٦هـ-١٩٨٦م)- جـ ٢، ٣ (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م).

أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، (المتوفى: ٣٣٧هـ).

١٦- نقد الشعر.

الناشر: مطبعة الجوائب - قسطنطينية. الطبعة: الأولى، ١٣٠٢ هـ.

أحمد الشايب دكتور.

١٧- الأسلوب.

الناشر: مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – الطبعة: الثالثة.

أحمد بن محمد الخراط دكتور.

١٨- منهج ابن الأثير الجزري في مصنفه «النهاية في غريب الحديث والأثر».

الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

الطبعة: الأولى.

الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ).

١٩- المفردات في غريب القرآن.

المحقق: صفوان عدنان الداودي.

الناشر: دار القلم، الدار الشامية–دمشق بيروت –الطبعة: الأولى– ١٤١٢ هـ.

الألباني محمد ناصر الدين، نوح بن نجاتي بن آدم (المتوفى: ١٤٢٠هـ).

٢٠- صحيح الجامع الصغير وزياداته.

الناشر: المكتب الإسلامي – الطبعة: الأولى

برهان الدين ناصر بن عبد السيد أبى المكارم ابن على، أبو الفتح، الخوارزمي المطرِّزِىّ (المتوفى: ٦١٠هـ).

٢١- المغرب في ترتيب المعرب.

الناشر: دار الكتاب العربي – الطبعة: بدون تاريخ.

البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء الشافعي (المتوفى: ٥١٠هـ)

٢٢- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي.

المحقق: عبد الرزاق المهدي.

الناشر: دار إحياء التراث العربي –بيروت - الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ.

التبريزي محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: ٧٤١هـ).

٢٣- مشكاة المصابيح.

المحقق: محمد ناصر الدين الألباني.

الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت - الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥ .

تمام حسان دكتور

٢٤- اللغة العربية معناها ومبناها.

دار الثقافة – المغرب - الطبعة: ١٩٩٤ م.

الثعالبي عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور (المتوفى: ٤٢٩هـ).

٢٥- فقه اللغة وسر العربية.

المحقق: عبد الرزاق المهدي.

الناشر: إحياء التراث العربي - الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

الجاحظ عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان، (المتوفى: ٢٥٥هـ).

٢٦- البيان والتبيين.

الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت - عام النشر: ١٤٢٣ هـ.

٢٧- الحيوان.

الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ.

الجرجاني أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (المتوفى: ٤٧١هـ).

٢٨- أسرار البلاغة. قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر.

الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

٢٩- دلائل الإعجاز.

المحقق: د. عبد الحميد هنداوي.

الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة: الأولى،١٤٢٢هـ – ٢٠٠١ م.

حسن طبل دكتور

٣٠- حول الإعجار البلاغي للقرآن قضايا ومباحث.

الناشر: مكتبة الإيمان – المنصورة – الطبعة: الأولى – ٢٠٠٥ م.

٣١- البلاغة العربية مصطلحات ومفاهيم

الناشر: ألفا للنشر والتوزيع – الطبعة: الأولى.

٣٢- في البلاغة القرآنية.

جامعة القاهرة – كلية دار العلوم – الطبعة: بدون تاريخ.

٣٣- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية.

جامعة القاهرة – كلية دار العلوم – الطبعة: ١٩٩٠ م.

الخطابي أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي(المتوفى: ٣٨٨هـ).

٣٤- غريب الحديث.

المحقق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي وخرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي.

الناشر: دار الفكر - الطبعة: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٣٥- بيان إعجاز القرآن.

مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة: ذخائر العرب (١٦)].

المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام.

الناشر: دار المعارف بمصر - الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م.

الخفاجي أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (المتوفى: ٤٦٦هـ).

٣٦- سر الفصاحة.

الناشر: دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

الرافعي مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ).

٣٧- السُّمُوُّ الرُّوحِيُّ الْأَعْظَمُ وَالْجَمَالُ الْفَنِّيُّ فِي الْبَلاَغَة النَّبَوِيَّة.

المحقق: أبو عبد الرحمن البحيري وائل بن حافظ بن خلف.

الناشر: دار البشير للثقافة والعلوم - الطبعة: الأولى.

٣٨- تاريخ آداب العرب.

الناشر: دار الكتاب العربي – لبنان – الطبعة: الأولى.

الزَّبيدي محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني (المتوفى: ١٢٠٥هـ).

٣٩- تاج العروس من جواهر القاموس.

المحقق: مجموعة من المحققين – الناشر: دار الهداية.

الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ).

٤٠- أساس البلاغة.

تحقيق: محمد باسل عيون السود.

الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م.

٤١- الفائق في غريب الحديث والأثر.

المحقق: علي محمد البجاوي –محمد أبو الفضل إبراهيم.

الناشر: دار المعرفة – لبنان – الطبعة: الثانية.

٤٢- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل

الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الثالثة – ١٤٠٧ هـ

سامي عباينة دكتور

٤٣- اتجاهات النقاد العرب في قراءة النص الشعري الحديث.

الناشر: عالم الكتب الحديث – الأردن – الطبعة: الثانية ٢٠١٠ م.

السخاوي شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن (المتوفى: ٩٠٢هـ).

٤٤- فتح المغيث بشرح الفية الحديث للعراقي.

المحقق: علي حسين علي.

الناشر: مكتبة السنة – مصر – الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

السرقسطي قاسم بن ثابت بن حزم العوفي، أبو محمد (المتوفى: ٣٠٢هـ).

٤٥- الدلائل في غريب الحديث.

تحقيق: د. محمد بن عبد الله القناص.

الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض – الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (المتوفى: ٩١١هـ).

٤٦- ألفية السيوطي في علم الحديث.

صححه وشرحه: الأستاذ أحمد محمد شاكر.

الناشر: المكتبة العلمية.

٤٧- معترك الأقران في إعجاز القرآن.

دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ– ١٩٨٨م.

شفيع السيد دكتور

٤٨- الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي

دار الفكر العربي – الطبعة الأولى ١٩٨٦ م.

٤٩- نظرية الأدب دراسة في المدارس النقدية الحديثة.

مكتبة الآداب – القاهرة – الطبعة الثالثة ٢٠١٤.

شكري عياد دكتور

٥٠- مدخل إلى علم الأسلوب.

الناشر: دار العلوم للطباعة والنشر – الرياض – الطبعة: الأولى.

صلاح فضل دكتور

٥١- علم الأسلوب.

الناشر: دار الشروق – مصر – الطبعة: الأولى – ١٩٩٨م.

الطيبي شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (٧٤٣هـ).

٥٢- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ(الكاشف عن حقائق السنن).

المحقق: د/ عبد الحميد هنداوي.

الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة – الرياض).

الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

عباس حسن دكتور (المتوفى: ١٣٩٨هـ).

٥٣- النحو الوافي.

الناشر: دار المعارف – الطبعة الخامسة عشرة.

عبد الحكيم راضي دكتور

٥٤- النقد اللغوي في التراث العربي

مجلة فصول عدد تراثنا النقدي ١٩٨٦ م ج٢ ع١.

عبد الحميد هنداوي دكتور.

٥٥- التصوير الفني والتصوير البياني.

الناشر: دار الهاني – القاهرة – الطبعة: الأولى – ٢٠١١ م.

٥٦- دراسات أسلوبية.

الناشر: دار الهاني - القاهرة - الطبعة: الأولى - ٢٠٠٢ م.

٥٧- إعجاز الكلمة القرآنية دراسة أسلوبية بلاغية.

مؤسسة العلياء للنشر والتوزيع - القاهرة - الطبعة: بدون تاريخ.

٥٨- الإعجاز الصوتي في القرآن.

الدار الثقافية للنشر - الطبعة: الأولى - ٢٠٠٤ م.

٥٩- الإعجاز الصرفي في القرآن.

المكتبة العصرية - بيروت - الطبعة الأولى - ٢٠٠١م.

عبد الرحمن عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة (المتوفى: ١٤٢٥هـ).

٦٠- البلاغة العربية.

الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت.

الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

عبد السلام المسدي دكتور.

٦١- الأسلوبية والأسلوب.

الناشر: الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس. الطبعة: الأولى ١٩٧٧.

عبد الكريم النهشلي القيرواني.

٦٢- الممتع في صنعة الشعر

المحقق: الدكتور محمد زغلول سلام، أستاذ اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب- جامعة الإسكندرية - الناشر: منشأة المعارف، الإسكندرية - مصر.

عبده الراجحي دكتور

٦٣- مقالات عبده الراجحي

دار الصحابة للتراث بطنطا.

إعداد: سمير إسماعيل / محمود عبد الصمد - الطبعة: الأولى - ٢٠١١ م.

العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ).

٦٤- كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر.

المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم.

الناشر: المكتبة العنصرية - بيروت - عام النشر: ١٤١٩ هـ.

فتح الله سليمان دكتور

٦٥- الاسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية

الدار الفنية للنشر والتوزيع - الطبعة: الأولى.

القالي أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان (المتوفى: ٣٥٦هـ).

٦٦- الأمالي.

عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي.

الناشر: دار الكتب المصرية - الطبعة: الثانية، ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦م.

القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري شمس الدين (المتوفى: ٦٧١هـ).

٦٧- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي.

تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش.

الناشر: دار الكتب المصرية -القاهرة - الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

القلقشندي أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (المتوفى: ٨٢١هـ).

٦٨- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء

الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – الطبعة: بدون.

القيرواني أبو على الحسن بن رشيق الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ).

٦٩- العمدة في محاسن الشعر وآدابه.

المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

الناشر: دار الجيل - الطبعة: الخامسة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

المباركفوري أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام (المتوفى: ١٤١٤هـ).

٧٠- مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح.

الناشر: إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء - الجامعة السلفية - بنارس الهند.

الطبعة: الثالثة - ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م.

المبرد محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ).

٧١- الكامل في اللغة والأدب.

المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة - الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)

٧٢- المعجم الوسيط

الناشر: دار الدعوة - الطبعة: الأولى.

محمد العبد دكتور

٧٣- اللغة والإبداع الأدبي.

دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع -القاهرة - الطبعة: الأولى- ١٩٨٩م.

محمد بدري عبد الجليل دكتور.

٧٤- المجاز وأثره في الدرس اللغوي.

الناشر: دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية - الطبعة: الأولى - ٢٠٠٤ م.

٧٥- براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور.

الناشر: دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية- الطبعة: الأولى - ٢٠٠٣ م.

محمد محمد أبو موسى دكتور

٧٦- خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني

الناشر: مكتبة وهبة - الطبعة: السابعة.

محمد مندور دكتور (المتوفى: ١٣٨٥هـ)

٧٧- في الميزان الجديد

الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة: يناير ٢٠٠٤م

محمد النويهي دكتور

٧٨- الشعر الجاهلي.

الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر - الطبعة: بدون تاريخ.

محمود نحلة دكتور

٧٩- لغة القرآن الكريم في جزء عم

دار النهضة العربية - بيروت - الطبعة: الأولى ١٩٨١ م.

مديحة السايح دكتور

٨٠- المنهج الأسلوبي في النقد الأدبي

دار الثقافة العربية - القاهرة - الطبعة: الثانية - ٢٠١٣ م

معمر بن المثنى أبو عبيدة التيمى البصري (المتوفى: ٢٠٩هـ)

٨١- مجاز القرآن.

المحقق: محمد فواد سزكين.

الناشر: مكتبة الخانجى - القاهرة - الطبعة: ١٣٨١ هـ.

المناوي زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)

٨٢- فيض القدير شرح الجامع الصغير.

الناشر: المكتبة التجارية الكبرى - مصر - الطبعة: الأولى، ١٣٥٦هـ.

الميداني أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري(المتوفى: ٥١٨هـ)

٨٣- مجمع الأمثال

المحقق: محمد محيى الدين عبد الحميد - الناشر: دار المعرفة- بيروت، لبنان.

الهاشمي زيد بن عبد الله بن مسعود بن رفاعة، أبو الخير (المتوفى: بعد ٤٠٠هـ)
٨٤- الأمثال.

الناشر: دار سعد الدين، دمشق - الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

الهروي علي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)
٨٥- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح.

الناشر: دار الفكر، بيروت – لبنان - الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي (المتوفى: ٧٤٥هـ).
٨٦- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز.

الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت - الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

• مراجع مترجمة

رينيه ويلك - أوستن وارين
٨٧- نظرية الأدب

ترجمة عادل سلامة - دار المريخ – الرياض - الطبعة: بدون - ١٩٩٢ م.

فهرس

المقدمة ٥
الباب الأول: الغريب بين البلاغة والأسلوبية ١١
الفصل الأول: تعريف الغريب ١٣
الفصل الثاني: الغريب في دراسة البلاغيين ٢٣
الفصل الثالث: الغريب في دراسة الأسلوبيين ٩٩
الباب الثاني: البلاغة في غريب الحديث النبوي ١٢٩
الفصل الأول: البلاغة في الغريب المعجمي ١٣٣
الفصل الثاني: البلاغة في الغريب الاشتقاقي ١٨٧
الفصل الثالث: البلاغة في الغريب المجازي ٢٠٥
الفصل الرابع: البلاغة في الغريب التركيبي ٢٧٣
خاتمة البحث ٣١١
ثبت المصادر والمراجع ٣١٧